

العقل الإسلامي

قرآني . علمي . سياسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ

حَكِيمٌ * سورة الزخرف

الفهرس

- 7..... بين يدي كتاب " العقل الإسلامي " بقلم الدكتور علي مقلد
13..... مقدمة المؤلف

1

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ

- 15..... ودمر الله الإتحاد السوفياتي
23..... وحقق الله وعيده فأسقط أحد الطاغوتين
26..... لماذا أسقط الله الإتحاد السوفياتي ؟

2

- 35..... وثنية حديثة
40..... الحب الأقدس
41..... كيف يُحِبُّ اللهُ

3

الرحمة هي الغاية من خلق الإنسان

- 45..... وهو اختار نهايته
51..... من المهيمن على الكون وعالم أسراره ؟
53..... لماذا يُذَلُّ الإنسان نَفْسَهُ بالمعصية ؟
54..... الناس مرُّوا بتجربة المعصية قبل هذه الحياة الدنيا

4

- 57..... أين كانت جنة آدم .. الأرض الدنيا ليست هذه الكرة وحدها
60..... الأرض من الحجر ؟ أم الحجر من الأرض ؟
62..... آدم أبو البشر .. والبشر أسمهم آدم
65..... وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ .. (أي المجموع الإنساني)

- 67..... مؤمنون وكفار قبل الدنيا .. أهبطوا إليها جميعاً ..
67..... بحث يدحض النظرية العقلية في الفلسفة الإسلامية

- 85..... الدماغ بين علم العقل وعلم النفس
87..... الخلايا العصبية أو مفاعل النشاط البشري
89..... الإدراك بين النوعية والدرجة
90..... هل وزن الدماغ عند الإنسان دليل على سلامة تفكيره ؟
92..... الإنسان ليس أفضل خلق الله
93..... أدمغتهم كبيرة ولكنهم مجرمون
94..... الدماغ يزيد وينقص . بشر تحوّلوا إلى قروود
100..... العبرة في كيفية استعمال الدماغ
102..... بين العقل والنفس والدماغ
105..... العلاقات الوظيفية بين العقل والنفس والدماغ
107..... للعقل تفتح أبواب الملكوت
110..... كلمة في العقل في القلب
112..... الإدراك نسبي في مراتب الخلق ... والعقل هو الأقدس
116..... ذات الإنسان ثلاثية الماهية
118..... " وإذا النفوس زُوِّجَتْ "

- 121..... حقيقة الإنسان هي نفسه .. والبدن عنصر ثانوي
124..... نفسا البدن والجهاز العصبي : تعاقبان وتعافيان
125..... هل العلاج مشروع ؟
126..... تَلَفُ البدن يجرر الأنفس الثلاث
126..... قانون الهلاك والإهلاك

- 131..... إستعداداً ليوم القيامة : العقل أمانة نحاسب عليها
134..... بين تَهَجُّدِ الليل وصناعة القنبلة
137..... نهاية الرحلة ... فرح أعظم ، أو وجع أعظم .. في الأبدية
138..... فما هو دين الله سبحانه ؟
139..... الرسل أم الفلاسفة ؟
140..... اتخاذ القرار
141..... التيارات اللادينية
142..... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ
143..... التضحية في سبيل شرف الغاية
143..... رياضة محبة وجهاد أكبر

- 157..... رسالة إلى قادة الشرق والغرب ومن بينهما
- 165..... من أين القرآن؟ وقفة قصيرة مع الكمبيوتر .. هل في القرآن أسرار حسابية؟
الأحرف النورانية (شيفرة) .. الأحرف النورانية من الأسرار المطلسمة بسببها وبغيره
اتهم رسول الله (ص) لا عرافة ولا كهانة
- 166..... فداء عبد الله والد رسول الله (ص)
- 172..... تقدّم بلا غاية
- 173..... أمم تتحوّل إلى قراصنة .. ودين التوحيد ممنوع
- 175..... إن التوحيد في خطر
- 175..... اللاأخلاقية شعار حضاري مُعلنٌ

10

- 181..... بين القرآن و (الكتاب المقدس)
- 183..... العقل أم النفس الأمانة؟ العقل يدرك الكمال ويتكامل بخالقه
- 185..... أمجرات العلوم .. يُتَّهَمُ؟! ..
- 190..... النفس اللادينية سجينة

11

- 195..... القرآن بين العقل والكون
- 200..... القرآن تبيان لكل شيء
- 202..... علم النفس الحديث شوّه الحقائق
- 204..... من وجوه العظمة في القرآن : ضبط الحقائق العلمية
- 205..... قَبِدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ
- 205..... القرآن لا يخطيء وإنما قد يخطيء المفسرون
- 207..... الإسلام سلط الضوء على الأفلاك وما يرى إلا الصديقون

12

- 211..... كتابان في كتاب الله : القرآن والفلك
- 213..... نموذج عن الفلك في العقل الإسلامي
- 214..... أول الغيث مع كوبرنيكوس
- 216..... القرآن يخبر عن حركة الشمس قبل أن يعرف ذلك بشر
- 220..... العلم المعاصر ما زال في رقعة تحت سماء من سبع سماوات

- 220..... الشمس ليست مركزاً للكون
 222..... علم الفلك في القرآن يفتح العقل على مصراعيه
 225..... من هنا أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله
 226..... كتابان لله يفسّر بعضهما بعضاً
 227..... مهمة العلم

13

- 229..... نحن وحضارة العام ألفين .. إلى أين؟!
 231..... وجهان للحضارة : جميل وقبيح
 239..... القيامة الأولى أو الصغرى
 241..... من هم أنصار الله : اليهود المفسدون ، أم العرب (الأميون) والأمة المسلمة؟
 242..... المعنى القرآني لِلْفُطَيِّ : أُمِّي وَأُمِّيَّين
 247..... التوحيد .. وأنبياء وأولياء .. والمهدي المنتظر .. والله أكبر
 249..... لا تدعوا مع الله أحداً
 251..... الله صاحب العصر والزمان
 253..... إذا دعي الله وحده كفروا

14

- 259..... الإسرائيليون : إفسادهم الثاني وعلوهم الكبير

15

- 271..... الحرب الثالثة .. والفتح المبين
 273..... حقائق قرآنية تقرر مصير الإسرائيليين ومصير العرب
 284..... السقوط الكبير بعد العلو الكبير
 296..... غرق الدولة العبرية في المحيط العربي . الإسلامي

16

- 307..... القرن العشرون الميلادي في مواجهة أشرار الساعة
 311..... الغيوم الحاررية (علمياً) هي الكسف (قرآنياً)
 315..... الانشقاق مائل في السماء
 319..... تكوير الشمس وانكدار النجوم شرطان مائلان في الفلك

17

- 335..... لا إسلام بدون توحيد
 337..... العلم فرصة تعبديّة
 338..... الميزان الجريح .. بين العنصرية والمجاعة
 340..... الجنون .. أو الجهاد في سبيل الله
 341..... لماذا تصدّع المجمع الإسلامي ؟
 342..... المطلوب توازن الشخصية الإسلاميّة

بين يدي كتاب " العقل الإسلامي "

بقلم الدكتور علي مقلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على مُحَمَّد وآله وصحبه الأبرار

الحمد لله

وبعد

تيسر لي بحمد الله مراجعة كتاب " العقل الإسلامي " للعلامة الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين . وأحب أن أدون مشاعري بعد أن انتهيت من قراءته الأولى وأقول الأولى لأني أرغب إن تيسر لي الأمر في مطالعته ثانية وأكثر .

فالكتاب يعطي القارىء نفحة إيمانية فريدة .

ويتواضع أقول إني مكرّس وقتي لمراجعة الكتب الدينية بمذاهبها المختلفة وبخاصة الأحاديث النبوية الشريفة . ولكني لم أحسّ بعظمة التوحيد وأهميته في الإسلام كما أحسسته عند مراجعة هذا الكتيب الصغير الحجم إذا قورن بغيره في موضوعه .

فهل سرّ هذا الكتاب نابع من بلاغته .

والبلاغة حسن الأداء بأخصر الكلام وأوجزه .

هل في الكتاب أسرار من القرآن ، والآيات القرآنية لحمته وسداه ومبدأه ومنتهاه .
والقرآن لا تنضب معاجزه .

هل في الكتاب ارتقاء في فهم مراتب التوحيد إلى أعلاها .

وللتوحيد كما هو معلوم مراتب أربع وربما أكثر :

- . توحيد المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم التوحيد وقلوبهم خالية منه .
- . توحيد المقلدين الذين يذكرون التوحيد بألسنتهم ويؤمنون به لا عن تفكير بل بالوراثة وبحكم مماشاة الناس فيما يقولون .
- . توحيد الممحصين الذين يحاولون جهدهم الإهتمام إلى أدلة عقلية صحيحة تثبت ما ورثوه من معتقد بالتوحيد . وهؤلاء تحكمتهم مخافة الله وتقواه فهم يسألون الله الهداية إلى صراطه المستقيم وهم على خوف دائم من أنفسهم وعلى إيمانهم أن ينازعهم الشيطان فيه .
- . وأخيراً توحيد العارفين ، وهم الذين تجاوزوا مرحلة الشك إلى اليقين ، فأعانهم الله عز وجل على أنفسهم فأزهر مصباح الهدى في قلوبهم ، وخلعوا سراويل الشهوات من نفوسهم ، أبصروا الطريق المستقيم فسلكوه مطمئنين .
- وسيكون واضحاً لمن يطالع هذا الكتاب بتجرد من أية روااسب أو تعصب لغير الله ، أو هوىً مضل ، أو مزاجية سوداوية ، أن الشيخ عبد الكريم آل شمس الدين واحد من هذه المرتبة ، مرتبة العارفين الذين هزموا الشيطان بعون ربهم ووهبوا أنفسهم لله عز وجل وتبارك وتعالى .

هل سر الكتاب كان في الروح الإشهادية والإستشهادية المنبعثة من طياته فكأن الشيخ شدته أكثر من غيره في عصره تكاليف آيات الإشهاد والإستشهاد الواردة في القرآن الكريم :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... } .

(البقرة / 143)

{ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } .

(آل عمران 140. 141)

فكلمة شهداء في الآية الثانية لها معنيان : الأول الذي في الآية الأولى وهو الإشهاد ، والثاني وهو الإستشهاد أي بذل النفس في سبيل الله على سن رمح أو سيف أو على سن قلم ، أو كلا الجهادين الأصغر والأكبر معاً . ويبدو أن الله عز وجل أراد هذه الملابس بين الجهادين ، أي بين الجهادين وغاية كل منهما .

وهنا تتجلى روعة حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الشأن :
" مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء " أو كما قال صلى الله عليه وآله . ونفس
هذا الذي نقوله نجده تقريباً في جميع الآيات التي وردت فيها كلمة شهادة أو شهيد أو شهداء .
ونكتفي للدلالة بالآيتين التاليتين ، قوله تعالى :

{ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ
بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .

(الزمر/69)

وقوله عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَانَفْسِكُمْ أَوْ
الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا
وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

(النساء/135)

ويكاد قارئ " العقل الإسلامي " يشك بين كون الكاتب ، بسيف كتب أم بقلم ،
وبحبر غمس أم بدم كربلائي .

بل هو التوحيد في الكتاب فوق كل شيء ، يقيناً إن السر هنا في معطيات الكتاب:
في جمال ديباجته وعمق مضامينه . والسر هو توفيق الله وتأييده وتسديده للشيخ المؤلف .

وهذا الكتاب بما فيه من دعوة إلى الله الذي هو غاية الغايات ، خير شاهد على أن
الله سبحانه يهدي إلى مقاليد أرضه وسماواته من يخلص له نيته وقلبه وعبادته في كل زمان
ومكان ، ومن هذه المقاليد ، القلم :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } .

(القلم/1)

والملاحظ والمعلوم ، أنه عز وجل يقسم بكثير مما خلق ، ولكن يقسم بما هو حق وبما هو خير . وهو إذ يستحيل أن يقسم بباطل ، فإن قسمه إذن (... وما يسطرون) يعني ما يسطرون من الحق وما يسطرون من الخير وما يسطرون من الجمال الذي لا فحش فيه ولا رذيلة (ولا جدال بالباطل ليدحضوا به الحق) ولا كفر ولا شرك ، ولا تهتك ولا تميع ولا فلتان ، ولا بدع في الدين ولا ضلالات .

وتبقى { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } أوسع وأرحب مساحات من مساحة الفن للفن والفكر الضارب خبط عشواء . ف (خبط عشواء) تبقى مهما حلق فيها الفكر وجنح فيها الخيال محصورة تحت هذه السماء الدنيا ، بينما مساحات ومسافات { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } عرضها السماوات والأرض (من فعل عرض وليس العرض مقابل الطول) أعدت للمتقين ، يجوبونها بالفكر وبالخيال ، وبعضهم بالنفس وبالروح ، ثم يوماً ما . لجميع أهل الزلفى . بالواقع الحسي المطلق الجناح والجمال .
وفي جميع هذه الحالات يعطون مقاليدها أو من مقاليدها :

{ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } .

(الأحقاف/19)

وهكذا نجد الكاتب والكتاب في ظل هذه الآية الكريمة { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } ، يستعرضان الكون الأرحب ، ومنه السبع سماوات وما فيهما وما بينهما ، دليلهما الأوثق ، هادياً ومسدداً ومعلماً ومرشداً ، كلام الله : أي القرآن الكريم .
ترى ذلك في مواضيع الكتاب التالية :

• (القرآن بين العقل والكون) .

• (كتابان في كتاب الله : القرآن والفلك) .

• (القرن العشرون الميلادي في مواجهة أشرطة الساعة) .

فهل هذا الذي ذكرت هو سر الكتاب ، أم أن سر الكتاب يكمن في قدرته على شدّ القارئ كي يمعن النظر جيداً في مصيره في الدنيا وفي الآخرة ، هذا المصير الذي يتهرب كل منا من النظر فيه مخافة أو جهلاً أو تقصيراً .

. أم تصديه لمواضيع تلح في أذهان الخاصة ولكنهم يتهربون منها إلى التلهي بطروحات لا تجرح الرأي العام : كموضوع : القرآن والعلوم الحديثة ، القرآن والحضارة ، القرآن وعلم الفلك وبخاصة موضوع المهدي : وأن الله عز وجل هو صاحب العصر والزمان دون غيره .
لا شك أن فريدة الكتاب وجاذبيته تكمن في كل ما ذكرنا . ولكن سرّ سره ، هو أن الكاتب انطلق فيه مسترشداً بالله وحده دون جميع خلقه ، ولم لا ، وهو سبحانه يقول :

{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } .
(الطلاق / 3.2)

أما غايته من كتابه هذا كما بدا لنا ، فهي أولاً أن يرفع إليه حبه الأعظم ، ثم المحبة المخلصة للناس ، محبة الشاب المندفع بإخلاص ، محبة العالم الموحد المخلص في توحيده لله ، محبة الإنسان المحب للإنسانية جمعاء .

يوضح ذلك ، ما أوجزه هو في مقدمته التي هي مناجاة محب مهاجر إلى حبيبه ، أكثر مما هي مقدمة للكتاب ، وفيها يسأل ربنا الكريم : (فاجعل اللهم هذا الكتاب سبيل هداية ورحمة ونجاة ، ورفع درجات لعبادك) .

فمن كان الله هاديه ودليله ، ومن كان الإخلاص في العمل سبيله ، ومحبة الناس بغيته ، فإن التوفيق سيكون حليفه إن شاء الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسمك الأعظم وباسمك الأكرم

يا حبيباه يا الله يا ربّاه

أنت وليي في الدنيا والآخرة .

بك اهتديتُ ، وبنعمتك أصبحتُ وأمسيّت .

فمما وهبتي ، وما علمتني ، ومما تفضلت عليّ ، هذا الكتاب . أسألك بكرم وجهك

الذي تحنُّ إليه قلوب أوليائك في الدنيا والآخرة ، ويستنيرُ به المستنيرون من أهل السماوات

والأرض ، أن تتقبل مني هذا القربان ، أتقربُ به لوجهك الكريم .

يا حياة قلبي ، ونور بصري وبصيرتي ، وروحي وراحتي ، ودنياي وآخرتي ، ويا ربي ، أنت

حسي وحدك لا شريك لك .

فاجعل اللهم هذا الكتاب ، سبيلَ هدايةٍ ورحمةٍ ونجاةٍ ، ورفعَ درجاتٍ لعبادك .

أعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك . لا أحصي

عليك ثناءً ، أنت كما أثنيتَ على نفسك ، لك الحمد ولك الشكر .

وبأسمائك الحسنى ، وبالإسم الأعظم جامع الأسماء ، وبك اللهم أسألك ، بحقك

وقدسك وبحق لا إله إلا أنت ، أن ترحمنا ، وتعفو عنا وتوفقنا

لطاعاتك ، وتجنّبنا معاصيك ، وتؤيدنا بنصرك ، وتفتح لنا الفتح المبين .

لك الحمد وسلام على عبادك الذين اصطفيت .

لك الحمد ولك الشكر كما حمدت نفسك ، وكما شكرت نفسك ، وكما ينبغي لكرم وجهك .

عبدك يا لا إله إلا أنت يا أكرم الأكرمين

عبد الكريم آل شمس الدين

(1)

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ }

ودمر الله الاتحاد السوفياتي : نصف العلم الجهنمي

فإلى متى النصف الآخر !؟

{...فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ .
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } . (84 . 85 : غافر) .

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ }
(النور : 55)

ومزق الله الاتحاد السوفياتي : نصف العلم الجهنمي
فإلى متى النصف الآخر ..

{ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ
(1) }

أما نحن المسلمين في أقطار الدنيا ، فهل من فائدة أن نقول بعد كل كشف من كشوفهم
، كنا نعلم هذا ، وفي قرآنا المجيد ذاك ، وفي إخبار نبينا صلى الله عليه وآله وأئمتنا نبأ ذلك ؟!

لا ريب أن معارفنا وعلومنا الأصيلة ، تفتح أمام عقولنا المسلمة لله ، أبواباً فيها الضوء وفيها اليقين ، مما يجعل النفس في عافية ، فتشعرُ بالطمأنينة إلى المصير ، إنطلاقاً من الثقة الكاملة بأنَّ وَعَدَ اللهُ حَقَّ :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعَدَ اللهُ حَقًّا .. } (2) .

وصحيح أن قوماً صبّوا كل اهتمامهم على عمارة الدنيا ، وبنوا لذلك

(1) سورة غافر ، الآية 21 .

(2) سورة لقمان ، الآية 33 .

المشاريع والمصانع وهم أهل ظلم وبطش وطغيان ، كأهل مدينة اليوم ، أُنذَرهم الله بقوله عز شأنه :

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } (1) .

ولما لم يراعوا ولم يقلعوا عن طغيانهم وكفرهم ، أرسل عليهم عذاباً استأصلهم من جذورهم ، وجعل مدتهم ومدنيتهم قاعاً صفصفاً ..

ولكن ذلك يجب أن يكون حافزاً للمسلمين على تطهير أنفسهم ، وتطهير كل الأرض ، وبنائها في مرضاة الله تبارك وتعالى :

{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (2) .

فإن الله عز وجل لتشريف عباده المؤمنين ولتزكيتهم لا يرضى لهم حتى السكنى في منازل أهل الجور والفساد والطغيان . فهو سبحانه في سياق إنذار للناس يوم يأتيهم العذاب يقول عز شأنه :

{ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ } (3) .

وللقيام بمهمة تطهير الأرض وإصلاحها ، يجب الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال

بالتي هي أحسن ، حتى إذا لم ينفع ذلك كله ، قضى الله للمسلمين إصلاح الأرض وعمارتها على انقراض الذين ظلموا أنفسهم والمستبدين والحاقدين على شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وهذا الوعد بمنزلة القضاء المبرم ، لمصلحة المجاهدين في سبيل الله ، وذلك في قوله عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

-
- (1) سورة الشعراء ، الآية 129 .
(2) سورة الروم ، الآية 32 .
(3) سورة إبراهيم ، الآية 45 .

{ وَجُبُونَهُ أُذُنًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } (1)

وقوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا } (2)

وطبعاً المقصود بالكافرين هنا جميع أنواع ودرجات الكفرة حكماً ومحكومين ، مضافاً إليهم كفره المسلمين ، بين مرتد ومنافق ، وجانح ومنحرف ، ومحارب لغير الله رب العالمين :

{ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (3)

* * *

قد يبدو هذا الأمر ، وكأنه حلم بعيد المنال ، ولكن نظرة عبر المعادلات الإلهية ، أقلها في تاريخ ما بعد الإسلام ، تثبت حقيقة ما نعتقد ونقول . فقد اجتمع أهل الأرض قاطبة على محاربة دين الله الذي أرسل به محمداً صلى الله عليه وآله ، وما تركوا وسيلة فكرية ولا مالية ولا عسكرية ، إلا شنوا بها حملات غزو شرسة على الدين الحنيف . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت أن سقط الفكر الغنوصي في فارس بعد أن حكمها دهرًا ، وحاول دهاته وفلاسفته بأمضى

أقلامهم أن يجرحوا وجه الإسلام الوليد ، فتحطمت الأقلام ، وأصبحت الغنوصية والمناوية والمذاهب الإثنية كأنها لم تحكم في الدهر ، وغدت نسياً منسياً . ومع ركيزة تلك الحضارة سقطت عسكريتها الضخمة ، التي كانت تحكم أكثر من نصف العالم . والعجيب في الإسلام الوليد أنه استطاع أن يمضي قدماً دون أن يعلق بأذياله شيء من الشرك التي حملته تلك الفلسفات إلى اليهودية

(1) سورة المائدة ، الآية 54 .

(2) سورة فاطر ، الآية 39 .

(3) سورة الأحقاف ، الآية 19 .

والنصرانية ، فأزالتهما عن مبدأ التوحيد الإلهي ، وأسقطتهما بتعدد الآلهة ، فضلاً عن القدرية والجرح في عدل الله ، وكذلك الكذب عليه سبحانه ، وتحريف الكلم عن مواضعه .

كذلك كان وقوع الإسلام بين فكي كماشة اليهودية والنصرانية ، حتى تخلوا عن البقية الباقية من دينهم السماوي ، بسبب الحقد والحسد ، الذي يأكل الدين كما تأكل النار الحطب . فكان لهم من الله الوعيد بالخزي والهلكة ، وللذين اتبعوا قرآنه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأوليائه عليهم السلام الذين قال فيهم سبحانه :

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } (1) .

كان وعده بإكرامهم في الدارين ، وإدراجهم في سلسلة الأنبياء والأولياء ، والشهداء والصديقين . يستفاد ذلك كله من الهجمات الفكرية والعسكرية ، إلى الهجمات النفسية والحصارات الإقتصادية ، عبر التاريخ على الإسلام . ثم اطمئنان المسلمين رغم ذلك كله إلى النصر من قوله عز وجل :

{ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

الْكَافِرُونَ { (2) .

فبناء على هذا يجب على المسلمين أن يوقنوا بالنصر المحتوم ، والمتوقع قريباً بإذن الله المجيد ، بناء على امتلاء الأرض بالكفر والضلالة ، وتفرد المسلمين بالتمسك بالدين الحنيف ، وكذلك تفردهم بأنهم أصحاب الدين الوحيد في الأرض الذي يملك كتاباً سماوياً صرفاً ، ولم يحرف ولم يعدل ولم يبدل ، ولعل ذلك . إضافة إلى فكر التوحيد . أهم ركيزة حضارية ، من شأنها أن تحفظ الحضارة المبنية على أساسها في رضى خالق الكون وحاكمه . فتجنبنا

(1) سورة الأحزاب ، الآية 23 .

(2) سورة التوبة ، الآية 32 .

سخطه وغضبه ، المتمثل عادة بالقصف والحسف والإغراق والحريق والدمار ، وأحياناً بالإبادة

وهكذا ومن هنا البداية ..

فنحن اليوم في صراع مع أعتى الدول المعادية للإسلام . أمّا الأخذ بأسباب القوة الظاهرية ، من بأس وإقدام ، وتنظيم وتدريب ، وحصر أهداف ، واعتماد سياسة حكيمة ، تهادن هذا لتتفرغ لذلك ، حتى إذا كسرت شوكة الأعتى ، عادت للأدنى خطراً . كما وعلينا وضع الخطط ، فضلاً عن التسليح ، واحترام السلاح والذخيرة . ومعرفة أن المراد بها دفع الأعداء وقتلهم . إضافة إلى اختيار قياديين مخلصين ، لا يغيرهم بريق المنصب ولا إغراء المال ، ولا يعميهم حب الأهل والعشيرة ، والمزاحمة على القيادة والمكاسب ، والتعبد لذواتهم والإغترار بها ، إلى آخر ما هنالك من الصفات الذميمة التي إذا اجتمعت على قيادي ، عرضته لحالات أبشعها الجبن والإنكفاء ، والسقوط في حبالات الشياطين . أقول أمّا الأخذ بأسباب القوة الظاهرية هذه ، امرٌ تلزمه كلُّ الشعوب : القوية والضعيفة . والقاعدة العامة المنطقية ، هي أن ينتصر القوي على الضعيف ، ولكن كثيراً ما يحصل في التاريخ أن تنعكس القاعدة ، يعني أن يسقط المنطق لمصلحة الضعفاء ، هذا في ظاهر الأمور .

أما وقد اصطدمت الفلسفة المادية بهذه الظاهرة ، فكان لزاماً عليها أن تخرجها إخراجاً مادياً . وعزّز موقفها هذا ، انتصارُ فيتنام الرائع على أميركا ، مع الفارق الهائل بين ضعف الأولى وفقرها ، وقوة الثانية وغناها . وهو انتصار أشبه ما يكون بانتصار ديك على ثور هائج . من هنا اعتناق الشعوب ، النظرية المادية ، منذ الثورة البلشفية 1917 م التي تعززت بعدها بالثورة الصينية ، وبثورات شرق أوروبا ، ثم ثورة فيدل كاسترو الكوبية في قلب أميركا الجنوبية . ثم بالإنقلاب الأثيوبي . ويجب أن نلاحظ هنا ، في سلسلة الثورات هذه ، أنها كلها نجحت تحت شعار " كفاح الشعوب المسلح في سبيل الحرية .. والدين . كما قال زعيم الثورة البلشفية لينين . أفيون الشعوب " .

وبينما الناس في الشرق والغرب مشدوهون بهذه الشعارات ، مسحورون أمام بنائيتها الشامخة على أساس النظرية المادية ، إذا بهذه البناية تنهار فجأة ، أمام إبراق وإرعاد حملتهما صيحة الله أكبر . وشعار " الجهاد في سبيل الله " وشعار " إحدى الحسينين : النصر أو الشهادة " .

وهكذا أصبحت صرخة التوحيد ، حيثما انطلقت من قم الخميني وأفواه ملايين الثوار ، تهدم عرشاً هنا ، وتصرع دولاً عظمت هناك ، وانشلت الآلة الحربية ، وتحطمت طائرات الغزو بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . ووجهوا الأقمار الصناعية ، فركعت على حدود الثورة من خشية الله ، ولعلها أسلمت وحسن إسلامها . فعقولها الألكترونية وهي تحلل المعلومات انقلبت لمصلحة الثورة ، إذ إن الألكترون هو أصلاً وفصلاً من عباد الله .

لنا ان نبتسم ... ولكنه الجد وليس الهزل ، فعقل النملة ليس أفضل كفاءة ، وإن كانت الحياة الظاهرية هي الفارق ، فالسر أعمق من ذلك :

{ .. وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّا تُفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. } (1)

وقوله عز وجل عن سليمان عندما سمع كلام النملة :

{ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ .. } (2)

(1) سورة الإسراء ، الآية 44 .

(2) سورة النمل ، الآية 19 .

وحقق الله وعيده ، فأسقط أحد الطاغوتين العالميين :

الإتحاد السوفياتي

كان في العالم بالأمس القريب ، نمطان من المجتمعات الوضعية، وكل ما دونهما من الأنظمة في العالم ، غدا إما متفرعاً عن أحدهما تابِعاً له ، أو متشبهاً به .

وهذان القطبان ، هما المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي .

أما الأول فيقول منظروه ، إن الغاية القصوى فيه ، سعادة الفرد ، وتبعاً لذلك فقد أطلق الحرية للأفراد بشكل مخيف ، وفي مسلكية عجيبة ، القوة الوحيدة الفاعلة فيها ، هي قوة رأس المال .

ولن نتعرض بالنقد الآن لهذا المجتمع ، من حيث تميزه بالطبيعة الإستعمارية ، على النيوترون والهيدروجين ، وتمزق الأسرة والتميز العنصري .. من حيث أن الحاكم لا يصل فيه إلى الحكم إلاّ عبر إنفاق المافيا وجسور الدولارات . هذا فضلاً عن تعامل هذا المجتمع ، مع بقية الشعوب المستضعفة ، إستعباداً أو قهراً ، وامتصاصاً للدماء . لن نتعرض بالتفصيل لكل هذا ، إذ إننا سنشير إلى كثير من خصائصه السلبية في فصول لاحقة إن شاء الله .

وإنما ينبغي أن نتذكر ، أن هذا المجتمع يزعم أنه يدين بدين المسيح عليه السلام ، وفي الحقيقة أن المسيح ودين المسيح منه براء . ونبحث عن إلهه الحقيقي ، فلا نجد له معبوداً غير المال وحب السيطرة وشهوة التسلط . ونسأل عن آخرته ونبحث حتى عن دنياه ، عن سعادة أفراد المدعاة ، فلا نجد غير اللهات الدائب ، والزيف ، والمظاهر التي هي كالتبول ، لها زينة وصدى يصم الآذان ، بينما هي جوفاء :

{ .. لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ }⁽¹⁾ .

أما المجتمع الآخر ، أي الشيوعي أو الإشتراكي ، فكان قد عكس النظرية واعتبر المجتمع هو الغاية ، والفرد فيه ما هو إلاّ قطرة في محيط الشعب ، أتى سار به الموج يسير ، أو هو سنٌّ في هذا الدولاب الضخم ، وكيفما دار الدولاب يدور السن فيه ، دون أيّما اختيار . وهذا المجتمع بالنسبة للدين ولرب العالمين ، كان أكثر صراحة من ذاك ، فقد حسم الموضوع كله أصلاً ، فأنكر وجودَ الله عز وجل ، وبالتالي ما يتبعُ الإيمان بوجوده من بعثٍ ونشورٍ ، وثوابٍ وعقابٍ ، وأطلق شعاره المشهور : الدين أفيون الشعوب .

وأيضاً لن نتعرض لنقد هذا المجتمع من الداخل ، حتى أننا لن نناقش إحداهُ بمنطقنا الديني ، وإنما كونه أعلن غاياته الأساسية في " المنيفستو " المشهور ، بما أسماه الثالث ، وهو : " تأمين المسكن والطعام والجنس لجميع أفراد المجتمع " فنكتفي على هذا الأساس أن نسأل ببساطة : ما الفرق إذن بين الإنسان والحيوان ، فإن قال : إن الإنسان هو حيوان متطور ومتقدم . بحسب عقيدته . نقول ومع ذلك . ملزمين " إيّاه بما ألزم نفسه . ما الفرق بموجب هذا الثالث بينه وبين أي حيوان غير متطور ولا متقدم من الحيوانات التي نعرفها اليوم بشتى فصائلها ودرجاتها . فمن الواضح أن كل حيوان له مسكنه وطعامه وعلاقاته الجنسية بما يكفي حيوانيته .

هنا يقولون ، الفارق هو العقل وكرامة العقل وعظمة العقل . فنقول هذا حق ولكن إذا

كانت :

(1) سورة إبراهيم ، الآية 43 .

الغاية تساوي بين الإنسان والحيوان في الحياة (إذ كلاهما له الثالث عينه) .

والنهاية تساوي بينهما بالموت (إذ كلاهما يتحلل ويغدو تراباً ولا شيء بعد ذلك) .

فأين يذهب الفارق ؟ أين تذهب ميزة الإنسان التي هي العقل وكرامة العقل ، وأين

يذهب طموح الإنسان وتطلعاته ، وضحكه وبكاؤه ؟ ... ثم إنه لو بنى المدائن زمرداً والمنازل

يواقيت ، ومدّ جسوره إلى النجوم ، ثم مات وهو يلهث ، وأصبح تراباً ، وبقي تراباً ؟ .

ونحن إذ نناقش هذه النظرية ولو بهذا المقدار ، فلأنه لم تنزل هناك بعض البؤر الشيوعية

في العالم ، بين أنظمة حاكمة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وبين أحزاب مرتبكة مترددة بين الإستمرار

على الباطل وبين الموقف الشجاع في الإعتراف بالخطأ ، ولزوم الإلتجاء لله والعمل بدينه الحنيف

هذا إضافة ، إلى وجود الكثير من الإلحاديين في العالم ، بين أحزاب وحركات منظمة وفلسفات ، كالوجوديين مثلاً ، وبين أفراد ، وجميعهم من الذين ضلوا عن الحق الأعظم وبقية الحقائق ، وحرّموا أنفسهم نعمة الإيمان وخسروا الخسران المبين .

ولولا بقاء هذه البؤر الشيوعية لكان أغنانا عن مناقشة نظرياتها الإلحادية ، سقوطها المدوّي في الاتحاد السوفياتي وبقية العالم ، هذا السقوط الذي كان زلزلاً عتياً مركزه الاتحاد السوفياتي ، وشعاعاته طالت جميع الدول والأنظمة التي كانت مرتبطة بشكل أو بآخر بهذا المركز ، فمنها دول زالت كلياً ، ومنها أنظمة أطيح بها بانفجارات غضب دموية ، لتقيم أنظمة جديدة مرتبكة على أشلاء آلاف القتلى وأشلاء الشيوعية ... ومنها أنظمة ما زالت تعاني من المفارقات المريرة في مواجهة الدول الرأسمالية ورعونتها وأباطيلها ، بعد أن خلت لها الأرض من أية قوة كبيرة تستطيع أن ترجعها إلى الله ، أو على الأقل إلى منطق العدل والعقل والشرف .

هذا هو المنطق السائد اليوم ، على مستوى الأنظمة والشعوب المقهورة ، التي لم تهتد بعد إلى الله ، ولا إلى توحيده ، ولا إلى دينه الحنيف ، هذه الهداية التي هي وحدها تشكل المخرج الكريم من هذا المأزق التاريخي والمصري ، ومن جميع المآزق التي يتعرض لها البشر في حياتهم أفراداً ومجتمعات .

لماذا سقط الاتحاد السوفياتي ؟

في الحقيقة ، إن الكلام كثير ، في أسباب سقوط هذه الدولة العظمى ، التي استقطبت أكثر من نصف العالم كقوة سياسية وعسكرية ، حتى وإقتصادية . إلا أن جميع التقارير السياسية ، وكلام الإعلام العالمي ، يوجز بحقيقة واحدة لا تناقش ، وهي أن الله وحده عزت قدرته ، هو وراء هذه الأسباب وهذا السقوط المرعب .

ذلك ، لأن الاتحاد السوفياتي ، كان قد بني على أساس الفلسفة الإلحادية ، منكرأ وجود الله ، قائلاً بجدلية ونظريات وفرضيات ما أنزل الله بها من سلطان . إذن هو عادى الله ﷻ وعزت قدرته ، فكفر وظاهر على الله وعلى دينه .

{ .. وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيْرًا } (1) .

وبما أن الله عز وجل ، هو الحاكم ، حاكم الكون ، عملياً وليس نظرياً ، وبما أن تعاليمه واضحة ، من حيث إنه يكرم أو ينتقم ، ويمهل ولا يهمل ، فبالنسبة إلى الشيوعية والشيوعيين وقلعتهم العالمية : الإتحاد السوفياتي ، فكان واضحاً مع عداوتهم له سبحانه ، أن يهدم دولتهم ويخزيهم الخزي الدنيوي إذلالاً وتمزيقاً ولو بعد حين . وهكذا فقد أمهلهم وابتلاهم ما يفوق على نصف قرن من الزمان ، وابتلى بهم الناس دولاً وأنظمة ، وأحزاباً وأفراداً . فالذين توكلوا عليهم وليس على الله ، حشرهم

(1) سورة الفرقان ، الآية 55 .

معهم ... ثم انتقم .. فكان هذا السقوط المروع للفلسفة الإلحادية وأتباعها في جميع أنحاء العالم . وهذا خزي لهم في الدنيا ، أما في الآخرة فعذاب الله أكبر ، ما لم يتب القادة والمقودون .
ربما يفهم القارئ هنا فهماً سلبياً ، بمعنى أنه ما دام الولاء للإلحاديين الشيوعيين من مستدعيات غضب الله وانتقامه ، فإذن من الواجب أن يكون الولاء للإمبرياليين الرأسماليين عامة ، من مستدعيات رضى الله وتوفيقه . وهنا نجد الجواب مختصراً وجلياً في قول الله سبحانه :
{ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (1) .

وقوله تعالى :

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (2) .

هذا ما دامت الدول الرأسمالية ، وهي عامة دول الغرب المسيحي ، ما دامت تحتضن

إسرائيل ، بعد أن زرعتها شجرة ملعونة في هذه الأرض المباركة الطيبة ، فلسطين وعامة بلاد الشام . وما دامت تنطوي على مشاعر العداة للإسلام والمسلمين ، عرباً وغير عرب ، وهي لو تمكنت من أن تدمر وتمزق أسلحة وشعوب جميع الدول الإسلامية ، كما دمّرت ومزقت أسلحة العراق وشعب العراق ، لما قصّرت . أما من يمنعها ؟ ! صحيح ، ليس على الأرض من قوة تمنعها ، وإنما المانع هو الحاكم ، حاكم الكون ، رب العالمين . هو الذي يمنع ، وهو الذي يأذن ، وهو المعزّ الناصر ، وهو المدل

(1) سورة العنكبوت ، الآيتان 41 و 42 .

(2) سورة التوبة ، الآية 16 .

القاهر ، وهو أسرع الحاسبين ، ولكل واقعة حساب ، في ناسها ومكانها وزمانها . ولولا أن دول الغرب المسيحي ، والمسيحيين عامة ، في التاريخ الماضي والمعاصر ، تخلقوا بما أمرهم الله سبحانه على لسان رسوله السيد المسيح ، لكان التحالف معهم وليس التبعية ، أمراً توجبه شرائع الإسلام . ولا سيما وأن الله تبارك وتعالى ، أمرنا بمجادلتهم بالتي هي أحسن ، وتوه لنا بخصائص تميزهم تمييزاً كبيراً عن اليهود وبقية المشركين ، في طبائعهم وأخلاقهم ونواياهم ، قوله تعالى :

{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ { (1) .

والآية الأخيرة هنا ، أي قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الجحيم } . أي الذين هم بخلاف من شهد الله لهم بالإخلاص له ولدينه سبحانه ، وبالمودة للمؤمنين ، وبالتصديق بما أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله ، وهم الضالون من النصارى ، ومنهم أولئك الذين يحالفون اليهود المفسدين في الأرض .
وهذا التحالف المعاصر للقرن العشرين الميلادي ، هو الذي حذر الله منه المسلمين ، حذرهم من الولاء لليهود وللنصارى ، موضحاً أن بعضهم

(1) سورة المائدة ، الآيات 82 . 86 .

أولياء بعض ، ثم يخبرنا أن أقواماً من المسلمين ، حكماً وغير حكماً ، وهم { .. الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ .. } يسارعون في موالاتهم والتحالف معهم ، مبررين ذلك بخشيتهم من أن يتمكن الحلف اليهودي . النصراي من حكم الأرض ، فتدور دائرتهم على خصومهم المسلمين . ثم يخبرنا سبحانه . وكل ذلك كما سنرى في سياق واحد . أن هؤلاء المسلمين سيندمون حيث لا تنفع الندامة ، لأن حكم من يوالي هذا الحلف اليهودي . النصراي ، هو عند الله حكم المرتد عن دين الله ، كما سنرى في نفس الآيات الكريمة ، حيث يبشر المؤمنين فيها بالفتح أو بأمر من عنده ، بعد أن يذكر هؤلاء المؤمنين صفات مميزة ، لعلاقتهم بربهم ولشخصياتهم وسلوكهم النفسي والعملي ، وهي أنه سبحانه . يحبهم وأنهم يحبونه ، وأنهم أذلة على المؤمنين لا يقاتل بعضهم بعضاً ، وأنهم أعزّة على الكافرين .

{ .. وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } (1) .

وأنهم يجاهدون في سبيل الله وحده ، لا لأجل أن يقربهم العالم الفلاني ، أو الدولة الفلانية ، أو أن يكون جهادهم موجهاً من غير الله ، مرتعناً لغير الله سبحانه وتعالى عما يشركون .

أما الآيات التي فيها هذه المضامين ، فهي في قوله تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَاهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ

(1) سورة المنافقون ، الآية 8 .

أَعَزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ { (1) .

والله سبحانه يفصل لنا في موضع آخر من القرآن الكريم ، طبيعة العلاقة ، بين هؤلاء المنافقين من المسلمين ، وبين الذين كفروا من أهل الكتاب ، والحقيقة أنهم اليهود وحدهم ، باعتبار الواقعة التي يشير إليها القرآن، وهي التي حارب فيها المسلمون يهود بني النضير بعد بني قريظة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وأخرجوا الباقين من شبه الجزيرة إلى نواحي الشام . قوله تعالى :

{ أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ } (2) .

ثم يخاطب المسلمين مطلعاً إياهم على خصالٍ وصفاتٍ وحالاتٍ عجيبة انطبع عليها الفريقان : المنافقون ، والذين كفروا من أهل الكتاب ، وما كان للمسلمين أن يعلموها لا سابقاً ولا لاحقاً ، لا هم ولا غيرهم ، لولا أن الله عزّز قدرته ، قد أطلعهم عليها ، فهو الذي

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو بكل شيء عليم ، وهو بكل شيء محيط . وأبرز هذه الخصال ، علاقتهم الضعيفة ، بل والمعدومة ، برب العزة رب العالمين . مما صيرهم من أجن خلق الله ، لدرجة أنهم يخافون المسلمين ، أكثر مما يخافون الله القاهر القادر العزيز المنتقم الجبار ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير . وهذه الحالة النفسية والقلبية عندهم ، ذكرها لنا سبحانه في سياق الآيتين السابقتين في قوله تعالى مخاطباً

(1) سورة المائدة ، الآيات 51 . 54 .

(2) سورة الحشر ، الآيتان 11 . 12 .

المسلمين في كل زمان ومكان :

{لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} (1)

ثم يطلعنا بعد هذه الآية كذلك على أهم أسرارهم العسكرية التي أصبحت طبيعة من طبائعهم ، وهي أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر وأسوار تحجبهم عن مواجهات مباشرة مع المسلمين . وهذا هو السر الذي دفعهم وما زال ، إلى تقييد جنودهم في الطائرات والآليات البرية في حروبهم الأخيرة مع العرب ، وذلك لكي لا يهربوا منها أثناء المواجهات .

المهم أن يكونوا ضمن أسوار ، يحسبون أنها تحميهم ، وهذا يعني أنهم إن كانوا بدون حصون ، أو خلف جدران وأسوار وملاجئ ، فما أسرع ما يسقطون جناً ورعباً ، أو يولون الأدبار .

هذا الخبر ، إضافة إلى خبر آخر عنهم ، يكشف لنا فيه سبحانه ، إنهم بخلاف ما يُظنُّ عنهم ، من أنهم متفوقون متوحدون ، فالحقيقة أنهم ليسوا كذلك ، وإنما هم متنافرون متباغضون ، وذلك في قوله تبارك وتعالى :

{ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } (2)

رب قائل يقول ، إن هذه الآيات متعلقة بتاريخ معين ومناسبات معينة ، والحقيقة أن هذا الاعتقاد فيه ضيق نظر ، بالنسبة للقرآن وآياته ، وبالنسبة لرب العالمين . فلشد ما يضيق على أنفسهم وعلى الناس ، أولئك الذين يقفون جامدين عند مناسبات النزول ، حتى أنهم يبحثون لبعض الآيات المطلقة . وما أكثرها . عن مناسبات نزول .. وإن هم لم يجدوا ،

(1) سورة الحشر ، الآية 13 .

(2) سورة الحشر ، الآية 14 .

اخترعوها ، أو تمحلوها تمحلاً . ويبقى القرآن وآياته أعظم خطراً وأوسع آفاقاً ، وبدون قياس .

لذلك ، ورجوعاً إلى آيات سورة المائدة ، التي أدرجناها منذ قليل ، ولأن هذه السورة ، هي آخر سورة أنزلت في القرآن الكريم ، فإن لها تقويماً خاصاً وأبعاداً خاصة ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . فإننا نربط من آياتها ، الآية الثالثة والخمسين ، وهي قوله تعالى :

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } .

نربطها بالآيات التي ذكرنا من سورة الحشر ، والتي تبدأ بقوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. }

ونستنتج من ذلك ، إضافة إلى الأخبار المستقبلية الفذة ، التي تنطوي عليها الآيات المذكورة من المائدة ، أن الخطاب موجه في الآية الثالثة والخمسين . المائدة . من المسلمين إلى المنهزمين من أهل الكتاب . بعد الفتح المنوه عنه . يذكرونهم ويذكرون المنافقين معهم ، تعريضاً وتعزراً عليهم بالله ونصره وتأييده . بقولهم بلسان الحال ، يعنون المنافقين :

{ أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا

خَاسِرِينَ } .

وأي خسران أعظم من أن يكونوا في غضب الله مخلدين في ناره وعذابه؟! .

فإذن هو الفتح بإذن الله ، وهو النصر المبين القادم ، هو ميراث الأرض وميراث ما في الحضارة من إيجابيات ، وذلك في وعد الله عز وجل في أكثر من آية من القرآن المجيد ، نذكر ببعضها لأهميته القصوى ، إضافة لما ذكرناه من آيات سورة المائدة وغيرها ، لكي لا يبقى ولو ذرة من شك عند

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . نذكر هذه الآيات ، دون أي شرح أو تفسير ، لأنها واضحة كفلق الصبح ، لكل من يلقي السمع وهو شهيد . إضافة إلى أننا سنشرحها شرحاً وافياً بإذنه تعالى في فصول لاحقة من هذا الكتاب ، ومن أبرز وعود الله سبحانه وأكثرها جلاء ، قوله تعالى في سورة الإسراء :

{ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } . (سورة الإسراء الآيات 7 . 4) .

ثم قوله تبارك وتعالى :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (1)

مع التذكير ، بوجوب ربط هذين الوعدين الكريمين بآيات سورة المائدة (51 . 54)

لإسقاط جميع علامات الاستفهام ، وبلوغ درجة اليقين ، بعود الله عز شأنه .

{ .. وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } (2) ..

{ .. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } (3) ..

(1) سورة النور ، الآية 55 .

(2) سورة النساء ، الآية 122 .

(3) سورة النساء ، الآية 87 .

(2)

* وثنية حديثه *

* الحب الأقدس *

* كيف يحبّ الله *

وثنية حديثة

ما يقال عن أبطال الحب النسوي ، كذلك القول عن يسموهم أبطالاً قوميين أو وطنيين ، وطبعاً حجتنا هنا على المنحرفين ، الذين عرفوا الأديان السماوية عموماً ، والإسلام بشكل خاص ، ورغم ذلك أصروا على انحرافهم ، إذ يبلغ عندهم الحب لعنصريتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولأوطانهم المحددة على الأرض ، أو على خارطة من ورق ، أو حتى ولاؤهم لطاغوت من طواغيت الأرض ، درجةً عباديةً ، يبذلون معها . سعادة . عقولهم وأعمارهم وأنفسهم . وإن اغترضَ على كلمة (سعادة) نقول بلى . وإن كانت السعادة المنقطعة . وإلا كيف ولماذا يحملون أنفسهم مشقات هم بغنى عنها . والغاية عندهم غير بيّنة . فلو قيل إن الغاية هي انتصار للعنصرية أو القوم وإرضاء لهما . فكيف ترضى العنصرية ، وما معنى أن يرضى القوم على حساب اعتصار هؤلاء واستنزافهم وموتهم ، علماً أنه ليس بعد الموت (حسب اعتقادهم) ، إلا الفناء النهائي . أوليست وقفة تأمل في أنفسهم أجدر بهم وأولى؟! ... ثم إن الجميع منقلبون إلى موت محتم ، جيلاً بعد جيل ، فهل تكون التضحيات من أجل فسحة حياة قصيرة على الأرض ؟ أم هو الموت غاية ونهاية ؟ ولو قلنا ليرضى تراب الوطن ، فيا حفنة من تراب ، حديثي كيف ترضين وكيف تغضبين ، سقاك الغيث ، إلا

إذا كنت { .. كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .. } كما يقول سبحانه في كتابه الكريم (1) .

يبقى أن نسأل ، هل من مدّعٍ مِنْ هَوْلَاءِ استمرارية حبه وسعادته بعد الموت ؟ هم أنفسهم يقولون ، لا ! ومن شدّ نطالبه بالبيّنة . فإن زعمها من دين منزل ، فجهله مركب ، وإن ادعاها من دين أرضي ، فدعواه مردودة عليه ، لأن الأديان الأرضية من وضع البشر ، الإنسان ما ادعى الإلوهة مرة أو معرفة الغيب إلاّ عاقبه الله بنسبة خطورة ما يدّعي . إلاّ أن تكون معرفة الغيب بتعليم من الله عزّ شأنه ، لأوليائه وموحيه ، من الأنبياء والصدّيقين والشهداء المجاهدين في سبيله وحده .

أما لكي نفهم كيف تكون سعادة الحب متصلةً أبديةً ؟ فهذا رهن بمعرفة المحبوب . فإن كان المحبوب مما يغيب أو يفنى ، أو يفارق ، أو تعثره الحوادث فهذا فقر فيه وجرح في كماله ، وإن كان المحبوب هو الإله الذي لا إله سواه ، تُفهم العقول فيما تُفهم ، أنه الأول والآخر ، فإن أحبّه المحبون ، كان حبهم أبدياً ، وسعادتهم كذلك ، فلا فراق حتى بالموت ، ولا إنقطاع .

خسران الحب الأقدس .. أم على قلوب أقفالها ؟

في العام 1405 هـ 1985 م صدر كتاب (العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي) لمؤلفه العلامة السيد محمد تقي المدرسي ، وفيه ينكر على (العرفانيين) (2) أن يكون الله سبحانه يتولاهم بعنايته وحبه ،

(1) سورة البقرة ، الآية 264 .

(2) العرفانيون هم مؤمنون تفضل الله عليهم بعلم من لدنه بعد أن جاهدوا أنفسهم لتخليصها من ألوان الشرك الظاهر والخفي ، فأكرمهم بمعرفته وبتوحيده بالقدر الذي يتحملونه . وقد يختص سبحانه من يشاء منهم بفضله وبرحمته ، ويطلعهم على بعض أسرار كتابيه العظيمين : القرآن والكون . وباختصار هم الذين { .. هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ .. } .

وأن يكشف لهم من الأسرار ، ما يأذن لهم سبحانه بإذاعته أو يأمرهم بكتمانه . ولا يزول عجبنا من ذلك ، إلا وهو ينكر أيضاً على المؤمنين ، حبه لله تقدست أسماؤه . ولقد أنكر على رابعة العدوية ذلك حيث قال :

" ... لكن رابعة تخطتهم بعيداً (المروجين لفكرة الحب الإلهي) في حديثها العاطفي عن "حب" المؤمن لله . وهي في ذلك قد اتجهت اتجاهاً مغايراً للعرف الديني الإسلامي ، الذي يذهب إلى أن الإنسان لا يقوى على الإقتراب من الله إلا بروح التعبد والورع والرهبنة (1) .

هذا ، علماً أن أيما قارئ للقرآن من أنصاف الأميين ، يحفظ أكثر من آية قرآنية ، تشير بوضوح ، إلى مصداقية حب المؤمنين لله تبارك وتعالى ، وحبه هو سبحانه لهم ، ناهيك عن الأحاديث والروايات وآثار العارفين ، الذين تفضل الله عليهم بحبه وبرحمته .

على أننا حرصاً منا على توقير العلماء واحترامهم كما أمر سبحانه ، نعتبر هاتين الغفلتين بالنسبة إليه ، كبوة ونبوة ، عملاً بالقول المأثور : لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة . وبعد قليل سنقدم أمثلة من القرآن .

ونحن ما كنا نبهنا على ذلك ، وسمينا الكتاب وصاحبه ، إلا لخطورة هذا الأمر ، من حيث وجوب الحرص الشديد ، على تدبر معاني القرآن ، وإرشاداته . وهكذا فإن مما يؤسف له شديد الأسف أن أكثر الحوزويين ، لم تكن دراساتهم في ظل القرآن وفي ضوء القرآن ، بل هم ما عرفوا القرآن إلا من خلال الدروس (2) ، من هنا كان أكثر المؤمنين المقلدين ، لهم شغف كبير بالتهام الكتب الدينية المرقعة ، دون روية ومناقشة ، ومن ثم الأخذ بما يجدون فيها ، ولو كان مزاجياً ، وهذا أمر من الدواهي الدهياء ، ويا حبذا لو كان شغفهم بكتاب الله ، وتدبر آياته كما قال سبحانه :

(1) كتاب العرفان الإسلامي صفحة ، 161 .

(*) أنظر الميزان في تفسير القرآن ص 276 ج /5 .

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (1) وقوله : { يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا } (2) .

الحب الأقدس

من الحقائق التي شهد الله سبحانه بها ، وهو خير الشاهدين ، وفطر عليها خلقه ، ومنهم النوع البشري ، هي حقيقة الحب . قوله عز وجل :

{ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... } (3) .

وقوله عز شأنه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (4) .

وقوله تبارك وتعالى :

{ .. وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ .. } (5) .

وقوله جلت عظمته :

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (6) .

- (1) سورة مُحَمَّد ، الآية 24 . (2) سورة الفرقان ، الآية 30 .
 (3) سورة آل عمران ، الآية 31. (4) سورة المائدة ، الآية 54 .
 (5) سورة البقرة ، الآية 165 . (6) سورة التوبة ، الآية 24 .

وقوله وما أكرمه وما أرحمه :

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }⁽¹⁾ و { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ }⁽²⁾ و { يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }⁽³⁾ و { يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }⁽⁴⁾ و { يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }⁽⁵⁾ و { يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }⁽⁶⁾ و { يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }⁽⁷⁾ . و { يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ }⁽⁸⁾ .

وقد اكتشفت البشرية سر هذه الحقيقة ، عندما أدركت التوحيد ، وأدركت معه أن في حب الإنسان لله . إذا اكتملت شرائطه وكان مقبولاً منه سبحانه . سعادة للإنسان ليس فوقها سعادة ، إلا أن يعرف هذا الإنسان أن ربه يحبه ، فيحصل بذلك على أعز مطلب في الوجود .

كيف يحب الله ؟

من الذين حملوا الحب الأشرف والأسمى نتعلم ، فإلى سيد المحبين ، إلى سيدهم العظيم مُحَمَّد صلى الله عليه وآله أول ما نذهب . وإذا لا نستطيع الإحاطة في هذه العجالة ولو بالقليل من مواقفه الفريدة ، لذلك نقتصر على موقف واحد ، نحاول من خلاله أن نعرف كيف كان يحب ربه : موقفه في الطائف . حيث ذهب يدعو أهلها لله جلّ جلاله ولدينه الحنيف . فكذبوه ، وطرده ، وأغروا به الصبيان إذ يلعبون في ساح الطائف حيث هتف بهم أحد رجال القوم : إِنَّ مُحَمَّدًا هَذَا هُوَ مَجْنُونٌ ، فلحقوا به ورشقوه بالحجارة حتى سال الدم من عقبه الشريفين ، وهو يرد عن رأسه الطاهر بكلتا يديه . وهو نبيّ الله ورسوله وسيد البرية ، نراه فور ذلك ، يجلس إلى شجرة معتدى عليه ، جوعان عطشان ليس حوله من الناس نصير، يتمتم مناجياً ربه سبحانه: "...إن لم يكن بك عليّ غضب فلست أبالي...!" هكذا انتزع نفسه من غمدها معافاة، مثلها مروءة السيف النقي ، ورفعها لله سبحانه غيرمبال بكل ما قد كان، ما كان كأنه لم يكن ،

- (1) و (2) و (3) ، سورة البقرة : الآيات 195 ، 222 .
 (4) و (5) و (6) ، سورة آل عمران : الآيات 76 ، 146 ، 159 .
 (7) سورة المائدة : الآية 42 . (8) سورة الصف : الآية 4 .

إن كان الله عزّ وجل ، ليس غاضباً ، إن كان الله سبحانه راضياً ، هذا هو المهم ، غاية الغايات ، محبة الحبيب الأعظم ، وسواء أخرج الجسد ، أو جاع ، أو عطش ، أو تمزق ، أو قضى صاحبه على أي جنب من جنوبه ، وحسب النفس بعد ذلك ، أن يتغمدها بارئها برحمته .. وحبّه .

وأكثر من ذلك ، فإن النبي الإنسان صلى الله عليه وآله وهو في هذه الحال من الإرهاق ، والألم ، والمرارة ، بقي حبه لربه هو الدافع الأساسي للدعوة إليه وإلى دينه سبحانه ، فلم ينس تكليفه ، وما إن أطل عليه أول رجل أمكنه أن يحدثه بهدوء ، حتى أدى النبي صلى الله عليه وآله إليه رسالة ربّه له الأسماء الحسنى . فقبلها الرجل محباً ربّه ورسول ربّه ، وإذ عظم في قلبه هذا الحب ، صغرت في عينيه الدنيا وطلابها ، ومن فرحته بالنور الذي ملأ قلبه ، كان يشتد بكأؤه كلما طلب إليه ، أن يتلو الدعاء الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله آنذاك . فمضى مصعداً في الجهادين الأصغر والأكبر حتى آخر نسمة من حياته . وقد عرف التاريخ هذا الرجل باسم عدّاس . وكان في رأس مآثره ، أنه نقل إلينا كامل دعاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، وكان هو الرجل الوحيد ، الذي سمعه منه في موقفه الصعب ذاك ، بعد أن طارده سفهاء الطائف وصبيانها وأجأوه إلى تلك الشجرة ، قرب جدار للأخوين الطاغيتين عتبة وشيبة بني ربيعة ، حتى إذا اطمأن صلى الله عليه وآله ، وقف في ظل الشجرة يناجي ربّه الحبيب ، بهذه الكلمات التي ما زالت منقوشة وستبقى في قلوب معظم المؤمنين على مر الأجيال :

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ،

(يا أرحم الراحمين .

(أنت رب المستضعفين وأنت ربي .

(إلى من تكلمي ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدوّ ملكته أمري ؟

(إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي .

(لك العتبي حتى ترضى .

(ولا حول ولا قوة إلا بك يا حبيباه يا الله يا رباه يا رب العالمين .

* * *

ثم نرى الإمام علياً عليه السلام ، أشجع الخليفة في تاريخها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يخوض غمار كل معركة ، فيكون فيها على أعدائه الفرع الأكبر ، عبر ساعات طوال ينعقد فيها الغبار سحباً سوداً ، ويظلم النهار فيها من شدة البأس . ونتبع علياً عليه السلام ، بعد كل معركة إلى حيث نعتقد ، أنه سيأوي إلى ركن يرتاح فيه بعد عظم المشقة ، فوجد عجباً : وقفات خاشعة ، ذليلة ، بين يدي الله سبحانه ، على نشيج بكاء ، وانهمار دموع ، ثم نسمع ما أصبح قاعدة لعبادة الأحرار عبر العصور ، مناجاته لحبيبه الأعظم :

(ربي

(ما أعبدك خوفاً من نارك

(ولا طمعاً في جنتك

(وإنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك .

فأين تذهب المشقة في مثل هكذا مواقف ؟ وهل تجرؤ المشقة أن تدعي لنفسها شرف

القرب من نفس هي من الله تعالى بهذه المنزلة ؟

بلى هكذا أنفس ، يبرئها الله عز وجل ويعافئها من كل ما يشوش صفاءها ، الله سبحانه

يتولاها بعنايته ورعايته ، وحبه ورحمته ، وينصرها نصراً مبيناً في الدنيا والآخرة .

ثم يُضرب أمير المؤمنين عليه السلام ، في صلاته ، تلك الضربة الباقي إرناؤها الموجه ،

مدوياً في أذن الدنيا ، فيقول التي ما تزال وستبقى تُحكى فتُدْهش : . فُزْتُ ورب الكعبة .

عجباً ! أباالموت فوز ؟ وبسيف مسموم ؟ بلى ، هو العلم اللدني بأبعاد الفوز . أهل بيت النبوة

هم ، الأعلامون بشرف المصارع .

أيضاً لنسمع الحسين ابنه ، عليهما السلام ، في موقف من سنخ⁽¹⁾ . هذا : الحسين يتصدى للباطل ، يتحداه ، يجره لمعركة المعارك ، للحكاية التي تُنسى الحكايا ولا تُنسى : . ألا وإني لا أرى الموت في سبيل الله إلاّ سعادة ، والعيش مع الظالمين إلاّ برماً . يقولها الحسين عليه السلام ثم يزرع في الأعين والأدمغة والقلوب عبر الأجيال ، درس البطولة المؤمنة الفريدة ، حباً لله ، وغضباً لله ، واستماتة في سبيل الله : درساً في السعادة الحقيقية ، نوعاً واستمرارية ، درساً تستطيع المشقة معه أن تقول : حاولت الحسين ، إلاّ أني ما استطعت إلى نفسه نفاذاً . لأنه كان مكلفاً ، كلفاً بربه ، مكلفاً بدين الله كلفاً . كان هو الدين مختصراً على ظهر جواد ، أما وطنه فبلا حدود ، وأما حبه فلربه ، وأما هدفه فأن تكون كلمة الله هي العليا ، فيا له من كلف وليس كلفة .

هذا ، ونكتفي من الأمثلة هنا بهذا القدر ، على أن سلسلة الذين حملوا الحب العظيم نورانية طويلة .

(3)

الرحمة هي الغاية من خلق الانسان
وهو اختار نهايته

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ }
(التوبة: 21)

الرحمة هي الغاية من خلق الانسان .. وهو اختار نهايته

كما رأينا من بعض التأمل في فكر التوحيد ، أن الله عز وجل ، هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته . وأنه هو وحده الخير المحض ، الذي لا يصدر عنه إلا الخير والحق والجمال . فلماذا إذاً خلق الله هذا الإنسان الشقي المتعب ، المعذب ، كما هو ظاهر حاله في تاريخه الطويل ؟

ثم يا نوح ويا إبراهيم ، ويا موسى ، ويا عيسى ، ويا محمد ، سلام الله عليكم ، وعلى من سبقكم وعلى من لحق بكم من أنصار الله وأحبابه وأوليائه ، هل كنتم أشقياء متعبين معذبين ؟

وهل الشقاء حالة عامة ، تلازم جميع الناس ، وفي جميع مراحل حياتهم ؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك .

فهناك الذين غنوا ورقصوا وضحكوا .. وما زالوا يغنون ويرقصون ويضحكون .. ولو كان ورد في كتاب الله قوله عز وجل :

{ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. } (1)

إلا أنه سبحانه لم يترك أهل الدنيا يهنأون كما يشاؤون بدنياهم . فلذلك كثيراً ما عبر الإنسان وما زال ، عن ضيقه وحزنه ومراراته ، شعراً ونثراً وما بين الشعر والنثر في حياته العملية ، بين زفرة وحنين ، وتوجع وأنين ، وكذلك عبّر عن فرحه ومرحه ، بالكلمات والأصوات والحركات

...

ولكن هناك حالة ثالثة ، بين هاتين الحالتين ، هي حال أهل الاعتدال ، الذين هم مصاديق قوله تبارك وتعالى : { لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. } (1)

إلا أن خلاصة القول التي تكاد تكون على كل لسان ، كلمة أبي العلاء المعري في داليتة : تعب كلها الحياة ...

وهل الله سبحانه أقر بعض هذه المعاني ؟ قوله تعالى :

{ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ } (2)

وهي آيات واضحة المعاني ، إن سعي الإنسان مختلف بين السلب والإيجاب ، فأهل الشمائل الحسنة والصدق مع الله ، ميسورو الحال ، وأهل البخل والأنانية ، وعدم الثقة بالله ، وبوعد الله ، وصنيع الله ، يلزمون السبيل الذي اختاروه . وهل يؤدي إلا إلى الشقاء . وهل فيه ما يغني عن رحمة الله سبحانه ؟ .

وفهمنا لقوله عز وجل : { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ .. } وما بعدها ، يحل لنا الغموض

الذي في الآية الكريمة :

{ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } (3)

(1) سورة الحديد ، الآية 23 . (2) سورة الليل ، الآيات (11 . 4) .

(3) سورة هود ، الآية (118) .

مختلفين في الدين ، مختلفين في السبل السلبية ، يتعرض لهم الله سبحانه برحمته ، يلاحقهم بها من البداية إلى النهاية ، فيعرضون عنها مستكبرين . إلا فريق أقام وجهه للدين حنيفاً ، فكان حقيقاً بهذه الرحمة ، يستقبلها بعقله ووجهه وقلبه وكل جوارحه .

فالغاية من خلق الله سبحانه وتعالى للناس ، هي الرحمة .

أما ما يقال أيضاً عن أن الغاية إنما هي العبادة ، استفادة من قوله عز وجل :

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (1) .

فبأيهما نأخذ ؟ بكون الغاية من خلق الله تعالى للناس ، هي الرحمة من قوله عز وجل :

{ ... إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } .

أم بكون الغاية من خلقه تعالى للناس ، هي عبودية الناس له ؟

الواقع أن الغاية واحدة . كيف ؟

أساس العبادة الحقّة ، التوحيد ، وهنا سر الرحمة :

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ

مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (2) .

والمثل تصوير لطيف وبلغ لحالة رجل يتعامل مع مجموعة شركاء كلهم له عليه سلطان ،

فهو مضطر لخدمة الجميع ، وإرضاء الجميع وطاعة الجميع ، وهذا محتمل نسبياً لو كان لهم مزاج

واحد وشخصية واحدة ، إلا أن الواقع غير ذلك ، فما داموا شركاء ، فهم على اختلاف

أمزجتهم

(1) سورة الذاريات ، الآية 56 .

(2) سورة الزمر ، الآية 29 .

وتطعاتهم ، سينزع كل واحد منهم منزعاً يؤدي بالضرورة إلى التشاكس ، وبالضرورة سيكون هذا الرجل بينهم ممزق النفس متحيراً فاقداً لحقيقة الحرية ، إذا أحبَّ واحداً غضب الباقيون ، وإن أطاع واحداً ، اتهمه آخر بمعصيته ، وهكذا إلى حالات من التباين معهم لا تنتهي . فهل يستوي وضع هذا الرجل ، مع أخ له لا يتعامل مع مجموعة شركاء ، وإنما يتعامل مع رجل واحد ، تعاملاً فيه السلام والثقة والطمأنينة .. والأمن والأمان والمحبة ، والسعة مدى الحياة.. كذلك عبادة الله الحبيب الواحد الأحد .

فالإسلام لله وحده ، والعمل بتعاليمه وقوانينه ، يوصل الإنسان بقدر ما يؤمن ويجاهد ثم يوقن ويجاهد ، ثم يتقي ويجاهد ، ثم يحب ويجاهد ، ويجعل حبه خالصاً لله وحده له الحمد ، بقدر ما يحظى برضى الله ورضوانه . فلا غفلة ولا أُلغاز ولا أسرار ، فإن بقي منها أشياء ، فإنها ستكشف له يوم القيامة ، يوم يقال له :

{ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } (1) .

فإذا كانت العبودية للخلاق العظيم ، عملاً بتعاليمه وقوانينه وقرآنه المجيد ، واقتداءً بمحمد صلى الله عليه وآله الذي هو رحمة للبشرية ، إذا كان كل ذلك الذي يوصل إلى الفوز المبين ، ليس رحمة ، فما هي الرحمة إذن ؟ هل الذلة والتمزق بين تحكم المخلوقين وأمزجتهم ، أم هي الفوضى والفلتان ، والإندفاع بدون كوابح نحو الهاوية .

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } (2) .

(1) سورة ق ، الآية 22 .

(2) سورة الروم ، الآية 12 .

مَنْ المهيمن على الكون وعالم أسراره ؟

مَنْ مالك الأرض وما ومن فيها ، من بحار وأنهار ، والحيات الأزرق من خلقه ، لا يموت إلى قيام الساعة يعني يعمر ملايين السنين ، إلا إذا انتحر أو قتل ، ولا يكون انتحاره أو قتله إلا بإذن الله عز وجل .

من رفع " أفرست " من جوف المحيط ، وملاً مكانه بالأمواه ، وقال له كن أعلى جبل فكان . واسبحي يا أرض حول النور والنار دون ميدان ، فسبحت وسبّحت طائفة .

مَنْ مالك السماوات السبع ، سماء فوق سماء فوق سماء ... ومن يدير السبع الأرضين وملحقاتها ، أرضنا فوق أرض فوق أرض ... تحت كل سماء مجموعة ، ويحيط بهذا الكون أكوان وأكوان هي العرش العظيم .

والسماوات والأرض في كرسي العرش كباقة زهر ، والعرش محيط بالكرسي ، إحاطة المملكة المجهولة الحدود بصحراء فيها باقة الزهر . ويكفي أن نعرف عن روعة المملكة ، أنه هو سبحانه وتعالى سماها العرش العظيم ، والعرش المجيد ، والعرش الكريم .

ماذا يملك الإنسان من كل هذا ؟

لا شيء أصلاً ... ولكن الله عز وجل كرمه :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }⁽¹⁾ ..

والله عز وجل سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه وملكه تفضلاً منه وتكرماً وبدون مقابل ، فهو تعالى غني عنه وعن عبادته وعن طاعته ، ولكنه سبحانه لرحمته به ، يجب له الإيمان ولا يجب له الكفر . ملكه في الأرض ملكاً مؤقتاً ، إذا أحسن إدارته كما علّمه الله جل

شأنه ، سعد فيه ، وكان جسراً ملكاً دائماً باق هو دار السلام والأمن والهناء الأبدية . أما إذا أساء الإنسان إدارة ملكه في الأرض ، أفسد هذا الجسر إلى النعيم الدائم وهدمه ، فحرم نفسه مختاراً من النعيم الموعود ، وأوقع نفسه مختاراً في الجحيم الموعود :

{ ..وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } (1).

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوهُمُ أَنْحُنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ } (2).

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل نفهم أن الإنسان خلق في الأصل ليسعد ؟ وفي الدارين ؟
{ طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } (3).

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

لمن الخطاب هنا ، صحيح أنه في خصوصه لرسول الله مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى أَسَاسٍ أَنَّهُ (طه) بوجه من الوجوه من أسمائه صلى الله عليه وآله . ولكن الخطاب ليس حكراً على رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما هو لكل مؤمن ، إذ إن هذا اللفظ المبارك ، ويعتبر من جملة ما يسمى بالأحرف النورانية ، أو مفاتيح السور ، كذلك (يَسَ) ومثلها مثل (الم) و (حم) و(كهيعص) ... وهذه الأحرف الكثير من وجوه أسرار الظاهر والباطن.

المهم أننا نفهم من ذلك بوضوح ، أن الله عزَّ وجل ما أنزل القرآن على الإنسان ليشقى ، وإنما أنزله عليه ليسعد ، وفي هذا القرآن قوله تبارك وتعالى :

{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } (4).

وإذا كانت الهداية رأس السعادة وبصرها ، والرحمة قلبها وحياتها ، والبشرى جناحيها وجوها
الرحب الفسيح ، فعند الله سبحانه ، أكثر من ذلك ، أكثر من الهداية والرحمة والبشرى .
عنده الإنهاض من الكبوة ، والإنقاذ من المطبات ، والغطاء الكريم الشافي من الخطأ والزلل ،
وعنده الستر والعافية ، يعني عنده المغفرة ، أسمع أيضاً يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وكل
عامل بكتابه الكريم ، بقوله سبحانه ما أعظمه وأكرمه وأرحمه :

{ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ }⁽¹⁾ .

لماذا يذل الإنسان نفسه بالمعصية ؟

أليس الله تبارك وتعالى هو أعلم بنفس الإنسان ، وبالتالي بمصلحة الإنسان ، فإذا نهاه
عن أمر ما ، فهل يكون تحكماً منه بدون طائل ؟ حاشى الله .
وهل إذا أمره سبحانه بفعل ما ، أو بريضة ما ، نفسية أو بدنية ، فهل يكون أمره عزّ
وجل بدون علم النتائج ، وهو الله الذي لا إله إلا هو الحق المبين .
فعلام يتجبر الإنسان ، ويتكبر ، ويجادل بما لا يعلم ، بدون علم ولا هدى ولا كتاب
منير . ثم في مجال التجربة العملية :

متى كانت المعاصي مسعدة لفاعلها أو مفيدة له ؟ ألا نراها دائماً وأبداً تنكفيء على
صاحبها بالندامة ، والخسارة ، والذلة ؟ أما المتعة التي يحصل عليها الإنسان أثناء سقوطه في
المعصية ، أليس فضلاً عن كونها تنقطع بردة فعل موحشة ومنكرة ، تشعره بكونه كان
معها تافهاً ورخيصاً ؟

والله عزّ وجل يجب لعبد العزة والكرامة والشرف ، يرفعه بذلك ويرفعه ، ويجري له
الامتحانات ، كلما نجح بواحد منها ، تحسنت قابليته

(1) سورة الحجر ، الآية 49 .

وكفاءته ، فيعرضه سبحانه لامتحان آخر ، أرفع وأرقى ، دون أن يحمله فوق طاقته ، فهو تعالى أعلم بطاقته ، فإذا استقام ، وَاكْبَهُ سبحانه بلطفه ، وعونه ورحمته ، حتى يوصله إلى درجة يصلح لها وتليق به .

{ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. } (1)

(صدق الله العظيم)

{ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ } (2)

(صدق الله العظيم)

هذه الآية الكريمة حتى لا يقولن أحد أنا لست نبياً ولست إماماً ، ولست معصوماً ، فقد جعل الله الدرجات العلى لجميع الناس ، كل إنسان يستطيع أن يتوصل إليها بزيادة الايمان ويعمل الصالحات كلها ، التي قد يعبر عنها بالدين الخالص ، أو الدين المخلص لله عز وجل .
الناس مروا بتجربة المعصية قبل هذه الدنيا :

المقصود بالدنيا ، هذه الأرض التي نحن عليها اليوم ، وهي بمعنى السفلى ، إذ فوقها سبع سماوات وست أرضين ، وبتعبير آخر ، هي (الأرض الدنيا) ، وهي وجميع متعلقاتها من الكواكب السيارة حول شمسنا مع أقمار هذه الكواكب (للمشتري وحده خمسة عشر قمراً) وملايين الشمسوس في مجرة درب التبانة ، ومليارات الشمسوس في باقي المجرات ، يعني أن جميع هذه الكواكب والأقمار والمجرات الهائلة بشمسوسها العظيمة ، هي تحت السماء الدنيا ، وكذلك معهن ما توصل إليه العلم من معارف وأسرار وكشوف وأجرام ، وما لم يتوصل إليه بعد ، لا يمكن إلا أن يكون تحت سماننا الدنيا هذه . ولا يمكن إلا أن يكون من توابع أرضنا هذه ، أو زينة

(1) سورة البقرة ، الآية 124 .

(2)

سورة طه ، الآية 75 .

لسمائها ورجوماً لشياطينها وبالنجم هم يهتدون .

فحرصاً على فكر التوحيد ، وفيه الحرص على فهم عدالة الله سبحانه ، وفوق عدالته رحمته ، كان بديهياً علاج مشكلة واسعة الانتشار ، وتشكل خلافاً في صلب العقيدة ، حيث بدلاً من أن نعتقد برحمة الله الواسعة ترانا نعتقد بظلمه وتحكمه ، سبحانه وتعالى عما يصفون . وهذه المشكلة التي يرددها أكثر الناس ، تارة ببراءة ، وتارة بجهالة ، تتلخص بهذا التساؤل :

إذا كان أبوانا آدم وحواء ، أكلا من شجرة الخطيئة ، فما ذنبنا نحن حتى نتحمل وزرهما ، ونتيجة خطيئتهما ، حيث أهبطاً من تلك الجنة التي فيها رغد العيش ، ولا يجوع الإنسان فيها ولا يعرى ، ولا يظمأ ولا يضحى . فما ذنبنا نحن وما خطيئتنا ، حتى نعيش في كدح وكبدٍ ، وحتى تبدو لنا سوءاتنا ، ونجوع ونعري ، ونظماً ونضحى ، ونحيا في هذه الأرض بعضنا لبعض عدو ، ومن اتبع منا هدى الله تبارك وتعالى ، فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عنه ، فإن له معيشة ضنكاً ، ويحشره يوم القيامة أعمى ... في وقت كان من حقنا أن نمرّ بنفس التجربة ، وفي نفس الجنة التي أهبط منها أبوانا .

ومن ذا الذي يدعي بدون بينة ، أننا كنا سنخون عهد الله سبحانه ونعصي أمره ، وننخدع بكلام عدو واضح العداء ، هو إبليس المجرم . فضلاً عن أن ربنا الله عزّ وجل ، حذر أبويناً منه تحذيراً شديداً .

على أي حال ، كان من حقنا أن نمرّ بنفس التجربة ، ونحن ندعي ، بل ونجزم ، أننا كنا تلافينا السقوط ، الذي سقط فيه أبوانا . ثم إنّ الله عزّ وجل يقول :

{ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }⁽¹⁾.

(1) سورة الأنعام ، الآية 164 . سورة الإسراء ، الآية 15 . سورة الزمر ، الآية 7 .

ويقول سبحانه :

{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } (1).

فكيف يحملنا عز شأنه وزر غيرنا ؟ وكذلك يرتهننا بما كسب ذلك الغير ؟ ..
هذا بإيجاز ، ما يُتَدَاوَلُ به عامةً بين الناس ، وهو كما نرى ، تحد للعقل الإسلامي
الموحد .

ولا بد من ملاحظة في السياق ، تلفت إلى أن كثيراً من الخبر أهرق في سبيل الدفاع عن
خطيئة أبينا آدم المرعومة ، وملخصه أن أمر الله سبحانه لأبينا آدم كان تنزيهياً ولم يكن مَوْلَوِيّاً
(2) (مما لا يغير شيئاً في أصل المشكلة) .. إلى كلام آخر ، موجزه أيضاً أن الله عز وجل ،
جَرَّبَ آدم وزوجه في تلك الجنة ، فوجد بعد التجربة . عبرهما . أن الإنسان لا يستطيع أن يترى
إلا في حجر الطاعة والتعاليم ، وأكثر ما تناسبه هذه الأرض الدنيا .
وبما أن الحقيقة أحق من ذلك كله ، فقد قررنا بإذن الله تبارك وتعالى ، أن نعقد بحثاً ،
نجلو فيه ، ما يقيض لنا الله سبحانه من الحقائق .. وبه أستعين ، راجياً وجهه الكريم ولا شيء
إلا وجهه الكريم .

أما ما قد يحمل عليّ بحثي هذا وبقية أبحاثي . من ردود فعل ، قد يكون أقلها الإطالة
العصبية من سجن التقليد ، والروايات الموضوعية ، والأحاديث الدخيلة ، والإسرائيليات .. أو
حتى الرمي بمرطقات الفلاسفة ، أو شطحات الصوفية ، فإني بفضل ربي من ذلك كله بريء .
والله حسبي ، هو نعم المولى ونعم النصير .
فإلى توضيح ذلك ، والله المستعان .

(1) سورة المدثر ، الآية 38 .

(2) كأمر السيد مولاه .

(4)

بحث علمي قرآني

أين كانت جنة آدم ...

الأرض الدنيا ليست هذه الكرة وحدها

- الأرض من المجرة أم المجرة من الأرض ؟
- آدم أبو البشر .. والبشر اسمهم آدم .
- وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ . فَنَسِيَ .. (أي المجموع الإنساني) .

الأرض الدنيا .. ليست هذه الكرة وحدها

قبل أن ندخل في صلب الموضوع ، لا بد أن نذكر بإيجاز ، ما هو شائع عند الباحثين والمفسرين ، من احتمالات عن مكان جنة آدم . فقد قيل فيها أنها جنة كانت في الأرض . المقصود هذه الكرة . وقيل إنها كذلك ، وبشكل خاص في عدن ، وقيل إنها في السماء ولكن هي غير الجنة الموعودة للمؤمنين . وقيل هي الجنة الموعودة عينها . وقد حسم هذا الأمر الأخير أئمتنا عليهم السلام في بعض الروايات بالقول : إن آدم لو كان في جنة الخلد الموعودة لما خرج منها أبداً .. وانطلاقاً من هنا نقول ، أن بقية المزاعم كانت رهناً بالقصور العلمي عن الكون وعن الفلك ، بسبب عدم تدبر القرآن كفاية .

من هنا لفتني بفضل منه تعالى قوله :

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ } (1) .

فما هو هذا المرقد ؟ وأين هو ؟ وأين ينسلون من الأجداث ؟ هل في

(1) سورة يس ، الآيات (51 . 53) .

حدود هذه الكرة الأرضية فقط ؟ منذ مدة تحطمت مركبة للسوفيات على سطح القمر ،

وتحطمت مركبة أخرى وأكثر ، وفيها بشر ، تحطمت في المجال الجوي بين الكواكب ، وحسب النظرية العلمية التطبيقية ، تبقى الأجسام في مناطق الجذب ، تدور حول الأجرام الجاذبة ، وهي لا تنزل إلى الكرة الأرضية ، بل تبقى حيث هي لا يعرف مصيرها . وهنا يمكننا الإستنتاج وببساطة ، أن أحداثنا ومرقدنا المنوه عنهما في الخبر القرآني ، يجب عقلاً أن يكون حيزهما في جملة مجموعتنا الشمسية كلها ، وليس فقط في كرتنا الأرضية ، ثم ليس في مجموعتنا الشمسية فحسب ، وإنما فيها داخله في المجرة كجزء من أجزائها ، متحركة بحركتها . وبكلمة فالأرض ليست فقط هذه الكرة . لأن الأرض الكرية عضو لا يمكن أن يؤخذ ، بالنظر الإعتباري ، مفصلاً عن بقية الأعضاء ، التي هي مجموعتنا الشمسية على أضييق الإفتراضات . لأن كرية الأرض بحدود جرمها، يستحيل أن تقوم فيها حياة ، من إنسان وحيوان ونبات ، كما يستحيل أن تتحرك بحركات جرمها الثلاث ، حول نفسها وحول الشمس وحركة المجرة وهي فيها ، وكذلك حركات أجزائها ، من براكين وزلازل ، ومدّ وجزر ، وجذب ودفع إلخ .. يستحيل أن يتم ذلك كله بالنظر إليها مُبَانَةً عن جسمها الذي هي عضو فيه ، إذ إنّ حياة الأرض كريتنا وما يتبعها من حركات خاصة وعامة ، إنما هي بسبب وجودها في هذا الجسم الذي هو المجرة ، وحيث إن الله عزّ وجل ، قد أبقى أن تتم الأمور إلّا بأسبابها ، فيجب أن تكون الأرض ذلك الجسم الكبير ، الذي من أعضائه الشمس والقمر والمشتري و ... وكريتنا الأرضية هذه .

الأرض من المجرة ؟ أم المجرة من الأرض ؟

وكما أن الله سبحانه وتعالى سمي في الإنسان عينيه وأذنيه ، وقلبه ولسانه ، وعقله ونفسه ، ويديه ورجليه وجلده ، وغير ذلك ، على أن كلية هذه الأعضاء متصلة متماسكة سماها الخلاق العظيم آدم وسماها بشراً وسماها

إنساناً . كذلك سمي من متعلقات الأرض : القمر والشمس والليل والنهار والنجوم والسماء الدنيا ، إلى غير ذلك من المتعلقات . وإذا كان نظر الإنسان يعجز غالباً عن تصور حقيقة

الإتصال والتماسك بين هذه الأجرام وأسرار حياتها ، فسبب عجزه توهم البعد . بنظره . بين كتلاتها الضخمة من جهة ، ومن جهة ثانية ، قصور طاقات الإنسان عن إدراك اليسير من آثار عظمة الخالق وأسراره في خلقه :

{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } (1).

ثم لتأمل قوله عزّ شأنه :

قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } (2).

فعلى أساس هذه الآيات كانت السماوات سماء عظمى واحدة ، وكذلك قوله تعالى : { خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } يعني الأرض العظمى قبل تقسيمها إلى سبع أرضين : تحت كل سماء أرض { جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. } . هكذا جعل لنا سبحانه بعض الآيات منطلقاً للتفكير والكشف وضبط المنطلقات العلمية ومساراتها .

لتأمل مثلاً في الآيات الكريمة التالية التي تكشف لنا أسراراً عن الفلك المشهود للعلماء وغير المشهود ، نشبتها بغير تعليق . يقول عزّ شأنه :

(1) سورة النمل ، الآية 88 . (2) سورة فصلت ، الآيات (12.9) .

{ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا }⁽¹⁾ .

أما الآيات فقولهُ تبارك وتعالى :

(1) { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابَ السَّعِيرِ }⁽²⁾ .

(2) { مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا }⁽³⁾ .

(3) { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }⁽⁴⁾ .

(4) { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا }⁽⁵⁾ .

آدم أبو البشر .. والبشر اسمهم آدم :

إذا قلنا عاد وثمود وسبأ إلخ . نفهم بهم الأقوام الذين ورد ذكرهم في القرآن المجيد ،
كما هو معلوم . فإن كل قوم من هؤلاء إنما سمي باسم شخص هو الأب . وفي المجمع عن فروة
بن مسيك قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن سبأ أرجلٌ هُوَ أم امرأة ، فقال : هو
رجل من العرب ولد عشرة ، تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة . فأما الذين تيامنوا فالأزد
وكندة

(1) سورة الفرقان ، الآية 33 .

(2) سورة الملك ، الآيات (3 . 5) .

(3) سورة الإنسان ، الآية 13 .

(4) سورة الأنبياء ، الآية 33 .

(5) سورة الفرقان ، الآية 61 .

ومذبح والأشعرون وأنمار وحمير ، فقال رجل من القوم : ما أنمار ؟ قال : الذين منهم خنعم
وبجيلة ، وأما الذين تشاءموا فعاملة (الذين نحن منهم ، يعني نحن من سبأ)⁽¹⁾ . وجدام ولخم
وغسان .

ونحن نسأل ، إذا قلنا " آدم " قاصدين به قوماً ينسبون لشخص هو آدم الأب ، فهل
نكون قد تجاوزنا العرف أو القاعدة ، والقرآن المجيد يجري هذا المجرى في كثير من
التسميات؟.

فإذا ساعدتنا القرائن ولم يعترضنا مانع من القرآن ، أو مما صحَّ عن غيره ، فسنعبر محنة
الشجرة المحرمة في الجنة ، ليست مختصة بأبونا آدم وزوجه . التي لم يسمها القرآن ولا مرة . وإنما
محنة الشجرة ، هي محنة كل إنسان في أية مرحلة من مراحل التاريخ عاش ، أو سيعيش هذا حتى
يوم القيامة . محنة الشجرة كانت محنة كل إنسان حاضراً ناظراً عائشاً الواقع العملي ، بدون مجاز
، وألغاز وتخيلات .

والشجرة هي شجرة المعصية ، التي أصلها طاعة الشيطان وما تهوى الأنفس ، وفروعها
الكبائر وأغصانها الصغائر ، وفيها تورط أبونا آدم الذي سماه بهذا الإسم ربنا سبحانه ، نسبة
لأديم الأرض الذي منه خلقه ، وزوجه . ثم بنوا آدم ، أو بكلمة أخرى آدم (القوم) الذين
تورطوا كذلك ، ثم ذرية بني آدم ، وهم شعوب البشرية التي انشعبت من تلك الأصول ،
ليمروا بنفس الإمتحان ، حتى { لا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } .

أما لأبونا آدم وزوجه ، ومعهما بنوهما أو شعبهما (آدم) ، الذي انشعب منهما ،
فكان من ربنا سبحانه ، الخطاب التالي ، موجهاً بوجه الخصوص للأبوين ، لمقامهما الرئاسي أو
القيادي ، وبوجه العموم . تعريضاً . لبني آدم التابعين آنذاك الممتحنين بنفس الإمتحان ،
الواقعين في نفس الورطة ، في تلك الجنة المفقودة ، قوله تبارك وتعالى :

(1) سكان جبل عامل أو عاملة ، في جنوب لبنان .

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (1) .

ثم كان الأمر بالإهباط لجميع قوم آدم ، أي الأبوين الرئيسين والفوج الأول ، أو الشعب الذي انشعب منهما . مبقياً على ذريتهم (بني آدم) لتمريرهم في نفس الامتحان الإنساني التاريخي .

وبعد أن أهبط آدم وزوجه وبنوه ، (أي آدم القوم) ، وبقيت في الجنة المعهودة ، الذرية ، التي هي مجموع البشرية من ولد أبينا آدم عليه السلام إلى قيام الساعة ، كان لهم هذا الخطاب ، الذي هو في سياق الآيات الآتية ، قوله تعالى :

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } (2) .

لعلهم يذكرون ماذا ؟ لعلهم يذكرون العهد الذي في الآية التي بعد هذه مباشرة قوله تعالى :

{ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } (3) .

(1) سورة الأعراف ، الآيات 19 . 23 . (2) سورة الأعراف ، الآية 26 .

(3) سورة الأعراف ، الآية 27 .

هذا عهد الله سبحانه وتعالى لبني آدم وهم في الجنة بعد أبويهم آدم وزوجه وبنيه (آدم القوم الأوائل) ، وهو هو العهد عينه الذي يذكرهم به في سورة يس ، قوله تعالى :

{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } (1)

. (صدق الله العظيم) .

والعبادة المذكورة هنا هي الطاعة ، وذلك معناها أينما وقعت بشكل عام . فكل طاعة فيما يرضي الله ، هي عبادة لله عز وجل وتبارك وتعالى .

وهذا العهد الذي أخذ على ذرية بني آدم في الجنة هو بعد الإشهاد المشهور في قوله عزت عظمته :

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } (1)

ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي .. (أي المجموع الإنساني) :

لذلك ، يحق لنا أن نقول : أن العهد بمعنى الميثاق العمومي ، مأخوذ من جميع الإنسان ، ومن الأنبياء خاصة بوجه أكد وأغلظ ، مرتباً سبحانه الجزاء لكلا الفريقين تناسباً مع العزائم :

. { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً } (3)

. { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } (4)

(1) سورة يس ، الآيات (60 . 61 . 62) .

(2) سورة الأعراف ، الآيات (172 . 173) .

(3) سورة طه ، الآية 115 .

(4) سورة الأحقاف ، الآية 35 .

ولأهمية هذا الموضوع ، وما يترتب عليه أساساً ، من مسؤولية أمام الله عز شأنه ، ثم من هدم لنظرية فلسفية تقليدية متوارثة ، قررنا بعون الله تعالى ، تفصيل ذلك في البحث التالي: (القسم الخامس من هذا الكتاب) .

والحمد لله حمداً خالداً بخلوده .

(5)

مؤمنون وكفار قبل الدنيا ..

أهبطوا إليها جميعاً

بحث يدحض النظرية العقلية في الفلسفة الإسلامية

مؤمنون وكفار قبل الدنيا .. أهبطوا إليها جميعاً

بحث يدحض النظرية العقلية في الفلسفة الإسلامية :

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }⁽¹⁾.

نحاول في هذا البحث ، بإذنه تعالى ، أن نثبت أمرين : الأول ، أنه قبل الحياة الدنيا ، كان الناس في مكان ما وزمان ما ، فريقين كفاراً ومؤمنين . والأمر الثاني ، أن الجميع أهبطوا إلى هذه الأرض ، وبعضهم لبعض عدو (أما لماذا أهبط المؤمنون ، فلأنهم عصوا وتابوا ، وكفر الآخرون ، وسنفصل ذلك إن شاء الله في نهاية هذا الباب) . معتمدين لإثبات الأمرين المذكورين ، على خمسة أدلة رئيسة من القرآن المجيد (عدا ما يلحق بها في السياق) وعلى ثلاثة نصوص ، عن ثلاثة من آل بيت النبوة عليهم السلام : الإمام عليّ ، والإمام الحسين ، والإمام زين العابدين ، صلوات الله عليهم أجمعين .

(1) . قوله عز وجل :

{ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تَيْنَكُمْ مَنِّي هُدًى

(1) سورة التغابن ، الآية 2 .

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً
ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى { (1) .

فبخصوص هذه الآية الكريمة ، هناك ادعاءان :

أولهما : أن الخطاب لثلاثة : آدم وحواء وإبليس .

ويدل على وهنه قوله تعالى { اهبطا } ، فإذا كان إبليس فريقاً ، فما معنى قوله
سبحانه : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ } ... والمعلوم أن إبليس عليه اللعنة
، أصرّ على كفره واستكباره بصريح النصوص . فلا معنى إذن من مخاطبته بالقول { فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } وبالقول : { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ } فواضح أنه لا يمكن أن يكون
مقصوداً بالخطاب في هذه الآية أو في أشباهها كما سنرى فيما سيأتي .

الثاني : أن الخطاب لشخصين فقط ، هما آدم وحواء ، دون غيرهما من الأبناء والذرية .

وهذا مردود أيضاً ، لأنه سبحانه استعمل صيغة المثني { اهبطا } ثم أتبعها بصيغة
الجمع { يأتينكم } . وصحيح أنه يجوز خطاب الإثنين ، لغة ، بصيغة الجمع للتوقير والإحترام
، ولكن المورد هنا ليس كذلك ، بل هو مورد العقوبة . فلو كانا في هذا المورد اثنين فقط ،
لكان قال سبحانه { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمَا مِنِّي هُدًى ... } .

فنخلص من ذلك كله ، إلى حقيقة أن الخطاب كان لجمعين : آدم وزوجه ، أي الذكور

والإناث ، ومثله قوله تعالى :

{ ... فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (2) .

علماً أن الأرض سبعة أجرام . وكذلك قوله عز وجل :

(1) سورة طه ، الآيتان (123 . 124) . (2) سورة فصلت ، الآية 11 .

{ ..وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا.. } (1) .

وهما جمعان ، فقال (حفظهما) بصيغة الإثنين .

على أن هذه الآية التي بدأت بصيغة المثنى (قال اهبطا) يقابلها ثلاث ، بخصوص نفس الموضوع ، بصيغة الجمع (اهبطوا) كما سنرى وقبل أن يتسرب للظن ، أنهما اثنان وإبليس معهما فإصبحوا جمعاً ، نعود فنذكر ، بأن قوله تعالى في الآية :

{ فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِّي هُدَى ... } .

لا يمكن أن يشمل إبليس ، وهو قد أبلس⁽²⁾ من رحمة الله تعالى ، ولو كان موجهاً لآدم وزوجه حواء ، فقط ، لكان قال سبحانه { فَأَمَّا يَا تَيْنَكُمَا مِّنِّي هُدَى ... } مستثنياً لإبليس ، باعتبار ثبوت اللعنة عليه ، وهي الإخراج من رحمة الله ، ووعدته بتخليده بالعذاب .

ثم نعود ، فنقول إنهم بعد الإهباط ، وعدهم سبحانه بأن يأتيهم بهدى من عنده :
{ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ ... }

. قبل الإهباط ، وبعده . وهذا الإستنتاج ، سيصدم الفهم التقليدي ، ولكن مع تحرير الفكر مستعيناً بالله .

{ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ... } .

ومن أعرض عن الذكر . الذي هو الهدى . في السابق ، فله تجربة الحياة الدنيا ، وباب التوبة مفتوح أبداً ، وباب الرحمة أوسع .

ومن أعرض عن الذكر ، في النشأة الأولى وفي النشأة الثانية ، فقد حرم هو نفسه من رحمة الله تعالى ، وفوّت على نفسه فرصة التوبة ،

(1) سورة البقرة ، الآية 255 .

(2) يَسَّ .

متفلسفاً ، أو مقلداً ، بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير . مما ينتج عنه المعيشة الضنك ،

والعمى يوم القيامة ، يعني عيش الغفلة والبهيمية والتأزم ، ويوم النشور يحجبه صدوده عن الرحمة ، وآثامه وكفره ، وعدم توبته ، عن مصدر العفو والعافية الأبدية ، فيسقط في الظلام الأبدى ، هكذا ، مختاراً ، جهازاً نهاراً :

{ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }⁽¹⁾ .

(صدق الله العظيم)

وفوق ذلك كله ، يبدو أن الأمر أبلغ وأعمق ، فالذين آمنوا قبل الإهباط ، وكأنه محسوم أمر هدايتهم بعد الإهباط . أما العكس فصحيح . ولعل هذا يلقي ضوءاً على قول رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذي ، بسبب من عدم فهمه ، حاول الكثيرون ردّه أو تضعيفه ، أو في أحسن الحالات تجميده . والحديث الشريف هو قوله صلى الله عليه وآله : " السعيدُ سعيدٌ في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه " .

وهنا ، ينبغي لجلاء الأمر ، إعطاء فكرة كافية مقنعة بما نشير إليه ، أن نذكر بالأحد عشرة آية من بداية سورة (يس) ، وهي السورة التي ألفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى تميزها بقوله " لكل شيء قلب وقلب القرآن سورة (يس) " .

فلنرجع إلى المرجع ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولنتأمل بخشوع وتدبر وروية هذه الآيات ، ولا نكون ممن عناهم سبحانه بقوله :

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }⁽²⁾ .

(1) سورة آل عمران ، الآية 117 .

(2) سورة محمد ، الآية 24 .

ولا من الذين قال تعالى فيهم :

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } (1) .

وآيات (يس) التي ندعو للتأمل فيها ، تشهد لنفسها ، لغناها عن البيان . ولعلنا في ضوئها نفهم نسبة صحة الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قوله : " السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه " .

وتزول غرابة ما نرمي إليه ، إذا تأملنا ضمن هذه الآيات الكريمة خاصة في قوله تبارك وتعالى :

{ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (2) .

وقوله عز شأنه :

{ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (3) .

(2) . قوله تبارك وتعالى :

{ .. وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .. } (4) . { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً .. } (5)

تكرار هذه الصيغة تجده في بضع آيات تتعلق بنفس الواقعة ، وفيه لغة الجمع ومبدأ العداوة .

ومصداق ذلك ما نراه مستمراً بين ولد آدم في تواريخ الأمم ، والتاريخ المعاصر ، وطبعاً إلى قيام الساعة .

والذي يحلم منا ، بمرحلة من الزمان يكون فيها النعيم على هذه الأرض ، فهو مشتغل بروايات ما أنزل الله بها من سلطان ، منسوبة زوراً إلى

(1) سورة لقمان، الآية 21 .

(2) سورة يس، الآية 7

(3) سورة يس، الآية 10 .

(4) سورة البقرة، الآية 36

(5) سورة البقرة، الآية 38 .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأئمة الهدى عليهم السلام ، وبينما القرآن يردّها وينفيها ، نراهم ، إما يفسرون القرآن بموجبها ، والعكس هو المطلوب ، وإما يخوضون فيها خوفاً شنيعاً ويجعلون القرآن وراء ظهورهم .

ونعود لنقول إن النشأة الثانية هذه ، في الأرض الدنيا ، هي من حيث العداوة بين فريق الخير وفريق الشر ، يبدو أنها صورة مكررة عن النشأة الأولى .

وهذه العداوة كانت عبر نوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح عليهم السلام وأقوامهم ، ثم موسى وعيسى عليهما السلام ، ثم الخاتم محمد صلى الله عليه وآله ، وفي ذلك قول الله عز وجل :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ } (1) .

والملاحظ بشكل مدهش ، عبر القصص القرآني ، دائماً ، القلة النوعية من المؤمنين ، المنتصرة بالله عز شأنه ، والكثرة الكاثرة من الكافرين ، المخدولة من الله عز وجل . ويستمر صراع النقيضين : المؤمنين والكفرة ، في المحطة الثانية أرضنا هذه :

{ .. لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .. } (2) .

(3) . قول الله عز وجل :

{ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (3) .

(1) سورة الفرقان ، الآية 31 .

(2) سورة الأنفال ، الآية 42 .

(3) سورة البقرة ، الآيتان (38 . 39) .

كذلك ، بخصوص أن الناس كانوا قبل الحياة الدنيا ، أيضاً نلاحظ عبارة :

{ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ } .

التي قلنا إنها تحمل معنى الماضي . وكذلك عبارة :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } .

والقرآن كما هو معلوم له ظهور وبطون .

وقد حملهما سبحانه معنى (الماضي) قبل هذه الدنيا ، إرشاداً لواقع الحال . وأما

المستقبل الذي هو بعد الإهباط ، فجلّي في قوله تعالى :

{ فَأَمَّا يَا تِئِنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } .

وكلا الأمرين الإهباط وتجديد الهداية ، ما هما إلا تفضل منه وتكرم وحجة على رحمته

الواسعة التي هي الغاية من خلقه ، والتي صدّ عنها من صدّ ، وكفر بها من كفر ، وما أراد بها

سبحانه إلا إسعادهم ، وهو تبارك وتعالى بغنى عنهم وعن عباداتهم وعن طاعتهم وعن جميع ما

خلق ومن خلق ، قوله سبحانه الكبير المتعال :

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ { (1) .

وقوله عزّ شأنه :

{ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ } (2) .

4 . قوله عزّ شأنه :

{ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } (3) .

(1) سورة الرعد ، الآية 13 .

(2) سورة النعابن ، الآية 6 .

(3) سورة الأعراف ، الآية 24 .

إن إهباط الكفرة للأرض كان إمعاناً في إلقاء الحجة عليهم .
ولماذا لم يُنزل بهم العقوبة سبحانه قبل الإهباط ؟ لأن القضية قضية تخليد في العذاب ، والأمر جلل . ولأن رحمته سبحانه تسبق غضبه .
أما إذا كان الإصرار على استدعاء غضبه ، والإعراض عن رحمته ، والتعرض لنقمته ،
فالكافر هو يستعجل العذاب في هكذا حال . والله عز وجل يعطيه فكرة عملية ، عن العذاب
والآلام ، سواء عبر العداوة لأهل الحق ، وما يتعرض له الكفار من خزي وعنت وخذلان ،
أو عبر شتى الإبتلاءات التي تلحق بالمؤمنين ، ثم مقارنة ذلك كله ، بتذوق ألوان المتع
والسعادات .

والإنسان ملزم في ذلك بالإستنتاج عقلاً ، أن عذاب الله عز شأنه ، في الآخرة هو
العذاب الأكبر الأبدي ، وأن نعيم الله تبارك وتعالى ، في دار البقاء ، هو النعيم الأبهى
والأشهى والأرغد والأخلد .

ونستفيد استعجال الكافر العذاب ، وتأكيده سبحانه أن وعده الحق آت ولو بعد حين ،
رغم تأجيله النعمة بالرحمة ، مع النذير بشدة العذاب ، لعل الكافر يرعوي ، أو يثوب إلى
رحمة ربه ، من قوله تبارك وتعالى :

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ
مِّمَّا تَعُدُّونَ } (1) .

وإشارة إلى طول العذاب لمن أعرض عن رحمة الله تبارك وتعالى ، وجه من وجوه قوله
عز شأنه :

{ وَإِنَّ يَوْمًا } .

معنى ذلك أنه يوم من أيام عديدة . أبو عبد الله الصادق عليه السلام ألقى عليها
الضوء في حديث : ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فإن

(1) سورة الحج ، الآية 47 .

في القيامة خمسين موقفاً كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية :
{ ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }⁽¹⁾.

وفي الجمع روى أبو سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : ما أطول هذا اليوم ! فقال : " والذي نفس محمد بيده أنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا "^(*).

والفرق العظيم الهائل ، بين حال من يعرض عن ربه وعن رحمة ربه ، وبين من يقبل عليه سبحانه ، وعلى رحمته عابداً ساجداً شاكراً ! ...

ذلك هو الفرق بين أقصى درجات الشقاء وأعلى درجات السعادة .

* ولماذا أمرنا بدعوة الكفار إلى الله وإلى دينه الحنيف ؟

* كذلك لإلقاء الحجة وإبراء الذمة .

* ولماذا كان إهباط المؤمنين ؟

* لاستكمال التوبة ، وللاخذ بأسباب القوة على أساس دين التوحيد ، لضبط

المجتمعات ، وعمارة الأرض ، وتحقيقاً لوعده سبحانه بالإستخلاف . وزيادة

في أجر المؤمنين في الجاهدة ، وحمل الأمانة

ثم نظرة في قوله عز وجل :

{ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }⁽²⁾.

تفيد أن غير المؤمنين مستثنون .

أما إلقاء الحجة وإبراء الذمة ، فيجعلنا غير قادرين غالباً على ضبطهم ، حيث إنهم في حال

تمكن المؤمنين ، يتسترون بالإيمان ، ويلبسون لباس التقوى وهم ألدّ الخصام .

(1) سورة المعارج ، الآية 4 .

(2) سورة الذاريات ، الآية 55 .

(*) الميزان ، المجلد العشرون ، ص 12 .

فإلقاء الحجة عليهم يكون من المؤمنين من جانب ، ومن اللباس الذي هم تلبسوا فيه من جانب آخر .

أما إبراء الذمة ، فتلبية لأمره . عز وجل ، قوله تعالى :

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (1) .

فلحكمة منه سبحانه في جعلنا أيضاً غير قادرين غالباً على التمييز ، بين من هو مؤمن ومن هو كافر أو منافق .

ومن وجوه حكمته في ذلك ، الرحمة بالفريقين ، لأنه إذا رفع الغطاء عن الكفرة ، انكشفت حقائقهم عن قردة وكلاب وخنازير ، منها من يحكم ، ومنها من يساكنك ويؤاكلك ، وتعالج معه شؤون الساح وشؤون المجتمع ، فكيف تكون الحالة والعيش معهم إذا أطلوا بهذه الحقائق من تحت الجلود؟! ...

لذلك سبحانه احتفظ بعلم ذلك وحجبه عنا . إِلَّا لِمَا مَرَّامًا . حيث يتفضل تعالى بشيء من ذلك إذا كان فيه مصلحة للعباد . أما القاعدة العامة في هذا الصدد فهي قوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } (1) .

*ولماذا ، أيضاً ، كان اهباط المؤمنين؟

*فوق ما ذكرناه مختصراً : للتزود بالباقيات الصالحات ، استعداداً لتلبية أمره سبحانه وتعالى في قوله عز شأنه :

{ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } (2) .

(1) سورة النحل ، الآية 125 .

(2) سورة الفجر ، الآيات (27 . 30) .

{وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (1).

(5) . وأخيراً وليس آخراً ، من أدلة القرآن الكريم على ما نحن في صده _ إذ ما يزال في القرآن الكثير من الأدلة الدامغة على ما نقول _ هذه الآية المدهشة ، قوله عز شأنه :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... } (2).

قبل أن نرصد في هذه الآيات الكريمة ، نشأة أولى قبل نشأة الحياة الدنيا هذه ، يجب أن نحل عقدة في آية مشهورة هي قوله عز وجل :

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (3).

وشهرة هذه الآية الكريمة عائدة إلى كون كثير من الكتاب الإسلاميين في مجال التفسير عامة ، وفي مجال الفلسفة خاصة ، كثيراً ما يعتمدون عليها كدليل قوي يستدلون به على كون الإنسان لا يملك أية معلومات سابقة قبل خلقه على هذه الأرض .
ومن هنا كان إسقاط نظرية المثل عند أفلاطون (4) ، وكذلك مقولات (كانت) (5) و (ديكارت) وغيرهما في هذا المجال ، ومقاربة آراء الحسينيين

(1) سورة الأحقاف ، الآية 19 . (2) سورة القصص ، الآيات (54.52) .

(3) سورة النحل ، الآية 78 .

(4) أفلاطون (347 . 427 ق.م.) فيلسوف مثالي يوناني وتلميذ لسقراط ومؤسس المثالية الموضوعية . حارب التعاليم المادية ولكي يتمكن من تفسير الوجود أنشأ نظرية عن وجود الصور الخالدة للأشياء سماها (المثل) أو الأفكار ، ووحد بينها وبين الوجود ، ووضع في مقابل (المثل) العدم الذي هو المادة والمكان ... (المراجع) .

(5) اعتبر أرسطو المقولات Categories أنها الأحوال الرئيسية للوجود إذ رصد عشر

مثل (بيكون) ، والخروج بنظرية الانتزاع وما شاكلها .

على أنه في معزل عن الفلسفة التي لا نتحمس لها لا من قريب ولا من بعيد ، نبقي مع القرآن المجيد ، لتتابع القول ، أنه في مجال تعارض الأدلة القرآنية إذا رجع المحكم على المتشابه أخذ بالمحكم ، ثم وجوب النظر في عدد الأدلة الصريحة ، من حيث الكثرة في مقابل دليل واحد ، أو أدلة قليلة يكتنفها الغموض .

ويظهر الغموض في آية :

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا.. } .

كلما أمعنا النظر في الآيات السابقة . مما ذكرنا ومما لم نذكر كثير . ولكن الغموض ينجلي بقليل من التأمل والمقارنة :

فعوداً إلى قوله تعالى في آية الإشهاد :

{ .. أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } .

يبدو أنها الغفلة الطبيعية، بسبب رحلة ما بعد الإشهاد ، وصدمة الإهباط :

{ .. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً } .

والسفر في الأصلاب والأرحام عبر ظلمات ثلاث ، والظاهر أنه بديهي أن يخرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، وهم في حالة ما يشبه فقد الذاكرة ، إلا أنه لا بد من تذكر الحقائق العليا ، التي نوه عنها سبحانه في

مقولات (الجوهر الكيف الكم ... إلخ) أما المقولات عند كانت الذي طوّر المذهب المثالي ، فهي أشياء قَبْلِيَّة للتأمل والعقل . ونظر هيغل Hegel إلى المقولات في تطورها الجدلي ولكنها في مذهبه أشكال ومراحل مثالية في تطور الفكرة المطلقة التي تخلق العالم الواقعي ، ويجري تجاهل المقولات في الفلسفة المثالية المعاصرة .. (تراجع الموسوعة الفلسفية ... بإشراف م . روزنتال و ب . يودين ... دار الطليعة بيروت ، 1967 ص 449) .

آية الإِشهاد وآية الفطرة وآية إقرار الأنبياء والآيات التي فصلنا في هذا البحث ، سيّما الدليل الخامس . والمتأمل في سياقات القرآن الكريم يجد الكثير من المدهشات ، التي يصبح معها خبر :

{ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا } .

قضية مرحلية في بداية العمر ، بعد السفر الطويل في الزمان والمكان ، والصدمات بين إهباط وتحويل وولادة .

نعم ، لا بد من تذكر الحقائق العليا ، ولكن لكي يتم التذكر ، لا بدّ من مشيرات ، تماماً كما يحصل للناس الأسوياء في حياتنا العادية ، حيث إنهم يتعلمون أموراً عقلية وبراهين ثم ينسونها فإذا هم سمعوا ، أو رأوا ، أو شعروا ، أو فكروا بما يذكرهم بها ، تذكروها . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى .

وعلى ذلك نبّه الله سبحانه في آية { لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا } بقوله عز شأنه :

{ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ } .

وهذه الجوارح خلقها عز وجل ، لغايات ومصالح وفوائد ، تكاد لا تحصى ولكن لعل أهمها وأبرزها ، التذكر . إذ لولا التذكر ، والذكر ، والذاكرة ، لما صمد علم ولا فقه ولا دين عند الإنسان ، ولضلّ الإنسان حتى عن نفسه ، وعمن وعمّا حوله ، فضلاً عن بقية الضلالات .

من هنا أصبحت الآيات الثلاث في الدليل رقم (5) أبلغ حجة ، وحقيقة النشأة الأولى

قبل نشأتنا في هذه الحياة الدنيا ، أكثر إشراقاً .

فمن يدعي في معنى قوله عز وجل :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ } (1) .

(1) سورة القصص ، الآية 52 .

والكلام عن القرآن المجيد ، والخبر فيه تعميم ، من يدعي أن المقصود بذلك هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؟ وهل يزعم عاقل تدبر القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي ، أن أهل الكتاب هؤلاء ، آمنوا بالقرآن المجيد ؟ إذن ما قضية جدال اليهود ومعاندتهم وكذبهم ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ثم مساعدتهم لأهل الشرك ومؤامراتهم ، وبعد ذلك كله كيدهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وللمسلمين .

وما قضية حرب المسلمين لبني القينقاع وبني النضير وبني قريظة واجتياح حصونهم . ثم النصارى ووفدهم الرئيسي وجداهم الذي تعنتوا فيه حتى كانت قضية المباهلة . وبعد ذلك كله كيف يقال إن هذه الآية الكريمة تعني اليهود والنصارى وإنهم آمنوا بالقرآن الكريم ؟ إذن هم أسلموا وهذا خلاف الواقع التاريخي والواقع الراهن . وكذلك قوله تبارك وتعالى في الآية الثانية :

{ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ }

(1).

وهذا المعنى قطعاً لا ينطبق لا على اليهود ولا على النصارى ، ولا على أي أهل كتاب غيرهم في حياتنا الدنيا هذه . ونعود لنلفت النظر إلى أن الكلام فيه تعميم . ثم الآية الثالثة وهي الأعجب ، قوله عز وجل :

{ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا } ...

أي اليهود والنصارى ، حسب التفسير التقليدي ، وعلى ذلك فإن

(1) سورة القصص ، الآية 53 .

الكافر الأصلي يؤتى أجره مرة واحدة ، إذا هو صدّق بالقرآن وأسلم ، وهو لا يملك أية مقومات دينية أو إيمانية ، بينما الذي يملك مقومات ، وهو المفروض به أن يسارع إلى اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وما أنزل الله عليه من القرآن ، نراه يؤجر مرة زائدة على الكافر الأصلي . وهذا خلاف منطق العقل السوي . وشرع الله عزّ وجل ، فصّل كفاية للعقول السوية ، فإذا هذا يخالف شرع الله تبارك وتعالى .

إذن ما معنى هذه الآيات الثلاث الكريمة ؟

لم يبق هناك مجال لأي افتراض . إذن الحقيقة هي نشأة أولى قبل نشأة الحياة الدنيا هذه ، والمقصود بالآيات الثلاث ، أولئك الذين أوتوا الكتاب في النشأة السابقة فصّدّقوا به وآمنوا ، ثم صدّقوا بالقرآن الكريم وآمنوا ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، والحمد لله رب العالمين .

أما النصوص الثلاثة التي كنت وعدت بها في مطلع هذا البحث فهي :

* في (دعاء الصباح) لأمير المؤمنين قوله عليه السلام ، مصلياً على محمد وآل محمد :

صلّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل ، والماسك من أسبابك بجبل الشرف الأطول ، والناصر الحسب في ذروة الكاهل الأعبل ، والثابت القدم على زحاليها في الزمن الأول

...

* (دعاء عرفه) للإمام الحسين عليه السلام ، وهو من الأدعية الطوال ، وشهرته عانده لكونه كنز لا يثمن ، من شفيف المعاني ، وحرارة التوجه ، وصدق التبتل وصفاء العبرة ، ورقة النبرة ، إلى معان يشعر معها الإنسان المؤمن ، بمدى حبه العظيم لخالقه العظيم عز شأنه وجلت قدرته ، وبشوق إلى رحمة الله ونعيمه تصغر معه هذه الأرض ، حتى لتغدو لعباد الله الأحرار ، سجنًا مُحصّناً ، مُملًا خانقاً يحنون فيه لفك القيد والانعقاد .

وفي هذا الدعاء ، دليل على المطلب الذي نعالجه منذ بداية البحث ، وهو قول الإمام الحسين

عليه السلام :

... لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسرتني ، وفيه أنشأتني ومن قبل ذلك رأفت بي بجميل صنعك وسوايغ نعمك ، فابتدعت خلقي من منيّ يمني ، وأسكنتني في ظلمات ثلاث من لحم ودم وجلد ، لم تُشهدني خلقي ، ولم تجعل لي شيئاً من أمري ، ثم أخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تاماً سوياً ، وحفظتني في المههد صبيّاً ...

* أما النص الثالث للإمام زين العابدين عليه السلام ، فهو أيضاً (دعاء عرفه) الخاص به ، وهو الإمام السجاد ، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، عليهم السلام ، من دوحه طيبة زكية طاهرة مطهرة ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . وهذا الدعاء في الصحيفة السجادية ، التي ما زالت تكتب فيها الشروح والتعليقات ، وهي على كثرتها ، لم تف بعد ببعض فضل الله تبارك وتعالى على العباد فيها .

والدليل الذي نريد ، هو قول الإمام السجاد عليه السلام :

. اللهم وأنا عبدك الذي أنعمت عليه قبل خلقك له ، وبعد خلقك إياه ، فجعلته ممن هديته لدينك ...

ونحن لم نعلق على النصوص الثلاثة لوضوح المطلب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(6)

الدماغ

علم العقل وعلم النفس

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } (الإسراء : 70) .

الخلايا العصبية أو مفاعل النشاط البشري

في تحقيق عن الدماغ تحت عنوان " رحلة العلماء في كشف أسرار الدماغ والعقل " ورد فيه : " ولكن الأساس في ذلك هو (خلية عصبية) تستطيع أن تتخاطب مع أنواعها بلغتها الخاصة ، ولغة هذه النبضات الكترونية ، تسري في داخل الكائنات الحية ، دون أن تشعر بسرطانها . وبهذه اللغة الغريبة التي تسجلها أجهزتها الإلكترونية الحساسة على هيئة خطوط ترتفع وتنخفض ، يكون التخاطب والتفاهم ، بين هذا المجتمع الخلوي العظيم ، الذي تضمه أجسام الكائنات الحية " .

" إن " الخلية العصبية " واحدة في جميع الكائنات الحية " .

" إن أعصاب الدماغ تطلق مادة قاذحة عند المحور " .

" عدد خلايا الدماغ 12 مليون خلية هي بمثابة 12 مليون بطارية " (*) .

نستنتج ، أولاً : ما هي هذه اللغة التي تتخاطب بها الخلايا العصبية ، بثاً وتلقياً ، وشعوراً وإحساساً ، وتفكيراً وتخيلاً ، ونوماً ويقظة ، ونشاطاً وهدوءاً و ... إلى ما لا يمكن حصره من نشاطات الإنسان ولو بموسوعات ، ما هي هذه اللغة الثرية البسيطة على تعقيدها ، الواسعة التي تكاد تسع العالم ،

(*) العربي . العدد 269 أبريل 1981 .

ومن وضع رموزها وشيفرتها ، منذ دبت الحياة على هذا الكوكب . هذه اللغة التي تستوعب كل

اللغات ولكن كل اللغات الأرضية لا تستوعبها ولا تفهمها :

{ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. } (1) . صدق الله العظيم .

ثانياً : ما دامت الخلية واحدة في جميع الكائنات الحية ، فلماذا لم يكن الفيل والجمل ، أو الشمبانزي أو الأورانج من القرود العليا ، هي صاحبة الحضارة المسلطة على الإنسان ، وهي التي تقود السيارة والطيارة والباخرة ، وتنظم الشعر ، وترتل الكتب المقدسة ؟ وما دام الإنسان عينه لم يخلق هو دماغه ولا خلاياه ، ولا أدمغة غيره ولا خلاياها من الكائنات الحية ، وهو كذلك لم يضع لغة هذه الخلايا ولا يفهم لغتها الباطنية ولا أسرارها منذ وجد وحتى الآن ؟ فمن ذا الذي سوّده على الأرض والفضاء والبحار وبالتالي على الكائنات الحية ، من ذا الذي سخر له ما في الأرض وما في السماء جميعاً منه ، ومن أعطاه هذه القدرات الهائلة التي بنى بها المجتمعات والحضارات وتجول في أجواء الكرة السماوية وغزا القمر وراود الكواكب الدوّارة ، يستكشفها وقد يهبط عليها يوماً ما ، وهو ما زال يطلق مركباته الفضائية ، يرصد كوكبنا الأرض من جميع جهاته كما يرصد الشمس والأقمار والمجرات . من جعل هذا الإنسان سيداً ومكّنه على هذا الكوكب في وقت ما زال فيه عاجزاً عن فهم لغة خلاياه العصبية وغير العصبية حيث تحافظ الأولى (العصبية) على عددها (14 مليار خلية عند الإنسان : دماغه وجملة جهازه العصبي) يكتمل عددها قبل الولادة بأربعة أشهر بدون أي تغيير أو نقص أو تكاثر (*) ، أما غير العصبية ، فتتغير وتنشط ، ويموت البدن كله بموتها كل عشر سنوات ، ليحل محله بدن جديد .

(1) سورة لقمان ، الآية 11 .

(*) كتاب (الطب محراب العلوم) للدكتور خالد جلي .

الادراك بين النوع والدرجة

في المعركة العلمية التي ما زالت قائمة بين الدينين الذين يقولون إن الإنسان خلق رأساً خلقاً مستقلاً عن بقية المخلوقات لا سيما عن الحيوان ، وبين أصحاب النظريات التي تعتبره تحول وتطور عن القردة ، أقول في هذه المعركة كان للإدراك الحيز الأكبر والأهم في مجالي المقارنة والاستنتاج .

واستدل أصحاب نظرية النشوء والتطور على أن الإنسان تحول من القرد بعدة أمور أبرزها تشابه القرد مع الإنسان من حيث الفهم والإدراك ، حيث يقولون إن إدراك القردة العليا وتصرفاتها الواعية تفوق جميع الحيوانات الأخرى ، وأنها قريبة في ذلك من الإنسان وأن الإنسان لا يفوقها إلا في الدرجة .

يقول الدكتور مقداد يالجن (*) : " والقردة الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغاً ، ومعدل وزنه المتوسط فيها 360 غراماً وغاية ما بلغه في الأورانج 420 غراماً ويعدون ذلك من الشواذ " .

ثم يذكر يالجن ميزات كثيرة للإدراك عند الإنسان ليست موجودة لدى القردة العليا ، وأظهر هذه الميزات ، الحقيقة الدينية ، يقول : " من هنا صدق الذين قالوا أن الدين نشأ مع نشأة الإنسان ، ووجد مع وجوده ، لأن الشعور الديني والتفكير الديني ، ظاهرة لواقع مخلوق في الإنسان ، ومن هنا لا نجد أية ظاهرة للتدين لدى أي كائن حيواني غير الإنسان ، ولهذا كان التدين من المميزات الخاصة للإنسان .

وهكذا يحاول يالجن أن يثبت برودده واستدلالاته أن الفارق بين الإنسان وبين الحيوانات بشكل عام والقردة بشكل خاص هو فارق بالنوع وليس بالدرجة (*) .

(*) مجلة الهادي . السنة الخامسة ، العدد الرابع .

(*) نفس المصدر .

في الحقيقة إن رأي يَأْجِزُ هو نصف الحقيقة ، والحقيقة هي : صحيح أنه فارق بالنوع في أصل الخلقة ولكن هذا الأصل ينتكس في قطاعات كبيرة من البشر فيصبح فارقاً بالدرجة، وتفصيل ذلك فيما يلي :

هل وزن الدماغ عند الإنسان دليل على سلامة تفكيره ؟

قبل أن نجيب على السؤال ، لا بدَّ من التنبيه ، إلى أننا عندما نتكلم عن وزن الدماغ والفوارق فيه بين الإنسان والحيوانات ، فإنما نعني دائماً الوزن النسبي ، أي المتناسب مع أوزان الأبدان (فالفيل مثلاً يزن دماغه ثلاثة أضعاف وزن دماغ الإنسان ، والحوت الكبير يزن دماغه خمسة أضعاف دماغ الإنسان .) ولكن النسبة ما بين وزن الكائن ووزن دماغه هي أرقى وأكبر شيء عند الإنسان فقط ، حيث تعادل النسبة تقريباً 2,73 % بينما هي عند الحيوانات القاضمة 0,2 %⁽¹⁾.

وهكذا على صعيد النوع الإنساني ، فقد يكون وزن دماغ إنسان نحيل بالنسبة لجسمه، هو أرجح وزناً من دماغ إنسان ضخيم أو يعادله أو تنعكس القضية ، فالأمر متعلق بأمور متداخلة بين النشأة الأولى والنشأة الثانية .

إلا أن الأهم في الموضوع ، هو أن رجحان الوزن ، وإن كان دليلاً على السعة ، إلا أنه ليس دليلاً على العقل المؤمن الفعال ولا على سلامة التفكير واتباع الحق .

ولتفصيل ذلك ، فإنه ما من شك أن لفارق الوزن بين دماغ إنسان ودماغ إنسان آخر دلالة أكيدة على الفارق بالطاقة والكفاءة ، والقدرة على الإنتاج والفاعلية ، ولكن يتضح لنا من القرآن المجيد ، أنه مع كل رجحان ، تكون هناك زيادة في التكاليف وحمل المسؤولية قوله عز وجل :

(1) (الطب محراب العلوم) للدكتور الجلبي .

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } (1) .

وقوله تعالى :

{ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } (2) .

وقد ضرب الله مثلاً على سعة وأوزان الأدمغة وأصحابها ، ومقادير ما تنتج ونوعية ما تنتج ، وما ينفع من نتاجها وما يضر ، والمحق منها والمبطل ، والسقيم منها والصحيح بقوله عز شأنه :

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } (3) .

وفي الآية التي تليها ينقلنا تبارك وتعالى من روعة المثل البليغ وجمال رموزه ، إلى ما يترتب على هذا المثل من واقع الحال وخطر المسؤولية ، بسبب ما تحمله هذه الأدمغة من حريات عامة وحرية خاصة ، هي حرية الاختيار ، وبخصوص انقيادها للعقل المهتدي بالله ، أو انقيادها لهوى النفس وأهواء الآخرين وبكيفية تفاعلها مع ما تحمل ، وأيضاً بخصوص ما تترك من آثار .. ونتيجة كل ذلك .. بقوله سبحانه :

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } (4) .

ثم هذا النص المدهش ، في كتاب الله الكريم ، وفيه حوار بين

(1) سورة البقرة ، الآية 286 .

(2) سورة التوبة ، الآية 105 .

(3) سورة الرعد ، الآية 17 .

(4) سورة الرعد ، الآية 18 .

التابعين الضالين ويسميهم الله (المستضعفين) ، وبين الذين ركبوا رؤوسهم عناداً وبهيمية من أصحاب الأدمغة الوازنة ، ويسميهم الله (المستكبرين) يقول عز شأنه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا أَخْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (1) .

الإنسان ليس أفضل خلق الله :

قوله عز وجل :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } (2) .

فيستفاد من هذه الآية الكريمة أن الإنسان ليس هو أفضل مخلوق في خلق الله ، ومن الأدلة على ذلك ، قوله عز وجل مخاطباً إبليس لعنه الله عندما امتنع عن السجود لله سبحانه ، باتجاه آدم ، بعدما أمره الله بهذا الاتجاه :

{ .. اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ } (3) .

إذ إن (العالين) خلقٌ لم يدخل في الملائكة الذين أمرهم الله

(1) سورة سبأ ، الآيات (31 . 32 . 33) .

(2) سورة الإسراء ، الآية 70 .

(3) سورة ص ، الآية 75 .

بالسجود لآدم عليه السلام .

يبقى أن الخلق الكثير الذي فضل الله بني آدم عليه ، هو المدرج في الآية الكريمة :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ .. } (1).

وقوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } (2).

مع الالتفات إلى لفظة (ما) في الآيتين ، حيث تستعمل في اللغة عامة لأصناف

الحيوان وللأشياء .

أدمغتهم كبيرة ولكنهم مجرمون :

أما ذوا الأدمغة الكبيرة ، الذين ضلوا وأضلوا ، فمن شأنهم على اختلاف درجاتهم وحقول نشاطهم ، أن يبرزوا وينشهروا ، ويتصدروا المواقع في المجتمعات والأمم ، ويكون لهم من ذوي الأدمغة الأدنى وزناً ، أو من ذوي النفوس الضعيفة ، أتباع وأتباع ، كان فرضاً عليهم وبالحد الأدنى من التفكير السليم ، أن يتبعوا أولي الألباب من الأنبياء والأولياء والصديقين ، وقد أوجب الله عليهم ذلك ويسرهم لهم إلى قيام الساعة ، أما وقد هانوا وانقادوا لذوي الأدمغة الكبيرة الشاردة والنفوس المجرمة بين الحاد وعلمنة ونرجسية ، أو قوة مال وجاهلية في شتى نشاطات الحياة من سياسة وعلم ظني ، وشعر وأدب وفن ، وأخلاق ، كل ذلك مما تمارسه أبالسة الأقلام وأبالسة الإعلام ، فسيكون لهم مصير لا تنفع معه ندامة : والله عز وجل يصور مصيرهم بقوله :

{ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ،

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } (3).

(1) سورة الجاثية ، الآية 13 .

(2) سورة لقمان ، الآية 20 .

(3) سورة الأحزاب ، الآيتان 66 و 67 .

وهكذا الإنسان . الإنسان الذي سخرت له مُقَدَّرَاتِ السماوات والأرض ، ودماغ الإنسان ،

هذه الميزة الكبرى والآية الكبرى . فمن حيث الخصوص كل دماغ يكون لصاحبه إما الخلاص وإما الكارثة ما دام لا يعقل به كما ينبغي له ، ومن حيث العموم فإن الذين يقودون المجتمعات إما أن يكونوا سبباً في خلاص مجتمعاتهم وإما سبباً في كوارثها . ويهون الأمر إذا انتهت الكوارث في حدود الأرض ، ولكن الأمر شديد الخطورة رهيب ، ما دام متعلقاً بحياة بعد الموت ، وبحياة طويلة .. طويلة .. خالدة ...

وأنت إما أن تكون قائداً ، وإما أن تكون تابعاً .. وبحث التبعية عندي أهم في بلادنا هذه التي يكثر فيها الأتباع والأزلام والطبالون والزمارون . وما أكفر القادة . إلا من رحم ربك . وما أسفه الأتباع الإمعات ! ... فالعجب العجب ، من أناس يتبعون الكفرة والفجرة والظلمة من اللادينيين ، ويتخلون عن عباد الرحمن أهل اليقين أولي الألباب . ويقذفون بأنفسهم مختارين ، إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

الدماغ يزيد وينقص :

كما رأينا بخصوص المفاعل الذي هو المخ ، فإن الفارق التقريبي بين وزن دماغ الإنسان ومتوسط دماغ القردة العليا هو $1360 . 360 = 1000$ غراما لمصلحة الإنسان، أي بنسبة واحد عند القردة العليا إلى أربعة أمثال عند الإنسان المتوسط .

بشر تحولوا إلى قروود :

العجيب في أنصار نظرية النشوء والتطور ، أنهم انطلقوا من الإصرار على فكرة أن التحول يكون دائماً إلى الأرقى ، والحقيقة أنه ليس دائماً كذلك إذ يقابله . وهو تحويل وليس تحولاً . أن يكون أيضاً من الأرقى إلى الأدنى . والكون كله يديره ربه رب العالمين ، ويديره بنواميس ، أحدها هو هذا التحويل من الأدنى إلى الأرقى ومن الأرقى إلى الأدنى (يتضمنه ناموس

آخر هو ناموس الجزاء) أما الأمثلة عن التحول من الأدنى إلى الأرقى فقد اهتم بها اهتماماً

بالغاً أصحاب نظرية النشوء والتطور . فكفونا مؤونتها ، على أنهم رأوا بالعين الواحدة ، ولا نقول نصف الحقيقة ، لأن رؤيتهم بالأساس ظنية . وقد تبين لدى العلماء الذين لهم نفس الاختصاصات ، أن هذا الظن . دارون⁽¹⁾ ومدرسته . خاطيء . والقاعدة في علم المنطق : إن الانطلاق من نقطة خطأ ، وإن هي مرت بحيثيات صحيحة ، إلا أنها تنتهي إلى الخطأ ، إلى نتيجة خطأ .

أما التحويل من الأرقى إلى الأدنى ، فأمثلته كثيرة ، وهي أيضاً من أفواه أهل الاختصاص وتحقيقاتهم ، ويكفي هنا أن نورد بعضها ونوجز ، إذ الأمر يقتضي إذا أسهبنا ، تخصيص بحث مستقل ومستفيض ، في هذه النظرية المعاكسة التي نحن بصددها .

ففي المجال العلمي ، إن علماء النبات لديهم الكثير من الوقائع التي تثبت حالة التراجع في شتى أنواع النباتات ، إذا تركت بدون عناية في الاستنبات ، وإضافة إلى ذلك فإن أجيال النبات تختلف كلما بعدت عن الجيل الأول (السوي العملاق) حتى ليخرج منها المتناقضات بين عمالقة النبات وأقزامه ، من الفصيلة الواحدة ، وكذلك عند علماء التناسل ، وعلماء الوراثة ، فعندهم تقارير ودراسات مفصلة في مجالي التراجع والتقدم النوعيين . ثم أخيراً وليس آخراً ، في مجال الفلك والأجرام السماوية ، والحديث الحامي عن القانون الثاني للحرارة الديناميكية **Second law of thermo dynamics** ، وموجزه أن الحرارة تنتقل من وجود حراري ، إلى عدم

(1) داروين (Darwin) (1809 . 1882) عالم طبيعي إنكليزي أسس نظرية التطور التاريخي للعالم العضوي . له كتاب " أصل الأنواع .. " فصلّ فيه القضايا الأساسية لنظرية التطور . له كتاب " سلالة الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس " (1871) عرض فيه المبدأ الإنساني من الأسلاف الحيوانية (الموسوعة الفلسفية ص 175) .

حراري . وهذا معناه أن توهج النجوم يتراجع حتى الإنطفاء ، وحتى تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وبذلك تنعدم كفاءة عمل الكون ، وتنعدم معها كل مظاهر الحياة . فهل هذا

التراجع المتدرج من حيث الكفاءة ثم الانطفاء العام . طبعاً البحث في العالم المرئي في حال إيصال هذا القانون إلى غايته القصوى . هل هذا يعني سوى التحويل من الأرقى إلى الأدنى . وواجبة هنا ، وقفة تصحيحية ، فبعض العلماء ، ومعهم كثيرون ، يربطون قيام الساعة بهذه القاعدة العلمية ، وهم يقدرّون لهذا الأمر الذي فيه الإنطفاء والدمار الكوني . حسب تعبيرهم . ملايين السنين . وهذا ما يرده القرآن المجيد ، رداً دامغاً . وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . متبوعاً بفضل الله ، بتأييدات الكشوف الحديثة في كتاب الكون ، والبراهين العقلية . وخلاصة القول فيه أن علم الساعة غيب له مقدمات يظهرها الله سبحانه خاصة أوليائه ، ليظهرها بدورهم للناس في وقتها ، وقد سماها أشراطاً ، وهي إذا بدأت بالتحقق ، وجب على الناس الاستنفار توقعاً لتكاملها ومباغته الساعة تبعاً لهذه الأشرط . وواقع الحال أن النذر الأولى قد ظهرت بقوة ووضوح في هذا العقد الأخير من هذا القرن العشرين ، وهي راهنة جلية لكل من ألقى السمع وهو شهيد :

{ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا }⁽¹⁾ .

وسنفرد لها فصلاً خاصاً في هذا الكتاب ، إن شاء الله الحليم الكريم .
ثم عوداً على بدء فإن العقل الإسلامي يتلو في القرآن الكريم قوله تعالى :

(1) سورة الفرقان ، الآية 11 .

{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ }⁽¹⁾ .

هذا العقل يمر على المجلدات التي صنفت في نظرية (النشوء والتطور التي تقول إن

الإنسان كان قرداً) وأحدثت ثورة تشكيكية في أكثر من نصف العالم ولأكثر من مائة سنة وما زالت .. هذا العقل يمر بها موقناً بما آتاه الله سبحانه مطمئناً ، غير عابئ بلغوهم وتزويرهم للحقيقة ، ويرتل قول الله تعالى :

{ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا } (2).

ثم يتلو قول الله عز شأنه مخاطباً بني إسرائيل :

{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } (3).

وأيضاً :

{ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } (4)

وكذلك :

{ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } (5).

(1) سورة النحل ، الآية 89 .

(2) سورة الفرقان ، الآية 72 .

(3) سورة البقرة ، الآيتان 65 و 66 .

(4) سورة المائدة ، الآية 60 .

(5) سورة الأعراف ، الآية 166 .

من هنا من مضمون هذه الآيات الثلاث ، نجد أن الإنسان الواردة صفاته في هذه الآيات يحول من الأرقى إلى الأدنى ، من واقعه الإنساني إلى واقع آخر بهيمي ، يعني أن هذا الإنسان يخرج

من النوع ويدخل في الدرجة .

فمن المعاني الجليلة المتقدمة في الآيات الكريمة ، نستنتج حقيقة أن يخرج الإنسان من أصل النوع خروجاً اختيارياً يترتب عليه التحويل ونوع الجزاء :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا } (1) .

فمن قوله تعالى (ذكر ... فأعرض ...) نفهم أن خروج الإنسان الذي أعرض عن آيات الله ، يعني رفض أن يعقل ، وهو خروج اختياري عن أصل نوعه العاقل ، وإنما يترتب عليه أن يجعل الله تعالى ، على قلب الخارج المعرض ، كيناً وفي أذنيه وقراً . وبقية الآية الكريمة : { وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا } فيها الخطر الأكبر : يبدأ بالإعراض عن آيات الله تبارك وتعالى ، ثم يتدرج سفيراً في البهيمية إلى غير رجعة ، والعقل في هكذا حال يأخذ بالتراجع حاملاً معه النورانية ، حيث تظلم النفس في المقابل تدريجياً ، إلى أن تنقطع عن المدد الإلهي وتصبح مقفلة مثقلة بأرجاسها .

والواقع الملموس انطلاقاً من فكر التوحيد ، أن الناس فريقان : فريق كُفِرَ على درجات ، وفريق إيمانٍ على درجات .

والكلام عن العقل ، فيما كتبه أهل الفكر ، كثير ، ولأنه ظني وافتراضي فمعظمه مردود ، وعن فرضية أن الدماغ هو العقل ، أو أن الدماغ

(1) سورة الكهف ، الآية 57 .

وحده هو مركز العقل ، مردود كذلك ، وسنفتد ذلك بالحجة والبرهان في موضعه المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

أما الدماغ وكلية الجهاز العصبي في مجال التشريح ، فقد بذلوا فيه جهوداً رائعة ،

وكشفوا عن آيات مجيدة ، وحيث تشعبت فيه حقول الاختصاص ، ففي كل حقل نشطت مختبرات علمية ، وكتب مختلفة الأحجام تتلقف منها الموسوعات العلمية أهم ما فيها ، وسنذكر أيضاً في الموضوع المناسب إن شاء الله أحدث وأهم اكتشاف في مجال الغيبيات ، على يد جراح شهير مختص بجراحة الدماغ والكتلة العصبية .

أما ما يجب أن يقال ، هو أن كل فقرة علمية في هذه البحوث هي مدهشة مذهلة ، ليس عجبياً إذا أدركها الصخر الأصم ، أن يخر ساجداً لعظمة الله ، خاشعاً خاضعاً هاتفاً من أعماقه : أشهد أن لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله الخلاق العظيم ، والحمد لله حمداً لا ينقطع ، حمداً خالداً بخلوده ، وأن يتلو قول الله جلت قدرته :

{ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ }⁽¹⁾.

هذا مع خبر يكشف رائعة من روائع الخلق ، بخصوص الدماغ والجهاز العصبي أو في مجال الإنسان كله ظاهراً وباطناً ، ونفساً وبدناً فضلاً عن مجالات الأرض الدوارة ، والكواكب المسافرة أبداً في مداراتها كالمغازل الهائلة وعليها حضارات جميلة كريمة ، وعليها شقاء وبقاء في الشقاء .

وإذا كانت هذه الدهشة ، مع كل خبر يكشف عن سر أو لغز أو رقم يدخل بحسبان و { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ }⁽²⁾ . فكيف يكون الحال أمام كلية أسرار الدماغ والقلب ، وهذا أمير البدن ، وأكرم وأنبأ عضو فيه ، وذاك

(1) سورة لقمان ، الآية 11 .

(2) سورة الرحمن ، الآية 5 .

عرشه وعاصمته ورافد مؤسساته . كيف يكون الحال مع كشف الإنسان المتكامل ، روحاً وأنفساً في ذات واحدة ، وبدناً هو بيت النفس يظلم إذا أظلمت ويشرق إذا أشرقت ، ولا استقلال أبداً عن عناية الله وحكمته . هذا الإنسان الذي حمّله ربّه الأمانة جملة وتفصيلاً ،

وجعله كنز معارف وعلوم ، وحثه على سبر أعماق هذا الكون وأبعاده والإلمام بحقائقه وروائعه ، التي هي آثار عظمته سبحانه ، فاطر السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن رب العرش العظيم :

{ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } (1) صدق الله العظيم .

العبرة في كيفية استعمال الدماغ :

في الدماغ بصائر ، هكذا أثبت التشريح المتقدم الرائع . دائماً بفضل الله وبإذن الله . ففي كل خلية ذاكرة ذات فاعلية وإضاءة ونشاط عجيب . وهذه الذاكرات تعمل منفردة ومجموعة بتنسيق إلهي ، لم يستطع العلماء ومعهم الأجهزة الألكترونية ، أن يكتشفوا إلا جزءاً يسيراً من أسرارها ، ويقولون ما زال الدرب أمامنا طويلاً طويلاً .

وهذه الخلايا . البصائر ، إذا تركت على فطرتها متفتحة على بارئها سبحانه ، تتغذى بنعمته وتعاليمه طائعة وقيّة شاكرة ، رفع الله صاحبها درجة درجة حتى يؤتبه اليقين ، فيبلغ به ذروة الإنسانية ، حكمة وعلماً حقيقياً نافعاً ، وحضارة مؤيدة برضى الله مباركة ، أما بخصوص تساميه ، مرحلة مرحلة فالأن الإسلام درجات حدّها اليقين ، واليقين درجات ، حدّها أن يغدو الإنسان مصداقاً لقوله تعالى :

(1) سورة المؤمنون ، الآيات 84 . 89 .

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } (1)

أما تعاليمه في هذا المجال فهي كثيرة . منها قوله تعالى :

{ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } (2)

وقوله سبحانه :

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } (3)

وقوله عز وجل ، إشارة إلى ابتلاء الإنسان وامتحانه مرة بعد مرة لرفعه درجة درجة:

{ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. } (4)

أما إذا لُوِّثت هذه الخلايا بوحول المادية ، وبنزعات النفس الأمارة ، وبهلوسات الفكر المنفلت من ضوابط الجد والاعتدال ، ووقع الإنسان في الإفراط أو التفريط في مجال نيته واعتقاده وسلوكه ، أخذت هذه البصائر في خلايا الدماغ ، تخبو شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى درجة الإنطفاء .

وهكذا تعمى بصيرة الخلية ، بينما تبقى عاديةً نشاطاتها الفيزيولوجية بتعقيدها العجيبة، كما يبقى عادياً غذاؤها الذي هو أرقى نوع في السكر ، وهو المادة المعروفة بالكليكويز ، حيث لا تتقبل غيرها ، باعتبارها أكرم خلايا البدن ، وتحمل مسؤولية إدارته ، كما أراد لها ذلك مسبب الأسباب .

وينقص المساحة النظيفة ، المستنيرة في الخلايا ، يلحق النقص

(1) سورة الأحزاب ، الآية 39 . (2) سورة طه ، الآية 14 .

(2) سورة الحجر ، الآية 99 . (4) سورة البقرة ، الآية 124 .

بعمليات الضبط والربط ، ومن ثم القدرة على الذكر الحق والتذكر ، والتفكر في خلق السماوات والأرض ، ويصبح التفكير في درجات من الفوضى ، التي تُجهدُ صاحبها في محاولة تنظيمها ، ولا يلاحظها في أصحابها إلا المستنبرون . وقد يصل الأمر معها إلى أن تصبح

فوضى كاملة ، فتؤدي بالدماغ إما إلى الانفجار ، وإما إلى الإصابة ببعض أنواع السرطان حيث تتكاثر خلايا الدماغ بشكل فوضوي ، ثم تقع الكارثة .
ثم يأتي في الموضوع المناسب من هذا الكتاب إن شاء الله ، بحث تأثر هذه الخلايا إما بالعقل فتكون النجاة ، وإما بالنفس الأمارة فتكون الهلكة . وبذلك يتضح الأمر وينجلي أكثر فأكثر .

بين العقل والنفس والدماغ

إن لفظة (العقل) هي لفظة عربية مشتقة من مجرد الثلاثي (عقل) على دعوى أن الفعل المجرد هو أصل الإشتقاق ، أو هي مصدر مشتقتها حسب من يقول أن المصدر هو الأصل في الإشتقاق ، ولذلك سمي مصدراً . ومن معانيها في اللغة : فهم وفقه ، وربط وقيّد ، وهي معان متقاربة .

أما في القرآن الكريم الذي هو المعيار الأعلى في دراسة المعاني وقوالها ، فإن هذه اللفظة (العقل) لم ترد فيه إطلاقاً بصيغة المصدر أو الإسم ، وإنما وردت فقط بصيغة الأفعال المضارعة (تعقلون) 24 مرة و (يعقلون) 22 مرة ، و (نعقل) مرة واحدة في قوله تعالى :

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }⁽¹⁾ .

ومرة واحدة (يعقلها) في قوله تعالى :

{ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَّاسٍ لِّئَلَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }⁽²⁾ .

(1) سورة الملك ، الآية 10 .

(2) سورة العنكبوت ، الآية 43 .

ومرة واحدة بصيغة الفعل الماضي (عقلوه) في قوله تعالى :

{ .. يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ .. }⁽¹⁾ .

ومن مرادفاتهما ، فكَرَّ ، وَفَهَمَ ، وَدَرَى ، وجميعها كذلك لم ترد إلا بصيغة الفعل .

فمن هذه الصيغ الفعلية : عقل وفهم وفكر ودرى ، التي جاءت في القرآن الكريم مختصة بالإنسان ، فهمنا أن الله تبارك وتعالى هكذا شاءه يعقل ويفكر ويفهم ويدري ، وذلك بعد أن نفخ فيه من روحه سبحانه ، مستنتجين بالضرورة ، وربطاً بالنصوص ، أن الإنسان قبل أن ينفخ الله فيه من روحه ، لم يكن يعقل ولا يفهم ولا يفكر ولا يعلم ولا يدري .
فإذن إن ما نسميه نحن (العقل) إنما هو بالضرورة الروح التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله :

{ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ } (2) .
وقوله تبارك وتعالى :

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } (3) .
وخلاصة القول حول العقل والنفس والدماع ، إن الدماغ ليس هو العقل ، وإنما هو من المراكز الأساسية للعقل ، وهو مع القلب من (الألباب)

(1) سورة البقرة ، الآية 75 .

(2) سورة السجدة ، الآيات 6 . 9 .

(3) سورة الحجر ، الآيتان 28 . 29 .

المشار إليها في 16 . ست عشرة آية من القرآن الكريم ، اخترنا ثلاثة للإيجاز : قوله تعالى :

* { ..وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذَكِّرُوا الْأَلْبَابِ } (1) .

* { ..أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ } (2) .

* { هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (3) .

وبين الدماغ والقلب مشاركة فعلية في مجالات العقل والفكر والعواطف ، تترتب عليها المشاركة الفيزيولوجية المعروفة في علم التشريح . على أن معظم النشاطات سَنَنْسِبُهَا بعد قليل إلى الدماغ لأن الله عز وجل أراده هكذا : رأساً وقائداً للإنسان ، ومعه القلب في جميع ميادين النشاط البشري .

أما دليلنا القرآني على أن القلب هو من مراكز العقل أو الأعضاء المتفاعلة مع العقل ، وأن المعنى به هذا الذي بين الضلوع ، فقوله تعالى :

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } (4).

وقوله تعالى :

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا .. } (5) .

وآمل من القارئ أن يعتبر أن ما سينسب إلى الدماغ من علاقة بالعقل كذلك نسبتها إلى القلب ، وأهمها تقريرنا أن الدماغ يعقل فينجو بصاحبه ، أو لا يعقل فيهوي بصاحبه ، وكذلك القلب وبقية الجوارح .

(1) سورة إبراهيم ، الآية 52 . (2) سورة الزمر ، الآية 18 .

(3) سورة غافر ، الآية 54 . (4) سورة الحج ، الآية 46 . (5) سورة الأعراف ، الآية 179 .

العلاقات الوظيفية بين العقل والنفس والدماغ :

ولكن الدماغ هو (اللب) الأوسع نشاطاً ، أو هو المفاعل الأعلى خطراً في عالم الجواهر المادية . فهو مركز التبليغ والترجمة والتفسير ، إضافة إلى الإحساس والذاكرة ، والعواطف والقدرة على الحركة ، فإن ضاق عن العقل تحول إلى الآلية والغريزية بنسبة ما يضيق ، وبقيت له هذه الأمور كما هي للدماغ الإلكتروني أو المخلوقات الغريزية الراقية .

أما العقل ، فهو الروح المؤيد بعلم الفطرة ، السابقة على البدن ، ومن ميزاته إدراك الحقائق المجردة ، البسيطة والمركبة ، غير مستقل عن ربه تبارك وتعالى ، خالد ، يغضب

ويتأذى ، ولكنه لا يتعب ولا يتعذب ، تأخذ منه خلايا الدماغ توجيهاً وتعليماً وهداية حسب استعدادها ، يرجع إلى ربه ، والنفس هي التي تسعد أو تشقى ، ووظيفته دعوة النفس إلى خالقها الله الذي لا إله إلا هو ، ومقاضاتها بتعاليمه سبحانه مبيناً لها الحق من الباطل ، والمطلوب من السلوك في معراج العبادة ، موصلاً إياها إلى أعلى درجات اليقين والعلم . في حدود العقل الإنساني . والسعادة الحقيقية في الدارين . قول أحد العارفين : لو عرف الملوك سعادتنا لقاتلونا عليها بالسيوف . كل ذلك برموز تفهمها جميع لغات البشر ولهجاتهم ، هذه الرموز يقوم الدماغ بترجمتها بناء على ما عُلِّمَ ولقِّن ، ليقدّمها للنفس باللغة التي ترتاح إليها ، وذلك أثناء إلتزام النفس بكلية البدن والجهاز العصبي . أما إذا تحررت النفس ، فلا تعود بحاجة إلى الدماغ ، ولكنها تحتفظ بأدائه ، وتفهم لغة الرموز الكونية بدون ترجمة ، فضلاً عن إمكانية تعبيرها بأية لغة شاءت لم تكن تعلمتها في حال الإرتكان .

وإن العلاقة بين العقل والدماغ ، هي علاقة الطاقة الغيبية الموجهة لبرمجة مفاعلها الأرقى في جواهر المادة . والنفس هي التي تسبب انفتاح الدماغ على العقل أو انغلاقه دونه ، أو جعله في حالات بين الحالتين . يعني يكون هذا الواقع المتكيف ، رهن بمدى إقبال الإنسان على ربه ، أو

تباعده عنه جلت عظمته .

وفي حال تلبس النفس بكفر أو شرك أو استكبار ، أو الوقوع في هوى أو إثم ، ينشغل الدماغ والنفس بالحدث منصرفين عن العقل ، فتفقد النفس بذلك الهداية والسداد والرشاد ، وتحاول الإستئثار ضالة ظالمة بموقع القيادة ، مأذوناً لها بذلك تبعاً لاختيارها وتنكرها لولاية الله ورعايته ، فيتخلى عنها الله امتهاناً وإمهالاً وتحجيماً ، وليس إهمالاً أو تفويضاً ، وفيها قال سبحانه :

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ

خَابَ مَنْ دَسَّهَا { (1) .

ومن حيث رعايته سبحانه ، للأنفس البارة النقية المجاهدة ، وخذلانه للأنفس الجاحدة المعاندة البهيمية في الحياة الدنيا وعند الموت ، وحين الانتقال من محطة الأنفس ، هذه الأرض الدنيا إلى الأرض العليا على اختلاف درجاتها ، قوله تبارك وتعالى في الأبرار :

{ الَّذِينَ تَتَوَقَّأَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ .. } (2) .

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي

عِبَادِي ، وَادْخُلِي جَنَّتِي } (3) .

وقوله سبحانه في أهل الضلالة :

{ .. وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا

أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ

تَسْتَكْبِرُونَ } (4) .

(1) سورة الشمس ، الآيات 10.7 . (2) سورة النحل ، الآية 32 .

(3) سورة الفجر ، الآيات 27.28.29.30 .

(4) سورة الأنعام ، الآية 93 .

هنا يخطر سؤال مهم ، هو كيف يكون مستوى الإنسان الفكري والإنساني عامة ، إذا هو لم يقلع عن غيِّه ولم يعقل ؟ والجواب ، ولو أنه قد مر موزعاً خلال البحث ، إلا أنه ينبغي إيجازه بالقول : يكون شأنه كشأن حيوان راق متحضر ، متعلم ، أمثال الأنواع العليا من القردة ، إنما يميزه شكله الإنساني وذلاقة لسانه وقلمه ، وكثرة الأرقام التي يتعامل معها ، والمهارات التي يباشرها في شتى حقوله ، وكذلك حجم دماغه المناسب مع بدنه ، وقد تتراوح هذه الحالة بين التضييق في التعامل مع العقل ، مع رحمة الله وسمائه وأسماؤه ، وبين تجافي الإنسان وتباعده عنها ، ثم انقطاعه بشكل نهائي ، حيث لا يفلح بعد ذلك كيد في إذهاب غيظ . قوله تعالى :

{ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ
ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ } (1) .

للعقل تفتح أبواب الملكوت

علماء تحرروا بالعقل، فسجدوا لعزة الله ، فانفتحت لهم أبواب الملكوت:
في سلسلة عالم المعرفة ، التي تصدر في الكويت . صدر مترجماً للعربية ، كتاب " العلم
في منظوره جديد " تاريخ جمادى الآخرة 1409 هـ / شباط 1989 م أوجزوا مباحثه بما يلي
:

يدور البحث في الكتاب في شكل موازنة بين مقولات النظرية العلمية القديمة والنظرية
العلمية الجديدة ، وقد عرض المؤلفان . مؤلفا الكتاب : روبرت م . أغروس وجورج ن .
ستانسيو . للنظرية التي نشأت في ظلها النظرية العلمية القديمة التي اصطبغت بصبغة مادية كرد
فعل إزاء هيمنة الفلسفة المدرسية المسيحية على العقول ، والتي وصلت إلى حالة من التحجر
العقلي ، والتخبط الفكري ، وقد انتهت النظرية القديمة إلى الإلحاد

(1) سورة الحج ، الآية 15 .

والاستهتار بكل القيم الأخلاقية والروحية ، وفسرت السلوك تفسيراً غريباً فسيولوجياً .
إزاء هذه النظرية ظهرت ، في مطلع القرن العشرين ، نظرة علمية منافسة كان من ألمع
روادها أينشتاين ، وهايزنبرغ ، وبور ، وغيرهم ، وقد أجمعت آراء كبار علماء الفيزياء النووية
والكوزمولوجيا في هذا القرن على أن المادة ليست أزلية ، وأن الكون في تطوّر وتعدد مستمرين .
فدعوا إلى الإيمان بعقل أزلي الوجود ، يدبر هذا الكون ويرعى شؤونه .
ثم جاء جيل من العلماء المتخصصين في مبحث الأعصاب ، من أمثال شرنغتون ،
وأكلس ، وسبري ، فخلصوا . بعد بحوث مضنية . إلى أن الإنسان مكون من عنصرين
جوهريين : جسد فان روح باقية لا يناها الفناء ، وأن الإدراك والتفكير ليسا من صنع المادة،
بل يؤثران تأثيراً مباشراً في العمليات الفسيولوجية ذاتها .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ظهرت حركة جديدة في علم النفس ، اعترف روادها بالعقل ، ورفضوا تفسير السلوك البشري بلغة الدوافع والغرائز الحيوانية ، وآمنوا بدلاً من ذلك بالقيم الأخلاقية والجمالية ، والجوانب الروحية والفكرية والفلسفة .
صحيح أن هذا مهم ومهم جداً بالنسبة لهؤلاء العلماء وبالنسبة إلى أقوامهم . أقصد التوصل إلى أن الإنسان مكون من جسد فإن روح باقية . حسب تعبيرهم . لا يدركها الفناء ، وصحيح أن هذا يؤنسنا ويريحنا في مجال دعوتنا إياهم إلى الله وإلى التصديق بوحدانيته ، وبأنه الخالق ، وبأنه المدير والمدبر لهذا الكون ، آمنوا بذلك كله حين اكتشفوا جزئيات من عالم الجواهر الغيبية ، وبشكل ما زال نسبياً متردداً وخجولاً ، ولكن بعد أن باد من أقوامهم من باد جاحداً ، وهلك ملحداً ، وهم على بينة من أننا على حق ، وعلى بينة من علمائهم هؤلاء المهديين من أن النظريات والفلسفات المادية على باطل ، وليس غربهم فقط عانى من هذا الخسران المبين وإنما قطاعات

كبيرة من شرقنا مبهورة بالفقاع وبريق المادة ، هي أيضاً . نتيجة لانبهارها . وقعت في الخسران المبين :

{ .. وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ .. }⁽¹⁾ .

فبينما علماء الغرب ، في شغل شاغل بحثاً عن النفس ، بحثاً عن العقل ، بحثاً عن الروح ، علمهم يتوصلون عبر ذلك كله لوجود الخالق ، باذلين أعمارهم في هذه التحقيقات ومختبراتهم ، ترانا والله الحمد . عنيت علماء المسلمين . في عافية من الشك والتردد ، والإلحاد والشرك ، شغلنا الشاغل العلم العملي الذي يقيم جسراً بين الأرض والسماء ، سبباً بين الدنيا والآخرة .

علمنا الله تبارك وتعالى ، عبر قرآنه المجيد ، وآثار أنبيائه وأوليائه . وبقولنا ما علمنا إياه

وتمسكنا به عن يقين هو يقين الصديقين ، وقر علينا الله اللغو والخوض والتجريب ، فكلمنا ضج علماء الغرب في مجال النفس أو التربية أو الفلسفة أو التشريح أو الفلك أو الذرة أو الروح باكتشاف أو أكثر ، ترانا نبتسم هادئين ابتسامة المطمئن إلى ما علّمه علام الغيوب مقررين أن أمامهم الكثير ليتوصلوا إلى ما آتانا الله من فضله وأن أماننا الكثير ، في جميع درجاتنا ، ليتدرج كل من موقعه العلمي والعرفاني في معراج الإيمان وفهم التوحيد ، وصولاً إلى الإنسان الكامل الذي أرادته الله ، وأحب الله وأحبه الله سبحانه له الحمد .

ولفهم العلم الذي أعنيه ، والذي هو شغلنا الشاغل ، والذي هو العلم الأشرف بين سائر العلوم . على شرف الكثير منها . أعطي نبذة عن هذا العلم الذي هو علم التوحيد وفكرة عن أهله الذين هم أهل العرفان وأولياء الله الصالحين .

(1) سورة الأنفال ، الآية 42 .

كلمة في العقل في القلب

إن لفكر التوحيد عند أهل العرفان شرائط وضوابط ، يرفع الله تعالى بها وينسبها ، كلاً حسب جهاده ، وأهليته ، ويجعل له نوراً يمشي به في الناس ، ويؤتبه أسراراً من الذكر ، تقيه شر ما يُرى وما لا يُرى ، وتكون له عوناً على دنياه وكنوزاً من الباقيات الصالحات في دار الخلود .

وليقر في الأذهان أن التوحيد مسؤولية عظيمة ، وأنه أسمى معرفة يتشرف بها العقل البشري ، لذلك نلمح وبإيجاز إلى بعض الرموز الخاصة بركني الطهارة والصلاة .

ففي ركن الطهارة نرى معراجاً يبدأ بسر التخلية ، وسر سرّها التجريد ، وسرّها المستسر التنزيه ، والسرّ المُقنّع بالسرّ التنزيه من التنزيه والتقبيد .

أما الركن الثاني وهو الأعظم ، فهو محصور بالصلاة ، وسرّه التجليّة ، وسرّ سره التفريد ، وسره المستسر التوحيد ، وسره المُقنّع بالسرّ التنزيه عن التوحيد والتقبيد .

وهنا نفهم بعضاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله . الصلاة معراج المؤمن .
ولكل ذلك شروح تُطلب من مظاهرها ، وخاصة من أهل العرفان ، زاد الله بهم الأمة نفعاً وعرفاناً
. مع أهمية الإشارة إلى أنه يبقى عندهم من الأسرار ما لا يذاع . ومن هنا ، المعروف عن
الإمام زين العابدين عليه السلام أنه كان يقول (*) :
إني لأكتُم من علمي جواهره كي لا يرى الحقُّ ذو جهل فيفتتنا

(*) عن كتاب الحقايق في محاسن الأخلاق للفيض الكاشاني قدس سره أورد الأبيات كما ذكرناها، ولكن في كتاب
التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق للدكتور زكي مبارك أوردتها مسقطاً البيت الثاني هكذا :

يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتُم من علمي جواهره	كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين ووصى قبله الحسننا
يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وفي كتاب الحقايق للفيض الكاشاني (***) أورد ما يلي :

. وعن السجاد عليه السلام أنه قال : والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله ،
ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما ، فما ظنكم بسائر الخلق . إن علم العلماء
صعب مستصعب ، لا يحتمله (يتحمله خ) إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن
امتحن الله قلبه للإيمان . قال وإنما صار سلمان من العلماء لأنه امرؤ منا أهل البيت ، فلذلك
نسبته إلى العلماء .

. أراد عليه السلام (***) ، أهل التوحيد والعلم ، والمعرفة والحكمة لا أهل بيت
النسوان والصبيان ، والأهل والأولاد ، وفي الحديث النبوي أيضاً : " لو علم أبو ذر ما في
بطن سلمان من الحكمة لكفره وفي رواية لقتله " .

وفي أكثر من مصدر ، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، سأله كميل بن زياد عن الحقيقة ، فقال عليّ عليه السلام : مالك والحقيقة ؟ قال : أولست صاحب سرّك ؟ قال بلى ، ولكن يرشح عليك ما يطفح مني ، ثم أجابه عمّا سأل .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام :

. الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعا ، أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ... إلى أن قال : هاه ! إنّ ههنا لعلماً جمّاً . وأشار إلى صدره . لو أصبت له حملة .. بلى ، أصيب :

(**) ص 12 / دار الكتاب العربي .

(***) هذا التعليق للفيض الكاشاني في نفس السياق .

* لَقِنَا غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ..

* أو منقاداً حَمَلَةَ الحَقِّ ليس له بصيرة في أحنائه (*) ، ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهه . لا ذا ، ولا ذاك .

* أو منهوماً باللذة ، سلس القياد للشهوة ..

* أو مُغْرَى بالجمع والادخار ..

أقرب شبيهاً بهما الأنعام السائمة ، كذلك يموت العلم بموت حامله .

الادراك نسبي في مراتب الخلق ..

والعقل هو الأقدس

لا شك أن العقل هو الميزة الكبرى ، التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات إلا أن هذا لا يعني عدم الوعي أو الادراك النسبي لدى المخلوقات غير العاقلة من الجمادات ، إلى النبات

إلى الحيوان ، إلى الإنسان الذي سخر له الله ما في السماوات والأرض جميعاً منه سبحانه .
والحقيقة أنه ثبت بوضوح ، أن لا شيء في الكون المعروف ، له صفة الجمود الحقيقي ،
من الذرة إلى المجرة ، بل الأشياء كلها في حركة دائمة دائبة . حتى تماسك الحديد الظاهري ،
ليس هو كما نحسه ونفهمه ، بل هو ربما بالنسبة لمخلوق أرقى من الإنسان وأكثر إحاطة
وأبصر ، سيبدو مختلف المظهر والملمس ، وقد تظهر ذرات الحديد لهذا المخلوق الأعلى من
الإنسان كما تظهر لنا نحن ، عبر التلسكوب المجموعة الكوكبية في أبعادها عن بعضها في حركتها
المتصلة .

(*) هكذا في النسخ وفي نصح البلاغة : أو منقاداً لحملة الحق لا بصيرة له في أحنائه إلخ .. والظاهر ان المراد منهم هو
المقلد إذ لا بصيرة له في دقائق الحق وخفائيه ، لعدم علمه بالبرهان والحجة فينقدح الشك . (هذا التعليق في هذه الحاشية
للفيض الكاشاني) قدس سره .

المناظير المكبّرة والمقربّة العجيبة التي علّمها الله للعلماء ، تحكي حكايا من هذا
القبيل . ومن هنا أيضاً ، إن لهذه الأشياء نسبّ من الوعي ، درجتها فيها خالق كل شيء ،
الحيط بكل شيء ، الله العليّ القدير .

ومن الأهمية بمكان ، معرفة أن الإنسان مجرداً من العقل ، هو أرقى وعياً وإدراكاً
وغرائز ، من جميع الكائنات المحسوسة . أمّا بالعقل ، فهو أقدم من ذلك ، إذ إن بالعقل
صلته مع خالق الأكوان الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . فأرضنا
هذه التي نحن عليها ، والصخور التي فيها ، والجمادات (ظاهرياً) لها نسبة من الوعي . إلا
أن النبات أظهر حياة وإحساساً ، كما أن الحيوان درجته وميزاته على النبات واضحة .
وهكذا ترجح المعطيات التي عند الإنسان على الجميع ، وعياً وإدراكاً وغرائز ، وإرادة
ومنهجية . وكل ذلك بدون العقل فالعقل شيء أقدم من كل ذلك .

وهكذا ، فلم يعد عبثاً ، أو مجازاً ، فهما لقول الله عز وجل ، للسماوات والأرض :

{ .. ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (1) .

وقوله تعالى :

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ
وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (2).

ثم قوله عز وجل :

{ .. وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ
مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } (3).

-
- (1) سورة فصلت ، الآية 11 .
(2) سورة الإسراء ، الآية 44 .
(3) سورة يونس ، الآية 61 .

فإذا نستنتج من الآية الأولى أن الأشياء واعية والحقيقة أنه لا معنى لتسبيح الأشياء وهي لا تعي ما تفعل .

حتى الحياة ، هي مفهوم نسبي أيضاً ، فكما نفهم الحياة للإنسان وللحيوان والنبات بدلالة الحركة وردود الفعل ، فكذلك هي للجمادات (الظاهرية) وحتى لأرضنا هذه وللشمس والقمر وبقية الأجرام السماوية ، وذلك أيضاً في صريح قول الله عز وجل في الآية الثانية .

فكل هذه المجسمات ، من الإنسان إلى المجرات إلى بقية الكائنات الأرضية والسماوية ، مبنية على الذرة ، أو النظام الذري ، وأصبح معلوماً وبساطة أن في الذرة حركة لأجزائها لا تهدأ . و (الكتاب المبين) المذيلة به الآية الكريمة ، هو الحقائق الباطنية للأشياء ، فضلاً عن حقائقها الظاهرية ، ومن قبيل ذلك ، التركيب الذري للكون وأجزائه ، بما في ذلك أسرار الذرة وأسرار أجزائها .

وهكذا فإن جميع ما في هذا الكون متناغماً ، متناسقاً ، يسبح بحمد ربه ، واعياً مدركاً حقيقة لا مجازاً . إلا البشر فإنهم انقسموا فريقين : فريقاً للجنة وفريقاً للسعير .

إن درجات الوعي في الكائنات ، هي حقائق مرهونة بالألوان والأشكال . والجواهر هي معاني الحقائق ، وتفاعلها وتناجها وتوجهاتها ضمن النواميس الإلهية . ندرك أن فيها من وجوه الحكمة ، وإظهار سلطان العقل ، وقوة النفس إذا انقادت إليه وانعتقت به ، فتحررت من حبس ما تحت السماوات السبع إلى سدرة المنتهى ، مرقسة بنوره ، منغمرة برحمته ، على أنفاس مشتاق إلى الله الحبيب الأبدي ، في صعوده يخترق السماوات بصوته يقول : لا إله إلا الله .

بلى ، هكذا فإن من خصائص العقل ، أن تنفتح له السماوات بإذن الله الحبيب الأبدي . وهذا لا يقال عن النبات أو الحيوان أو الإنسان اللارباني ، فالنبات ليس له قدرة على فهم الحيوان ، أو الإفادة منه ،

والحيوان يفهم النبات ومنافع النبات فيقبل عليه وكذلك يتفاعل مع أبناء جنسه ، ولكن دائماً موجهاً بدافع الغرائز ، توجهاً لا يخالفه مختاراً أبداً ، وذلك لأنه ليس لديه الملكة التي تحدد له المسار والهدف ، يعني ليس عنده خيارات ، لأن ذلك يحتاج إلى نفس فيها قابلية أن تستلهم وتختار ، كم هي الحال عند إنسان النوع قبل أن يصبح ربانياً فإذا أصبح ربانياً ، تصنف درجة عليا دونها درجة إنسان النوع وما دونه نزولاً في سلم الخلق .

من مهمات العقل وحده إذن ، المنهجية التي تؤدي إلى الكمال ، الكمال الذي يتناسب مع العقل ، هذا الذي يسود ما دونه ، ويقود إلى الأبقى والأجمل .

{..وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ..} (1) لو كانوا يعلمون .

* * *

في عام 1975 صدر كتاب " لغز العقل " . لأحد كبار الاختصاصيين في الدماغ الدكتور Penfield ذكر فيه ما مؤداه أن العقل قوة غير مادية ، وجودها خارج الدماغ والبدن ، وأن الدماغ وظيفته تتعلق بآلية البدن ، بما فيها من الحس والحركة والمشاعر وغير ذلك . فهو إذن ، بزعمه ، اكتشف العقل ، ونحن إذ نقدر لبنفيلد جهاده في رحلة

الاستكشاف ، هذه الفائقة الروعة ، نشير إلى أمر بغاية الأهمية ، هو أن بنفيلد لم يكتشف العقل كما توهم ، وإنما هو اكتشف الطريق إلى العقل ، هو اكتشف النفس ، شأن كريستوف كولومبوس ، الذي في رحلته المجيدة أيضاً ، ظن أنه توصل إلى جزر الهند الشرقية ، بينما كانت الحقيقة ، أن ما توصل إليه هو قارة أميركا ، وفوق ذلك ترك للعالم ، أعظم شاهد عملي على كروية الأرض .

ويبدو أن أبرز الأسباب التي ساقته بنفيلد إلى البحث عن العقل وليس عن النفس أو عن كليهما ، ثلاثة : أولاً ، اختصاصه وتعامله مع الدماغ

(1)سورة التوبة ، الآية 72

الذي كان يعني له العقل ، كما صرح هو شخصياً . وثانياً ، عدم إدراكه العلاقة الغيبية ، بين ماهية مفترضة للعقل ، وبين ماهية النفس ، وثالثاً ، أنه ليست لديه فكرة مسبقة عن عدد الأنفس في الذات الواحدة ولا عن خصائص هذه الأنفس ، ودرجة كل منها في مراتب خلق الله عز شأنه ، كما عرفناها من المشاهدة ، وتبعاً لذلك فهمناها من كتاب الله المجيد والأحاديث القدسية .

ذات الإنسان ثلاثية الماهية :

من هنا ، فإنه قد ثبت لنا بفضل من الله تبارك وتعالى أن لذات الإنسان ثلاث أنفس ، بينما هي أربع للرسل والأنبياء والأولياء .

أما الثلاث فهي : النامية المادية ، والحسية البهيمية ، والملهمة فجورها وتقواها .

وأما الرابعة التي هي للرسل والأنبياء والأولياء إضافة لهذه الثلاث فهي النورانية الملهمة .

1 - فالنباتية المادية . هي البدن بحركاته العضوية ، الداخلية والخارجية . ولها خاصية التنامي

فالتناهي إلى الضعف ، وماهيتها هي المقصودة بقوله تبارك وتعالى :

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَوَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَآلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (1) .

2 - والحسية البهيمية ، هي الجهاز العصبي ، من الدماغ إلى النخاع الشوكي إلى أدق تشعباته العصبية في جسم الإنسان . وقد قلنا عن الدماغ إنه المفاعل الأعلى خطراً في جواهر المادة ، وأنه هو مركز

(1) سورة غافر ، الآية 67 .

التبليغ والترجمة ، والتفسير ، إضافة إلى الإحساس . سيما الحواس الخمس . والذاكرة والعواطف المتضادة .

3 - والملهمة فجورها وتقواها ، هي حقيقة الإنسان ، وجوهره الباقي ، ووجهه الذي لا يفنى ، المقصود بقوله تعالى :

{ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. } (1) .

ويقوله تعالى :

{ فَأَقِّمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. } (2) .

وهي التي ترى في المنام ، مما يعطي فكرة عن ماهيتها ، ودرجاتها وحالاتها في رحلة الإنسان وعمره على هذا الكوكب . وذلك بتوفيق من الله سبحانه ليرى الإنسان نفسه في أية درجة وأي حال من الأحوال هي عليه ، ويشاهدها أولياء الله في يقظتهم على حقيقتها في معراج صلواتهم وعبادتهم .

كما يشاهدون الحقيقة المجردة للبدن بلبوس العبادة رمز الطهارة والعفة والحشمة وكما يشاهدون الحقيقة المجردة للجهاز العصبي بالصورة الآدمية ، وإذا كان أحدهم من الرسل والأنبياء أو الأولياء ، يشاهد فيها النفس الرابعة: نوراً غير الأنوار المعروفة في الأرض ، يميل إلى

الزرقة التي كفيروز شفيف مذاب لا يمس الأرض ، بشكل إهليلجي وحجم قمر بدر أزرق مداف في غلالة سحابة ، أكبر قليلاً من شال حرير . هي من سدرة المنتهى ، بما بعث الله الأنبياء وعلمهم الأشياء ، واصطفى سبحانه من عباده من اصطفى ، قبل ولادتهم في هذه الأرض ، بين رسول ونبي وولي . أهبط نفوسهم من عليين ، وإلى عليين يعيدهم بأرقام معدة سلفاً ودرجات إلى قيام الساعة . وهذا من معاني قوله سبحانه :

(1) سورة القصص ، الآية 88 .

(2) سورة الروم ، الآية 30 .

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَا . كِتَابٌ مَّرْقُومٌ }⁽¹⁾ .

{ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }

ثم إن لكل إنسان بالضرورة نفس فلكية نورانية ، ترمز إلى درجة الإنسان ومقامه ، وهي قابلة وليست فاعلة ، بحيث تنعكس عليها حالة الإنسان ، فهي جرمه الفلكي الذي تبعاً لسلوك صاحبه ، إما أن ينكدر وينحرف وفي النهاية يلزم أحدهما الآخر . وإما أن يوقن فيصفو ويغدو نيراً جوهره ، ثم هو وصاحبه يتلازمان ويغدوان كنجم متألئء نوره ، يرسل ومعه سائق وشهيد ، في مسار مستقيم ، إلى سعادة أبدية ، حيث رضى الله ورضوانه ، بلى قوله تعالى :

{ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ }⁽²⁾ .

هكذا كلمح بالبصر ، تصعد الأنفس الأرضية الكلية ، منفصلة عن تلك النباتية المادية . حيث بعد ، ستعود إلى مادتها الأصلية⁽³⁾ . وبثياب الشهرة والشكل الآدمي ، لتزوج أنفسها الفلكية . التي بها ، إما أن تأتي يوماً عبوساً قمطيراً ، وتهوي شقية في سخط الله وجحيمه . وإما بها تصعد وتسعد وتطير مخلدة ، في رحمة الله ونعيمه ، ناجية من عبوس ذلك اليوم

(1) سورة المطففين ، الآيتان 19 و 20 .

(2) سورة التكوير ، الآية 7 .

(3) { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ } (الأنبياء/104) . { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا } (الأنعام / 2) : فيما يسمى بجنة آدم النوع وهو أجل مشروط غير محدد . فعصى آدم ربه فاهبطه ، وبقيت الآية : " وأجل مسمى عنده " وهو الأجل المحدد المؤقت المتعلق بقيامة السماوات والأرض : { مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى } (الأحقاف /3) .

{ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ، مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا . قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا } (1) .

(1) سورة الإنسان ، الآيات 11 . 22 .

(7)

حقيقة الانسان هي نفسه

والبدن عنصر ثانوي

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ }

(الرعد / 33)

حقيقة الانسان هي نفسه والبدن عنصر ثانوي

إنّ اتحاد الأنفس الثلاث مع البدن ، مشكّلةً معه جسماً واحداً مركباً هو الإنسان
النوع .
هو أشبه ما يكون بعنصر الماء المركب في الحقيقة من عنصري الأوكسجين والهيدروجين .

وكما ينفصل الأوكسجين عن الهيدروجين بفعل تيار كهربائي ، كذلك تنفصل النفس عن البدن ، وينسب متفاوتة ، تحت تأثير الموت أو النوم ، أو مادة مبنّجة ، أو ما شابه .
إن حقيقة الإنسان هي نفسه دون بدنه ، أو ضمن بدنه مركبة معه . ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يخاطبها أو يخبر عنها وهي منفصلة عن البدن يوم القيامة والحساب ، بصيغتي المؤنث والمذكر في ذات الوقت ، قوله تعالى :

{ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، بَلَىٰ قَدْ جَاءتَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (1) .

(1) سورة الزمر ، الآيات 56 . 59 .

نفسا البدن والجهاز العصبي : تُعاقبان وتُعافيان :

وكما أن النفسَ المخيرةَ الملهمّةَ الباقيةَ ، هي التي تسعد أو تشقى ، في الدنيا مؤقتاً ، وفي الآخرة مؤبداً ، كذلك . وإنما في الحياة الدنيا فقط . تعاقب نفس الجهاز العصبي (الدماغ ومتفرعاته) بإلحاق أذى جزئي أو كلي فيها أو آلام مختلفة (كالشلل ومشتقاته مما قد يصيب الوجه من النواء ، وما شابه ، وكذلك ما يسميه الطب عندما يعجز عن تشخيص الداء " عصبي " لجهله هذه الحقائق) .

وكذلك تُعاقب نفس البدن ، بإيقاع إصابة ، أو خلل ، في عضو أو أكثر من أعضائه ، بشكل دائم ، أو متكرر ، أو عارض .

من أسباب الإخلالات التي تسبب الأوجاع في مكان ما من البدن ، مثلاً ، ما يكون بهدف وقاية الإنسان أو على سبيل تعليمه . حيث ينبّه الإنسان بوجع ما ، فإذا لجأ لأيّ شيء من دون الله ، معتبراً هذا الشيء كافياً لشفائه ، وقع في الشرك ، وربما فيما لا تحمد عقباه من الوجع . كذلك إذا وقع في رَوْعِه مثلاً أن سبب هذا الوجع أو هذا الخلل برد أو حر أو ما شابه من الأسباب ، معتقداً أنها منقطعة عن مسبب الأسباب الذي هو الله سبحانه ، وقع كذلك في الشرك وفيما لا تحمد عقباه من مشاكل المرض الذي يبدأ ابتلاءً ويصبح مع

الشرك أو الكفر ، حقيقة .

وقد يصاب الإنسان بوجع ما ، للتذكير بتقصير ما ، كنسيان فريضة ، أو تكليف بمستوى الفريضة . أو الإخلال بفريضة ما أو تكليف ما ، كعدم قراءة القرآن ، أو عدم قراءة الدعاء ، أو كقراءة القرآن وعدم تدبر معانيه ، وهكذا ...

أما الثواب فنقيض كل الذي ذكرنا من العقوبات لكلا النفسين العصبية والبدنية ، الثواب بالعافية ، التي معها السعادة وإشراقة هاتين النفسين انسجاماً مع الثالثة الأصيلية ، تسامياً واقتراباً هنيئاً من رضاه ، ثم رضوانه سبحانه عز شأنه وتبارك وتعالى ، وذلك كذلك ، إما بشكل عارض أو متكرر أو دائم .

وفي هذا المجال كذلك ، مجال الثواب ، قد تحصل في بعض الحالات إفرزات مختلفة من البدن ، عن طريق الأنف أو الفم أو العين أو الأذن أو الجلد ، أو أي مكان آخر ، فإنما يكون ذلك استكمالاً لتطهير البدن وتنقيته من كل شائبة . هذا مع الإيمان والتوحيد ، أما مع خلاف ذلك ، فأعراض المرض أو ديمومته .

هل العلاج مشروع ؟

أما بخصوص الطب ، فهو إما وقائي وإما علاجي ، وكلاهما مشروع ، وإنما الوقاية أشرف من العلاج .

ثم إن العلاج درجات أو حالات ، فهو صحيح أنه غالباً . وليس دائماً . يسكن وجعاً ، أو يبرىء مرضاً ، أو يصلح خللاً ، على المستويين النفسيين : البدني والعصبي ، ولكنه مع كل فائدة ، يفوّت مقابله مصلحة أفضل منها . فمع العلاج الشافي : إذا كان الأمر عقوبة كتبت على صاحبها مؤجلة . وإذا كان تعليمياً ، خسر العلم الأنفع والأسمى ، وإذا كان الوجع أو المرض تطهيراً وتركيبياً ، خسر درجة القرب من الرحمن الرحيم ، وهي الأمدح في حساب الخسائر ، وإذا كان تذكيراً بفريضة أو تكليف ، فاته الأجر ، وحلّ محله تراكم الآثام .

وعلى كل حال ، فإن العلاج في جميع حالاته وأشكاله ومستجداته ، مضافاً إليه جهد

المريض ، والنفقات، وجهد الآخرين ، كل ذلك مقدر أيضاً وهو بإذنه تعالى ، وقد تتداخل معه العقوبة ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .
على أن هناك حالات كثيرة مفاجئة ، قد تحصل عبر العلاج ، نادراً ما يصحح بها . يعرف عنها الأطباء أكثر من المرضى ويكتمون .
ثم إن بعض الحالات قد يكون مقدرًا لها الشفاء بدون علاج ، فإذا دفعها التسرع إلى العلاج أصبحت بليّة .
وما أكثر ما يكتب في هذه المواضيع ، على أننا للاختصار ،

نضرب مثلاً، خبراً ، نقلته وكالات الإعلام ، لعل التأمل فيه ، يفى ببعض الجوانب مما نريد أن يحصل معه الإيمان بالله الواحد القهار . والخبر كما ورد في جريدة السفير 17 كانون الثاني 1990 هو: قام طبيب بلجيكي ببتز ساق سليمة لأحد الرجال ، بعد أن أخطأ في فهم توجيهات كبير الجراحين ببتز الساق ذات درجة الحرارة الأقل . وكانت حرارة الساق المريضة قد زادت بعد ان انحسرت إصابة ميكروبية بطريقة مفاجئة قبل إجراء العملية لبيادر الجراح ببتز الساق السليمة . وقد شفيت الساق المريضة تماماً بعد ذلك .

تلف البدن يحرّر الأنفس الثلاث :

إن في الجسم كما هو معلوم ، أعضاء رئيسية ، كالرأس والقلب والأوداج والرئتين وغيرها ، إذا أصيبت إصابات قاتلة ، أو تعطلت وظائفها لسبب أو لآخر ، حصلت الوفاة ، والوفاة كما ذكرنا ، هي انفصال الأنفس الثلاث عن البدن .
وكما أن هذه الأعضاء الرئيسة ، يؤدي تعطيلها أو تخريبها . دفعياً أو تدريجياً . إلى الموت ، كذلك فإن الأعضاء المرؤوسة ، إذا أصيب بعضها بما قد ينتشر ليتلف الجسم كله ، فإذ ذلك يؤدي أيضاً إلى الموت .
وطبعاً هذا ليس بجديد ، ولكن الجديد الذي نرمي إليه ، هو أن لهذا الموضوع صلة

وثيقة ، بقانون هو من أهم القوانين الإلهية التي يخضع لها الإنسان طائعاً أو مكرهاً ، مختاراً أو مجبراً ، عنيت قانون الهلاك والإهلاك . فما هو هذا القانون ؟

قانون الهلاك والإهلاك :

من المعلوم في العرف الديني القرآني ، أن الأعمار مؤجلة بآجال ، أو موقوتة بمواقيت ، وذلك اعتماداً على آيات أشهرها قوله تعالى :

{ .. فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } (1) .

والفهم الظاهري عند الناس عامة ، أن الإنسان لا يموت قبل أن يستكمل عمره المكتوب له ، لا يزيد عن ذلك ولا ينقص منه .

والحقيقة هي غير ذلك . الحقيقة أن هناك عمراً مكتوباً أصلاً وهذا صحيح ، ولكن قد يطرأ على هذا المكتوب ، ما يكتب عليه أو يكتب دونه ، وهذا معنى الآية الكريمة :

{ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } (2) .

وفي قوله تبارك وتعالى :

{ .. وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } (3) .

تنبيه واضح إلى حقيقة أن عمر الإنسان المكتوب له أصلاً ، قد ينقص منه . طبعاً لأسباب تتعلق باعتقاد الإنسان وسلوكه تبعاً لهذا الاعتقاد أو خلافاً له . ويتضح الأمر أكثر فأكثر في قوله تعالى :

{ .. بَلَغْ فَهْلٌ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ } (4) .

وقوله سبحانه :

{ .. هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ } (5) .

ونحن نرى أن جميع الخلق يهلكون ، البرُّ منهم والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فلماذا خصَّ سبحانه بالإهلاك في الآية الأولى القوم الفاسقين وفي الثانية الظالمين ؟ ثم نقرأ في "غافر : آية 34" ، قوله تبارك وتعالى عن يوسف عليه السلام :

-
- (1) سورة الأعراف ، الآية 34 . (2) سورة الحديد ، الآية 22 . (3) سورة فاطر الآية ، 11 .
(4) سورة الأحقاف ، الآية 35 . (5) سورة الأنعام ، الآية 47 .

{ .. حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا .. } (1) .

وبالمقارنة ، ندرك أن الهلاك غير الإهلاك ، ونفهم من لغة القرآن أن الهلاك هو استكمال العمر المكتوب أصلاً تماماً وكمالاً ، وأن الإهلاك هو قطع العمر قبل أن يستكمل ، بسبب من كفر أو شرك أو إصرار على اعتقاد فاسد ، أو تكذيب الرسل ، أو تكذيب لما أنزل الله ، أو ظلم أو فسوق ، أو إصرار على كبيرة ، أو فساد أو إفساد في الأرض ، إلى آخر ما هنالك من مستدعيات الإضرار بالأنفس أو الأبدان ومعها سخط الله جلَّت عظمته .

على أن هناك استثناءاتٍ قد تندرج في مصاديق هذه الآية الكريمة قوله تعالى :

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا } (2) .

فالذي نفهمه من الآية الكريمة هذه، نراه جلياً على الأرض: فمن أهل استحقاق العذاب، من يعذب في الدنيا قبل الآخرة، ومنهم من يمدّ له بالعطاء والعافية ، ويوم تقوم الساعة يعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

ونحن لم نحشد هذه الأدلة ، إلا لنقرر ، بفضل منه سبحانه ، فائدةً مهمةً جداً في جملة الفوائد ، وهي أنه من يخرّب جسمه أو نفسه ، كلاً أو بعضاً ، بمحرم من المحرمات ، إنما يقرب أجله بيده

، ويستعجل الموت قبل استكمال عمره ، مستدعيًا نعمة ربه سبحانه ، ومتعرضاً لغضبه وعذابه .

ولأجل هذا . من وجه من الوجوه . كان من فضل الله سبحانه ، تحليل الحلال وتحريم الحرام : تحليل الحلال من الطيب ، المندوب والمباح ، وتحريم الحرام ممّا يدخل الجوف أو الأنف أو الرئتين ، أو ممّا يغرّر بالنفس أو يخبّلها أو يلامس ظاهر البدن ، من رجس أو نجس أو خبث

(1) سورة غافر ، الآية 34 .

(2) سورة مريم ، الآية 75 .

محبّث ، أو حتى بفرح ومرح بغير حق . وكل ذلك من عناصر الإهلاك الدفعي أو التدريجي .
وأفضل الدواء أو العلاج لذلك كله ، سلامة القلب من الشرك ، والترقي في فهم التوحيد ، وحسن التوجّه إلى الله تبارك وتعالى ، وحسن التوكل عليه له الحمد .
هذا لمن تتشكل عنده قناعة يقينية بهذا الأمر ، علماً أنه عن طريق العلاج ، قد يأذن سبحانه ويتكرم بإصلاح ما فسد ، أو بترميم عضو مصاب بتأثير محرم من المحرمات ، مثل بعض الأشربة أو الأطعمة ، أو المشبوهات كالتدخين ، أو تعاطي أي منكر من المنكرات ، ممارسة أو نظراً أو سماعاً . أو الإفراط زيادة عن الحاجة ، أو التفريط إخلالاً بتوازن النفس والجسم وإتزانهما . فإن الإنسان المصاب كلياً أو جزئياً بشيء من ذلك كله ، يشفى ويرمّم بالتوبة النصوح ، والإيمان الواعي لمعاني التوحيد وعمل الصالحات :

{ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } (1) .

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (2) .

وبالجمله ، فإن الله سبحانه وتعالى محيط بالجسوم والأنفس وبكل ذرة من الجسوم ومن الأنفس ، وبكل جزيء من الذرة في الجسوم والأنفس ، وكل شيء اشتمل عليه هذا الكون

الذي لا يعلم أبعاده إلا الله جلّت قدرته وعزّ شأنه :
{ .. أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ } (3)
{ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ

-
- (1) سورة يس ، الآية 79 .
(2) سورة الفرقان ، الآية 70 .
(3) سورة فصلت ، الآية 54 .

مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } (1)
{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } (2)
{ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } (3)

-
- (1) سورة سبأ ، الآية 3 .
 - (2) سورة الزمر ، الآية 62 .
 - (3) سورة الشعراء ، الآية 78 . 82 .

(8)

استعدادا ليوم القيامة

العقل أمانة نحاسب عليها

{ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ
لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .

(30 : الروم)

استعدادا ليوم القيامة العقل أمانة ... نحاسب عليها أدق الحساب

العقيدة ، هي ما ينعقد عليه القلب ، حقاً كان أو غير حق . والسبيل إلى الحق ، هو العقل الذي شرفنا به الله عزّ وجلّ ، وهو سبحانه وتعالى في كثير من الآيات في كتابه الكريم ، يهيبُ بالناس أن يستعملوا عقولهم ، تفكراً وتدبراً وتأملاً . ليتوصلوا إلى خلاص أنفسهم ، بمعرفة الحق الذي هو الغاية الأسمى ، وهو مناط الرجاء .

وما العقل الذي تتعدّد العناوين والمعاني المنتهية إليه ، من مثل الإسلام أو الحنيفية أو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، أو الروح التي فيها قوله تعالى :

{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } (1) .

أو الدين الذي دان به الإنسان لرب السموات السبع ورب العرش العظيم :

{ ..وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا.. } (2) .

ما العقل إذن ، أو الإسلام أو الحنيفية أو الفطرة أو الروح أو الدين

(1) سورة الحجر ، الآية 29 .

(2) سورة الأعراف ، الآية 172 .

الإلهي ، إلاّ الأمانات التي أمر الله بعدم خيانتها :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (1) .

هذه هي الأمانات التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال ، لأجل نسبة التكليف العالية ، التي يتلبس بها الإنسان من جرائمها :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ [أكرمه الله بها] إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } (2) .

الذي يخون عهد الله ولا يستعد لملاقاة الساعة ، استعداد الصديقين والشهداء وأولو الألباب .

إلاّ أن فرقا من الناس شدّت ، ولا تزال فرق وأفراد يشدّون . يرفضون ما أهاب به الله سبحانه ، ونبه إليه بصريح الآيات ، مصرّين على هجر العقل ، آخذين بالسمع والتقليد ، فيما لا يجوز التقليد فيه من أصول الدين ، توحيداً ونبوة وإمامة ومعاداً وعدلاً ، وهذه في الحقيقة أمور اعتقادية ، ينبغي التوصل إليها بالدليل العقلي ، والبرهان القطعي ، لأنها الأساس الذي تترتب عليه مدارج العبادات الصحيحة المقبولة عند رب العالمين .

هذا فضلاً عن تعامل الإنسان على أساسها مع نفسه ومع مجتمعه ، وبالتحديد ينبغي التوصل إليها عن طريق العقل الذي لم تحجب فطرته ، فتستقلّ بالعمل النفس الأمّارة .

بين تهجد الليل وصناعة القبلة :

فإذا بقيت الفطرة سليمة أو إذا أزيلت عنها الأقنعة والحجب ، بخروج شجاع من
دوائر الجذب الأرضي ، وقرار حاسم جريء ، يختار به الإنسان ربه

(1) سورة الأنفال ، الآية 27 .

(2) سورة الأحزاب ، الآية 72 .

الله تبارك وتعالى دون سواه . عندها يشرح الله سبحانه صدر هذا
الإنسان لدينه ، فتنجلي البصيرة ، وينجلي حتى البصر ... حتى الألوان تتبدل عنده ويصبح
لها مذاق خاص ... فإذا الأرض غير الأرض ، وإذا السماء سماوات ، وإذا سرّ الله في قلب
عبده ووليّه سعادة حقيقية يستحيل أن يتوصل إليها إلا بقلب طفل أو بقلب شجاع .

إذن بالعقل يستمطر النور من الله :

{ .. يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. } (1)

فيستضيء القلب ويزهر ويتلألأ بنور الله ، بين الناس في الحياة الدنيا :

{ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي

الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. } (2)

وفي الآخرة ، وبين الدنيا والآخرة :

{ .. نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ .. } (3)

أما بالسماع ، والمحاكاة ، والتقليد ، في مجال الاعتقاد ، بعيداً عن التوحيد ، فصريح

قول الله تبارك وتعالى :

{ .. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ .. } (4)

الله عزّ وجلّ يذكر قولهم هذا ، ثم يقرعهم بقوله تعالى :

{ .. لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .. } (5)

أما ما يتوصل إليه العقل وينعقد عليه القلب ، فبحاجة إلى مدد يزيده خيراً وبركاتٍ من لدن الله عزّ شأنه ، فالإنسان لا يقوم بذاته ، إنما عليه أن

(1) سورة النور ، الآية 35.

(2) سورة الأنعام ، الآية 122.

(3) سورة التحريم ، الآية 8.

(4) سورة الزخرف ، الآية 22.

(5) سورة الأنبياء ، الآية 54.

يخطو الخطوات الأولى تصميماً على المعرفة ، صدقاً ، وحباً ، والتزاماً . وحتى هذا لا يكون إلاّ بإذنه تعالى . ثم تأتيه الهداية من حيث لا يحتسب :

{ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى .. } (1) . صدق الله العظيم .

أما بدون اليقين عن طريق العقل ، فلا يكون الوهج بين تخشع وحنين في العبادة ، وصفاء في التوجّه ، وصدق في مجاهدة النفس وتركيتها ، وإقدام وبسالة في مجاهدة أعداء الله . بدون اليقين عن طريق العقل ، يبقى الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل . وبدون اليقين عن طريق العقل ، تبقى النفس خاوية ، خالية ، تتعكز على ظاهر البدن ، وعلى الظواهر الشكلية عامة .

والناس في تاريخ التدين ، غالبيتهم من هذا النمط . بينما المطلوب الذي يتناسب مع الكرامة التي أكرم الله بها هذا الإنسان ، وهي العقل ، المطلوب أن لا يفرط الإنسان بهذه الكرامة ، وأن يحسن الشكر لخالقه ، تعبداً على خوف ورجاء ، وتقرباً إليه سبحانه وتعالى بكل صلاح يزيكه العقل المستنير بربه ، بين تمجّد الليل وصناعة الرغيف وصناعة القبلة ، جهاداً في سبيل الله .

أما كيف يتوصل العقل إلى الكشف ومعرفة الحقائق ؟ وعلى ماذا يجب أن ينعقد القلب ؟ فهنا تبدأ الحكاية ، حكاية الإيمان الحقيقي والكفر الحقيقي .

في الواقع أن ما تعارفنا على تسميته " بالإعتقاد " هو الخطوط الرئيسية لدين الله عزّ شأنه ، مضافة إلى الأساس الذي يستحيل أن يقوم بدونه ، عنيت به التوحيد ، هذا المخطط

الهندسي الفذ ، الذي أساسه وحمته التوحيد ، مطبوع في النفس البشرية ، منقوش نقشاً ، وهو وإن كان قابلاً لأن يحجب أو يطمس ، إلا أنه غير قابل لأن يبدل أو يمحي ...

(1) سورة مريم ، الآية 76 .

{ .. لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ .. } (1)

{ .. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .. } (2)

نهاية الرحلة ... فرح أعظم ، أو وجع أعظم ... في الأبدية :

أما حكاية الإيمان الحقيقي والكفر الحقيقي ، فيما أنهما عقلاً ، يستحيل أن يجتمعا في إنسان واحد ، فيبقى أنه لا بد لكل نفس من أن تختار ، أما الذي يختار الكفر فمحسوم أمره . يبقى امتحان القلوب الذكية ، التي نجحت ابتداء باختيار الإيمان ، كيف تكمل مراحل التعليم الأشرف ، والأنقى ، والذي فيه حي على الفلاح ... من أين تبدأ ؟ وما هي الوسائل ؟ وإلى أين تنتهي ؟ فمعاً إن شاء الله في هذه الرحلة المجيدة ، التي سنحاول بعونه تعالى أن تكون قصيرة وممتعة .

. وهنا لا بد أن نستدرك ملمحين إلى أن الإنسان قد يستبطن كفراً ويظهر إيماناً ، فتلك حالة مرضية ، يتميز صاحبها بالخسة ، ومن أسمائها النفاق ، وهي حالة ثالثة لسنا بصدد بحثها الآن .

فعوداً إلى السؤال عن الإيمان الحقيقي ، من أين يبدأ ؟

كثيراً ما نسمع في مجتمعاتنا الإسلامية ، وكذلك العالمية ادّعاءات عجيبة من مثل: فلان شيعي . ولكنه مؤمن بالله ويصلي أو لا يصلي المهم أنه مؤمن بالله ... وفلان يدين بالقومية . آية قومية من قوميات أهل الأرض . أو العرقية ، ولكنه مؤمن بالله ... وفلان يدين بالعلمانية ، ولكنه مؤمن بالله ...

وكل أولئك يحسبون إنما الله سبحانه وتعالى خلقهم وقال لهم تصرفوا على أهوائكم وأمزجتكم ، ودينوا بالدين الذي يريحكم ، واسلكوا السلوك

(1) سورة الروم ، الآية 30 .

(2) سورة يونس ، الآية 64 .

الذي تشتهون ، واختاروا النظام الذي يروكم ، وضعوا القوانين التي تتوصل إليها آراؤكم وتجاربكم ، واعتنقوا الفلسفة الأكثر دعاية وتفلسفوا إن شئتم وكيف شئتم ، ويكفي منكم خلال ذلك كله وفي النتيجة ، أن تقولوا : لا إله إلا الله . هذا لمن يقولها ناهيك بمن يشرك به سبحانه وتعالى عما يشركون . كأنما الله عزّ شأنه بالنسبة إليهم " ناطور صحراء " ، أو أنه أخذ على نفسه سبحانه أن يدير الفلك ، ويراقب نظام الكواكب ومساراتها ، وأن يمسك السموات حتى لا تقع على الأرض ، وأن يرسل المطر وينبت الزرع ويداول بين الليل والنهار والفصول الأربعة ، ويضبط عقارب الساعة الكونية ، وعليه إذا قَدَّمتْ وعليه إذا أَخَّرتْ ، وغير ذلك من قضايا الكون في السموات والأرض ، كل ذلك أوجبه على الله سبحانه ، إلاّ الإنسان زعموا أن الله تبارك وتعالى تركه واكتفى منه بأن يقول : لا إله إلاّ الله ، ثم سمح له بعد ذلك أن يتخذ ماركس نبياً ولينين إماماً وأي رئيس للولايات المتحدة أو أي بلد أوروبي ، رمزاً للحضارة الإنسانية .

ترى أي فطرة إنسانية سوية تقبل بذلك ؟ أليس العقل يحثنا أن أسألوا وتأمّلوا : لماذا

خلقنا الله سبحانه ؟

فإذا كان الجواب أنه خلقنا كما خلق الأبقار والثيران والدببة ، فأين تذهب ميزة العقل

وكرامة العقل ؟

وإن كان الجواب ليس كذلك ، وإنما خلقنا لكي ندين بدينه ، ونستمتع بحبّه وكرمه

ورحمته .

فما هو دين الله سبحانه ؟

هنا وعلى الإجابة على هذا السؤال ، يتوقف مصير الإنسان ، وتتعين نهاية رحلته

الأرضية الدنيوية : إما إلى الفرح الأعظم ، وإما إلى الندم الأعظم المصحوب بوجع في العظام
وغصص ، وفي كلا الحالين الزمن يطول ويطول ... أين منه عمر الأرض الخاطف الذي معه
يتخطف الموت وليّ الله والماركسي والعلماني على حد سواء ، دون أن يجروا على

الاعتراض حتى " نيتشه " فيلسوف القوة أو أتباعه . ثم إننا على يقين أيضاً من أن هذا الموت
له إيقاع على الناس ، درجات هو ، بين ألف السعادة وياء المرارة .
الرسول ... أم الفلاسفة ؟

بعد أن عقلنا الأصل الأساس الذي هو التوحيد ثم منه عقلنا النبوة والمعاد وما يتفرع
عنهما ، نجد أنفسنا أمام رياضة من نوع آخر ، هي رياضة التلقي والتمثل والاستجابة ، رياضة
أن تغني النفس ويغني القلب بالروائع ، بدءاً بأرقى تطلعات الروح : عنيت الحب ، طبعاً
حب الله جلّ جلاله ، فكل حب دونه ، هو ظلّ أو انعكاس ، هنا إذا أهاب بنا الحبيب
الأعظم ، إلى صلاة وزكاة ، وصيام وحج وجهاد ، ولإقامة الدولة التي ترضيه ، والنظام الذي
أمر به ، والاحتكام إلى ما شرّع هو سبحانه ، لا ما شرّع الناس ، وإلى طاعته وطاعة نبيّه
والقرآن الذي نزل على نبيّه وطاعة وصيّه ، وطاعة الأئمة الأبرار وأولياء الله الأطهار وعدم
الشرك ، وعدم الإهتمام بأية قوة في الأرض أو السماء غير قوته ، ومعرفة أن لا قوة إلاّ به ولا
عزة إلاّ به ولا نصر إلاّ من عنده ، ولا كرامة في الدنيا والآخرة إلاّ منه ، وحب أوليائه وبغض
أعدائه ، ممّن لا يؤمن به ولا يدين بدينه ، أو من هو سادر في معصية أو متلبس بظلم ، كل
هذه الأمور مجتمعة مترابطة متماسكة هي دين الله تبارك وتعالى ، وإذا أخذ بعضها وترك
بعضها فهو الشرك إذ ليس الشرك فقط أن نعبد الصنم إضافة إلى عبادة الله سواء كان الصنم
بشرياً أو حجرياً ، وإنما الشرك ألوان كثيرة ، معظم الناس واقع في جحيمها .

أوليس شركاً أن نؤمن بالله وندين بغير دينه ؟ أوليس شركاً أن نترك شرائع الله ونحتكم إلى ما
يبتدعه الناس من قوانين ، أوليس شركاً أن نؤخذ بفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان ، أوليس
شركاً أن نتبع رجالاً مرضى النفوس ، يشككون بالله وبدين الله ، وبنبوة الأنبياء وخاصة بنبوة

محمد (صلى اله عليه وآله) ومع ذلك نسميهم قادة وفلاسفة وعباقره ، ثم نقول صدق رسول الله ، وصدق رسول الشيطان ...

صدق نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وصدق فلاسفة المادة والإلحاد ... وهل يجتمع النقيضان . لِنَعُدْ إِلَى عقولنا نسائلها : هل يجتمع النقيضان في عقل واحد ؟ إذا كان الجواب لا ، وهو قطعاً ، لا ، فإلى متى الإنتظار وداعي الله يدعوك أيها الإنسان إلى كرامة الدارين ، وسعادة الدارين وخير الدارين . وإذا كان الجواب أنه بالإمكان الخلط والترقيع ، فاتهم نفسك بالتزوير والفساد ، وجناحيك بالكساح وستقرأ يوماً ما بحروف قاهرة :

{ .. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (1) .

اتخاذ القرار :

قد يقتنع القارئ بما مرّ به ، ويصمّم على التطبيق العملي ، صدقاً والتزاماً بدين الله ، ولكن هذا التصميم ، يكون عادة ردّة فعل آنية للقارئ في حال تأمله وتحكيم عقله ، والكتاب أو المقالة بين يديه ، فيقرّ ويدعن ، ثم يعود إلى قواعده في المجتمع ، حيث يأخذه التيار الجاهلي من جديد ، فتصبح قناعاته نسياً منسياً .

والقارئ في هذه الحالة ، كمن يقف أمام وردة عطرة ، تلفته حقيقتها الوردية ، رونقاً وعمقاً جمالياً ، ويشم عطرها فينتشي ، حتى إذا تركها ، نسي العطر ونسي الوردة . فما هو المطلوب ؟

المطلوب الذكر والتذكّر .

{ .. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ } (2) .

ويكون ذلك باتخاذ القرار الجمالي ، كأن يتأمل ويقول : تلك الوردة حياتها سر عطرها وجمالها :

(1) سورة النحل ، الآية 33 .

(2) سورة الرعد ، الآية 19 . وسورة الزمر ، الآية 9 .

{ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. } (1) .

إذ لو كانت اصطناعية ، لكانت بلا حياة ، يعني بلا سر . ونحن ندرك هذا ونعقله فأيهما أكرم للنفس ، أن تتعامل مع الجمال البلاستيكي المُنْتَظ ؟ مع النتاج الإنساني ، أم مع الجمال المطلق الغني بالحياة وأسرار الحياة ؟

بديهي أنه أكرم للفطرة أن لا تلوث ، وللفكرة أن لا تتحجم فتتكس ، أكرم لها أن تتجاوز الأرض والسماء ، أولى بها أن لا تنكش فتعذب بانكماشها . أولى بالإنسان الذي كرمه الله سبحانه ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه ، أن لا يكون مقلداً لأدعياء الفكر ، المنكوسين ، الشذاذ . التقليد شيمة القرود . إلا إذا كان اتباعاً لأولياء الله ، قوله تعالى :

{ .. وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ .. } (2) .

التيارات اللادينية⁽³⁾ :

التيارات الفكرية والفلسفية اللادينية ، تغري ذوي الشخصيات الهزيلة ، ومن هؤلاء يتشكل للأحزاب اللادينية رصيدها الشعبي ، والأحزاب تستغل ضحالة تفكيرهم ، حيث تنفخهم نفخاً بالمفاهيم التي تريد ، وتلقنهم تلقيناً بيغائياً ، وبالتالي تعتمد عليهم اعتماداً أشبه ما يكون بالتحريك الآلي ، مستفيدة من الاندفاع العاطفي ، الناتج عن ردات الفعل العصبية والعضلية عندهم . لذلك لا نجد في هذه الأحزاب ، مفكرين ، ومنظرين إلا القادة . والقادة اللادينيون شياطين أو أخوة شياطين ضلّوا وابتوا يسوقون مبلبلي النفوس إلى الضلالة . وتعريف هذه الأحزاب تحديداً ، هو ما كان منها بين العلمنة والإلحاد .

- (1) سورة لقمان ، الآية 11 . (2) سورة لقمان ، الآية 15 .
(3) على أساس أن الدين هو عبادة الله الواحد الأحد ، بدينه القيم ، قوله تعالى :
{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. سورة الروم الآية 30 } .

كل حزب بما لديهم فرحون :

قد يثور القارئ الحزبي هنا ، هذا إذا ما تحملت أعصابه وتمكن من الوصول إلى هذه الفقرة من هذا البحث . وإلا فالعادة أن مثل هؤلاء إذا كانت الشحنة الحزبية فيهم قوية ، أو كانوا دون الثلاثين ، فإنهم غالباً يطرحون الكتابات العقلية ، يعني المؤمنة ، وكثيراً ما يشتمون الكاتب ، ويحكمون عليه بالرجعية ، وهي التهمة الجاهزة دائماً نتيجة للتكرار في التلقين .

أقول قد يثور القارئ الحزبي هنا فيكون مصداقاً لما ذكرت من أنه لا يفكر بشخصية مستقلة ، قوية ، مجردة . وأعني باستقلال الشخصية ، استقلالها عن المخلوق ، وليس استقلالها عن خالقها لأن هذا مستحيل .

أما إذا توفّر قارئ يمكنه أن يعقل آنيّاً ، فليس من السهولة بمكان أن يتخلى عن قواعده الحزبية . أو حتى المتفلتة . رغم تصديقه وتَشَبُّعه إيماناً بما أسلفنا .

صحيح أن التجرد والتعقل ، مدعاة للمعرفة والإقرار بالحقيقة ، ولكن المعرفة الآنية شيء . واتخاذ القرار الحاسم شيء آخر . فإن المعرفة إذا لم تتوجّ بقرار جريء ، تذهب سدى مع أول لقاء حميمي ، مع الأخلاء الذين لا يدينون حقيقة بهذا الدين . تذهب القناعات كلها ، مع أول هبة ريح ، من محازب أو صديق ، أو رفيق ، أو صاحب أو صويجة . ولا سيما إذا كان اللقاء مع مجموعة ، حيث يذهب بهذه القناعات ، بريق ضحكات فارغة ، أو أحاديث خاوية ، تحت تأثير الخلة والحميمية . لذلك قال سبحانه :

{ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } (1) .

(1) سورة الزخرف ، الآية 67 .

التضحية ... في سبيل شرف الغاية :

فالقرار المصيري ، يحتاج إلى شجاعة أصيلة ، إلى جرأة ، يوطن الإنسان معها نفسه ، على أن يضحي بصحبة الرفاق والرفيقات ، وإذا اقتضى الأمر بماله ومصادر ماله ، إذا كانت مظنة شبهة عنده ، ويضحي حتى بحب المجتمع له ، إذا كان المجتمع مجتمع رعا ، يحكمه أشباه الرجال ، ولا رجال .

وليجاهد حتى يصل إلى حالة ، يفهم معها ، أنه أصبح فريداً ، معتزلاً الناس ليس له أنيس إلا الله ، ولا ولي إلا الله ، ولا حبيب إلا الله ، عند هذا فليحمدن الله ، مصعداً بقلبه ، وكأنه يرفعه على كفيه ، إلى الله تبارك وتعالى .

ولا يداخلته أن ذلك رهبانية ، أو هروب ، أو حالة نفسية سلبية ، إنما هي أشد المواجهة ، وأروع التحدي ، هي مرحلة في جهاد النفس عزيزة ، يبسرها الله لمن يشاء من عباده . ومشية الله لا تتخلف عن مشيئة عبده . وهكذا يكون معها . مع النجاح . سر الانفتاح . ولا يغيب عن البال أنه طبيعي جداً ، لمن يتخذ قراراً بالتحوّل عن جوّ عاشه فترة طويلة من الزمن ، بما فيه من حميميات ، وعادات ، ووجوه يألفها ، ومناخات ذهنية أنس بها ، طبيعي جداً أن يجد صعوبة في تركها ، ولكن شرف الغاية وسمو الهدف يهونان كل ذلك ، حتى أنه يأتي يوم ، يصبح مجرد تذكر هذه الأجواء ، موجع لذاكرته ، بغيض إلى نفسه، فالهدف أسمى من التضحية بما لا يقاس .

رياضة محبة وجهاد أكبر :

هذا كله إذا قُبِلَ هذا الإنسان في الإمتحان ، فإذا قُبِلَ فهو في بداية النعيم ، فليكثر من حمد الله سبحانه ومن الإستغفار ، بلى ، الشروط حساسة ودقيقة ، فإيانا ثم إيانا أن ننظر إلى الأمر بقلة أكثرات : نحن هنا

أمام التوبة ، التوبة إلى الله العزيز المتعال ، ذي الكبرياء والجبروت ، الغني عتاً وعن توبتنا وعن العالمين . ومن شروط التوبة أن تكون مقترنة بنية الامتناع عن الرجوع إلى معصية ، امتناعاً قطعياً مطلقاً ، وملازمة الشعور بالندم الشديد ، ول مجرد تذکر ما فات من ذنوب . وبطريقة أنه لو خيّر التائب بين رجوع إلى معصية ، وبين أن يحرق بالنار ، فليصمّ على اختيار الحريق بالنار على أن يعود إلى معصية ، وليبك إذا استطاع ، خوفاً وامتناناً ، أما المواظبة على العبادة ، وأما الإكثار من ذكر الله عزّ وجلّ ، فحدث ولا حرج ، إضافة إلى قضاء ما فات .

قد يقول القارىء هذا كثير ، وهذا متعب . لا ليس كثيراً ولا متعباً ، إذا كان بحُبٍ وشوقٍ ، ومعرفة أمورٍ عن عظمة الخالق ، أما كل عظمته سبحانه ، لا يحيط بها عقل مخلوق لا في الأرض ولا في السموات . وفي المواقف الصعبة ، ليتذكر قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) :

" ربي إن لم يكن بك عليّ غضب ، فلست أبالي ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك . يا حبيباه ، يا الله ، يا ربّاه ، يا رب العالمين " .

لا كل ذلك ليس كثيراً ، بل هو قليل قطعاً ، إلى جانب عظمة الله ، ونعم الله ، وكرم الله ، ورحمة الله . ذلك كله قليل وقليل جداً ، إذا عرف التائب . مع اكتمال شروط توبته . أن الله عزّ وجلّ يبدّل سيئاته حسنات ، ويضاعف له أجره ، ويزيدُهُ من فضله ، وهو ذو الفضل العظيم ، ويصلح باله ، ويصلح حاله ، وذلك كله بوعده منه سبحانه في كتابه العزيز :

{ .. أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. } (1) .

{ .. وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. } (2) .

وهاتيك النتائج والحبوات والعطاءات ، معروفة بالتجربة المحسوسة ، يعرفها العارفون :

(1) سورة يونس ، الآية 55 . (2) سورة التوبة ، الآية 111 .

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا } (1) .

* * *

ومما هو من اختصاص العقل في الصميم ، وجدير بالعقلاء أن يلموا به ويعقلوه،

لكي لا يكونوا ممن قال الله تعالى فيهم :

{ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (2) .

قلت ممّا هو من اختصاص العقل في الصميم هو وجوب إدراك معنى الآيتين الكريميتين ،

قوله تبارك وتعالى :

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً .. } (3) .

وقوله عزّ شأنه :

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ .. } (4) .

ولنكون في ضوئهما بنسبة عالية ، لا بدّ من إيضاحات :

فواقع الحال ، هو أن كل مؤمن متعرض لابتلاءات ، وممتحن بامتحانات لا بدّ منها ،

قوله تعالى :

{ الْم . أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } (5) .

- (1) سورة الكهف ، الآية 29 . (2) سورة الجاثية ، الآية 23 . (3) سورة الأنفال ، الآية 25 .
(4) سورة التوبة ، الآية 115 . (5) سورة العنكبوت ، الآيات 3 . 1 .

وهذه الامتحانات قد تكون فردية ، كإمتحان أيوب عليه السلام في نفسه وبدنه ، وقد تكون في بعض متعلقات الإنسان ، من أهل ومال ، كإمتحان إبراهيم في ذبح ابنه عليهما السلام ، الإبن الذي كان ما زال وحيداً ، وهو أغلى على أبيه من كل أهل الأرض آنذاك فاستجابا لربهما طائعين راضيين ، وكان الفداء العظيم للبلاء العظيم . وإمتحان سليمان عليه السلام في ماله الذي ضحى به وهو من خير المال وأجمله (الصافنات الجياد) ، إذ أوقعه هذا المال في معصية الانشغال عن الصلاة ، فأعدمه وثاب إلى ربه خائفاً خاشعاً . وقد تكون في مواجهة جمهور من الناس ، على صعيد قرية أو أكثر ، أو مدينة أو أكثر ، أو شعب أو أمة أو العالم بأسره ، مواجهتهم بما لا يحبون . ممّا يعتبرون أنه حدّ من حرياتهم المزعومة ، من دعوة للحشمة بدل التسيّب الأخلاقي والانتحار الجماعي بالفواحش ، أو دعوة إلى النظام بدل الشتات والفوضى ، أو إلى العدل والرحمة ، في أزمنة الظلم والطغيان والتشوّه وسفك الدماء ، إلى آخر ما تتعرض له المجتمعات البشرية في مراحل بعدها الزمني عن عهدها مع الله ومنزلاته :

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } (1) .

وإنما تكون هذه المواجهات بالنسبة للمكلفين على درجتين : الأولى : درجة النبوة وورثة الكتاب ، والثانية : درجة الفقهاء والعاديين .

فالدرجة الأولى هي التي تكون بأمر من الله بين لا لبس فيه ، عموماً هو الوحي والإلهام، فيختلف فيه التكليف وفق أزمنة المكلفين ومجتمعاتهم ، فتارة يكون بمجرد توجيه النداءات وعرض التعاليم المنزلة ، مع تحمّل صنوف الأذى والائتمار بالصبر على ردود الفعل مهما كان شرّها ،

وذلك كما حصل لرسول الله عيسى عليه السلام ، وتارة يكون التكليف مُلْزِماً بالدفاع عن الرسالة ، وهنا يضاف إلى ما ذكرناه عن تكليف المسيح عليه السلام ، أمر الله عزّ وجلّ بالدفاع عن الدعوة إليه سبحانه وعن الرسالة ، بأسباب القوة ، كالتكليف الذي كان لمحمد صلى الله عليه وآله (بتبليغ الرسالة والقتال دونها) . وفيه تكليف بتوجيه النداءات وعرض التعاليم المنزلة ، مع تحمل صنوف الأذى ، والائتمار بالصبر على ردود الفعل الشريرة ، وفوق ذلك كله ، تكليفه بالتصدّي لقتال من يقف في وجه الدعوة إلى الله وحده لا شريك له ، وقتال كل من يقف موقفاً عدوانياً من الله ورسوله ، والدين الذي أنزل على رسوله ، دين التوحيد أو الحنيفية ، وهي الاستقامة والعدالة والرحمة ، قال تعالى :

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (1) .

على أن ابتلاءات الأنبياء والرسل كثيرة ومتعددة ، بتعدّد الغايات منها ، سواء ما كان شخصياً متعلقاً بكل فرد من الأنبياء على حدّه ، أو ما كان منها ذا وجهين خاص وعام ، فوجه يخصّ النبيّ والآخر عامة الناس ، كأنّ يكون درساً أو قدوة أو عبرة لأولي الألباب . وما دام موضوعنا ليس سرد أنواع الإبتلاء ، وإنما معنى آيتي الجاثية والتوبة الأنفيّ الذكر ، فسنكتفي بهذا المقدار عن الإبتلاء الذي توخينا به أن يكون مدخلاً للكلام عن الآيتين الكريمتين .

ومن هذا الفريق (الأنبياء والرسل) ورثة الكتاب ، وهم كذلك اصطفاهم الله سبحانه قبل ولادتهم ، لأدوار ، مثلما اصطفى الذين من قبلهم من النبيين والمرسلين ، واجتباهم ، وأورثهم الكتاب ، وذكر ذلك في كتابه الكريم مخاطباً رسوله مُحمّداً صلى الله عليه وآله :

{ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ } (1) .

والمقصود من ظلم النفس في الآية الثانية ، لا هو من الكفر ولا من الشرك ولا من ظلم الآخرين ، وإنما من الظلم السلوكي الشخصي : من السيئات التي هي مع التوبة والإنابة ، يبذلها الله سبحانه لمصلحة صاحبها بحسنات . ويوضح ذلك سياق الآيات ، وصولاً إلى قوله تعالى : { جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا .. } فهو سبحانه لم يستثن من المصطفين حتى الظالم لنفسه من دخول الجنة .

كما يوضح ذلك كثير من الآيات المتعلقة بتصريحات لبعض الأنبياء ، مثل قول إبراهيم عليه السلام :

{ وَالَّذِي يُمَيِّنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } (2)

وكلمة خطيئة قد تعني الجمع في اللغة ، ومثلها كلمة نعمة وغيرها ، قال تعالى :

{ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا } (3) .

وقال سبحانه :

(1) سورة فاطر ، الآيات 31 . 35 .

(2) سورة الشعراء ، الآيات 81 . 82 .

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } (1) .

وواضح أن المقصود بكلمة (نعمة) في الآيتين الكريمتين هو الجمع أي النعم . ومثل هذا في اللغة كثير .

ومثله قول موسى عليه السلام عندما قتل رجلاً :

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ.. } (2) .

إلى آخر ما هنالك من تصريحات الأنبياء ، وصريح النصوص عنهم في القرآن المجيد . فإذا كان أفراد هذا الفريق (الأنبياء والرسل وورثة الكتاب) مبتلين ممتحنين وهم عند الله المصطفون الأخيار ، والمجاهدون الأبرار ، فكيف بأفراد الفريق الثاني ، عنيت الفقهاء وبقية الناس .

يعني ما أريد أن أوضحه ، هو أنه إذا كان الأقرب الأحب إلى الله معرضاً . وهو بشر . للوقوع في المعصية [كآدم عليه السلام] ، والخطيئة [كإبراهيم عليه السلام] ، والفتنة [كداود عليه السلام] ، مؤاخذاً عليها أشد المؤاخذة أحياناً [كحبس يونس عليه السلام في بطن الحوت] ، وما خطاياهم ومعاصيهم بذات بال إذا قورنت بخطايا البشر العاديين وجرائمهم . إذا كان كل هذا الرصيد لا يشكل عليهم حصانة تقيهم العثرات . خارج نطاق الوحي . فتراهم دائماً أحوج ما يكونون لرعاية الله ، وعنايته وإرشاده وتسديده لهم ، فما هو رصيد غير المصطفين من الناس ، خاصتهم وعامتهم ، حتى يتصدوا لمواقف مصيرية ، بكثير من التحكم والمزاجية والغرور ، والزج بالناس من أتباعهم ومنافسيهم في أتون فتن ، فيها الدمار والحرائق وسفك الدماء ، أم لهم ضمان عند الله ، أم اتخذوا عنده بذلك عهداً؟! ...

(1) سورة النحل ، الآية 53 . (2) سورة القصص ، الآية 16 .

وإذا كان من حق الأنبياء والرسل وورثة الكتاب أن يتبعوا وأن يطاعوا ، ومن واجب الناس أن يؤمنوا لهم ويتبعوهم ويطيعوهم ويجاهدوا في سبيل الله بين أيديهم ، ذلك لأن هؤلاء المصطفين ، يوصلهم سبحانه عبر مراحل من التربية إلى درجة السداد والرشاد، وندرة الوقوع في الخطأ ولو صغيرة ، وكذلك في المرحلة الأخيرة من تربيتهم ، عدم الوقوع في معصية أو خطيئة أو فتنة حتى خارج نطاق الوحي .

ولأخذ فكرة عن عظمة وأهمية هذه التربية ، التي يربها سبحانه للمصطفين من عباده،

نلخصها في سبع مراحل :

الأولى : الحياة العادية .

الثانية : الإشعار بالمسؤولية بشكل غير عادي .

الثالثة : التَّبَتُّلُ ، وإخلاص القلب لله ، وإخلاص كلية الإنسان لله ، ثم الفناء

في فناء الله ، ثم الصحو بعد الخو ، ثم العطاءات من كرم الله ورحمته .

وهذه المراحل الثلاث قد يتوصل إليها أي إنسان يصدق في توجّهه إلى

الله سبحانه ، وقد شرحناها في مكان آخر من هذا الكتاب في مبحث :

" لا إسلام بدون توحيد " .

أما المراحل الأربع الباقية ، فالله سبحانه اختصّ بها أصفياءه من عباده :

أولها : مرحلة : { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ }⁽¹⁾ . (لاحظ سين الإستقبال) .

الثانية : مرحلة : { وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبِكَ فِي

السَّاجِدِينَ }⁽²⁾ .

(وفيها رعاية مباشرة منه سبحانه ولكن فقط في الصلاة والمواقف) .

(1) سورة الصافات ، الآية 99 .

(2) سورة الشعراء ، الآيات 217 . 218 . 219 .

الثالثة : مرحلة : { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا .. } (1) .

(وفيها رعاية دائمة منه سبحانه في جميع حالات ذي العلاقة) .

الرابعة : مرحلة : { .. وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } (2) .

والمعنى المتعارف في " وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ " (زوجتان للنبي صلى الله عليه وآله) ، إلا أن التأويل أعم وأعظم ، وهو الأصل ، إذ المقصود فيه ، الثقلان : الإنس والجن ، فهي عناية ربانية مباشرة ، في الأمور العظمى ، ثم حسب أهمية الأمور ، يأمر جبريل عليه السلام ، وصالح المؤمنين والملائكة ، بنصرة من يصطفيه من عباده ، له الحمد حمداً خالداً بخلوده .

ومع ذلك لماذا لا يتولى سبحانه كل ذلك مباشرة ، دون توسط أحد من خلقه ، وهو

الغني عن العالمين ؟ صحيح ، وإنما ذلك :

لأن { لَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (3) .

* * * *

بعد أن أخذنا فكرة عن تلك التربية الحكيمة الفذة ، والحليمة الكريمة ، والتي

منطلقاتها جملة وتفصيلاً ، من قوله تعالى ، لمن يصطفيه أو يجتبيه أو يختاره :

{ .. وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } (4) .

ليُصْبَحَ بعد ذلك أهلاً للنبوة أو الرسالة أو وراثة الكتاب .

ليصير بعد ذلك قائداً ملهماً من الله بالحقيقة ، مسدداً من الله بالحقيقة ، داعياً إلى الله

وحده لا شريك له ، لا إلى نفسه ، ولا إلى طائفة من الناس ولا إلى مخلوق ممّا خلق الله ، ولا

إلى قضية فيها إثم أو معصية ، ولا إلى قضية فيها شبهة إثم أو معصية ، ولا مفرقاً بين المؤمنين

ولا بين

(1) سورة الطور ، الآية 48 . (2) سورة التحريم ، الآية 4 .

(3) سورة الجاثية ، الآية 37 . (4) سورة طه ، الآية 39 .

المسلمين ، ولا متجبراً ولا متحكماً ، ولا منفراً من دين الله بحزب يتفوق فيه ، أو تنظيم يتسلط من خلاله . بل يكون سمحاً بعيد المرمى ، واسع الأفق ، رفيقاً بقومه على علائهم ، متسامحاً مع جميع الناس على اختلاف مللهم وتوجهاتهم ، ما لم يعتدوا ويفسدوا ويحاولوا إلغاء دين الله وطمس رسالاته ، داعياً المؤمنين لأن يسلكوا مسالكه ، عملاً بتعاليم الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذا العجب العجاب من حيث أمر الله بالتسامح :

{ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (1)

ومنها : { .. وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } (2) .

ومنها : { .. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. } (3) .

ومنها : { .. مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا .. } (4) .

ومنها : { .. ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } (5) .

ومنها : { .. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } (6) .

ومنها : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

(1) سورة الجاثية ، الآية 14 .

(2) سورة الحجر ، الآية 85 .

(3) سورة آل عمران ، الآية 159 .

(4) سورة المائدة ، الآية 32 .

(5) سورة فصلت ، الآيات 34 . 35 .

(6) سورة الرعد ، الآية 22 .

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } (1) .

ومنها : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (2) .

ومنها : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (3) .
ومنها : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ } (4) .

ومنها : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ } (5) .

* * *

إلى آخر ما هنالك من تعاليم ، تطهر القلوب من رواسب الشرك ، والنفوس من الحيرة والشبهات ، والظن بأن النفع والضرر بأيدي المخلوقين ، والواقع أنه حتى محمد صلى الله عليه وآله أمره ربه سبحانه أن يقول للناس :

{ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } (6) .

فكيف بمن هم دون محمد صلى الله عليه وآله منزهة عند الله ، أو بمنزلة محمد صلى الله عليه وآله ، فإنهم قطعاً كما قال الله سبحانه لا يملكون للناس ضراً ولا رشداً .
بلى إن هذه التعاليم القرآنية ، تغسل القلوب من الرين ، وتزيل العتمة

(1) سورة إبراهيم ، الآيات 24 . 29 .

(2) سورة الحجرات ، الآية 6 .

(3) سورة الحجرات ، الآية 10 .

(4) سورة الحجرات ، الآية 11 .

(5) سورة الحجرات ، الآية 12 . (6) سورة الجن ، الآية 21 .

من النفوس المظلمة التي تعشعش فيها شياطين الحقد والعصبية والغرور والأناية ، والقناعة بوجوب إلغاء الآخر المنافس ، والحسد ، وبقية فروع الشجرة الشيطانية ، ولعل أبرزها أن يعتقد

شخص أو مجموعة ، أو حزب أو تنظيم أنهم هم وحدهم يسندون أعمدة السماء ، ولولاهم لوقعت على الأرض ، وأنهم هم وحدهم يدبرون أمر الأمة ولولاهم لذهبت الأمة إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم . ويقرأون كتاب الله العزيز ، ويتلون فيه الآية الكريمة :

{ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } (1) .

ولا يفهمون ...

وخاصة قوله فيها سبحانه : { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ } ، وكذلك قوله تعالى في

مكان آخر :

{ .. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (2) .

ولا يفهمون ... أن الأمر في جوهره هو أمر الله من قبل ومن بعد ، وأن الله بالغه عاجلاً أو آجلاً ، وهو الأعلم به ، وقد قدر الأمور تقديراً أدق مما قد يظنون أو يحلمون ، وهو أسرع الحاسبين ، ولا يفهمون قبل كل ذلك ، في هذه الآية وفي كثير غيرها ، أن من معاني التوكل ، الثقة بالله وحده ، وليس الاعتماد على شخص بعينه أو دولة بعينها ، أو شعب بعينه ، أو أية قوة من مراكز القوى الظنية في الأرض أو في السماء من دون الله العزيز الحكيم ذي القوة والجبروت ، فإن القوة لله جميعاً وإن العزة لله جميعاً .

(1) سورة الرعد ، الآية 2 .

(2) سورة الطلاق ، الآية 3 .

فمن أعزه الله ، فهو العزيز ، ومن أذله الله ، فهو الذليل ، وقد ينخدع بذلك ذو

ضلالة ، إذا ظهر ظهوراً مؤقتاً ، بقوة سياسية ، أو مالية ، أو عسكرية ، فيحسب أنه هو العزيز الكريم ، في وقت قد يكون فيه ، ممن مدّ لهم الله عزّ وجلّ في الضلالة ، أو ممن قال سبحانه فيهم :

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ .. } (1).

فيكون في جملة من أخبر عنهم سبحانه في سورة الدخان :

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِي الْحَمِيمِ .
خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُوقْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ { (2).

تقولها الملائكة تهكمّاً واحتقاراً للمتجبرين المتكبرين الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

(1) سورة التوبة ، الآية 115 .

(2) سورة الدخان ، الآيات 43 . 49 .

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } . (39/ الأحزاب) .

(9)

بين يدي القيامتين

رسالة

إلى قادة الشرق والغرب ومن بينهما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رسالة إلى قادة الغرب والشرق ومن بينهما

بسم الله وبالله ، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى (1) .
حضراتُ القادةِ والسادةِ . طبعاً بما فيهم العلماء . الغربيين والشرقيين ، وأشياعهم .
السلام على من اتبع الهدى ، وبعد ،
تقرباً إلى الله تعالى ، وبداعي الأخوة الإنسانية ، والإشفاق وأن نحب لكم ما نحب
لأنفسنا عملاً بوصية نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، أدعوكم إلى الله . كما أمرنا سبحانه .
بالحكمة والموعظة الحسنة ، لعلكم تهتدون ، فנסعد وإياكم بعفوه وغفرانه ، وننعم وإياكم
برحمته الغامرة في الدارين .
ولذلك بلغة النذير المشفق ، أحاطبكم ، قبيل وقوع الحرب العامة الآتية، رغم اتفاقات
السلام الظاهرية ، لأنها القيامة الصغرى . نتاج أيديكم . على كوكبنا هذا الملغم بما تعملون،
وبعدها . لمن يبقى . قبيل قيام الساعة على مستوى الكون ، القيامة الكبرى ، التي بدأت
أشراطها . المرسومة عندنا في كتاب الله والواقعة عملياً تحت أبصاركم ولكنكم لا تعلمون أنها
أشراط الساعة . تظهر بقوة مرعبة ، يواكب بعضها بعضاً .

(1) سورة النمل ، الآية 59 .

ولأنه بقي لدينا بعض الوقت للدعوة إلى الله سبحانه ، وبهدوء ، قبل بدء الإرتجاجات
تحت سمائنا الدنيا ، فنؤجل الآن . موضوع أشراط الساعة وتبعاً لها ترادف القيامتين . إلى فصل

بعد هذه الرسالة حيث نفرد له باباً مستقلاً لأهميته القصوى .

فاستفادة من الحالة العالمية الراهنة ، والتي ما زال ممكناً معها ، التفكير المسؤول ، والتأمل ، ومحاسبة النفس ، بادروا إلى تقوى الله ، وحاولوا مخلصين فهم الإسلام الحقيقي ، ولو بخطوطه العريضة ، وهذا أمر يسير لمن آمن بالله بعمق وصفاء ، فالإسلام الحقيقي بسيط ، غير معقد ، فضلاً عن أن الله عزّ وجلّ يوجب عليكم وجوباً قطعياً أن تدينوا به ، إذ { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. } (1) . { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ .. } (2) . هذا أمر الله وقضائه . { .. فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ } (3) .

بادروا لإعمال العقل ، لا النفس الأمّارة ، بادروا قبل التورط ، والحساب ، والعذاب الذي لا تنفع معه الندامة .

فيا أهل المغرب ويا أهل المشرق ، الله عزّ وجلّ هو الذي شاء وقدر ، وقضى فأبرم لمحمد صلى الله عليه وآله ، كما شاء وقدر وقضى فأبرم لموسى وعيسى عليهما السلام ، فأين تذهبون .

فانتهزوا الفرصة ، وتأملوا ملياً في (العقل الإسلامي وعلم الفلك) حيث سنقدم لكم عنهما في هذه الرسالة ، عجالة ، لعلكم تعتبرون ، ولعلكم تفقهون أن السبق الظاهري الذي اغترتم به ، إنما هو سبق السلحفاة للبراق ، إذ إن أعظم علمائكم اليوم في علم الفلك ، مع أضخم مراصدكم وسفنكم الفضائية ، ما توصل من الكشف إلى بعض بعض ما يتوصل إليه

(1) سورة آل عمران ، الآية 19 .

(2) سورة آل عمران ، الآية 85 .

(3) سورة غافر ، الآية 78 .

عبد من عباد الله الصالحين وهو قائم في مناجاة ، أو ساجد في مصلاه لله ربّ العالمين .
والعاقبة للتقوى . وَأَمَّا الْحِصَاد :

{ .. لَا تَفْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ
مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ { (1) .

قد يغضب من هذا الكلام ، من حيث لا تغضبون ، أتباع لكم تتلمذوا عليكم من
قريب أو بعيد ، وكانوا مسلمين ، ولكن لما غشيهم موج حضارتكم الزنديقة بجر منهم القلوب
والأدمغة والأبصار فارتدوا عن إسلامهم ، دين العقل ، دين التوحيد ، ليدخلوا في شرك الآلة
ومادية الآلة وأرباب الآلة ، مكذبين بالآيات البينات ، مرعوبين من الموعظة ، فرحين بما عندكم
، وربما عندهم من لعب العلم وأقول (لعب) قياساً على أسرار وابعاد السموات والأرض ،
هؤلاء أيضاً يحملون من أوزارهم وبالنتيجة معكم يحشرون .

في وقت كان لزاماً على من ابتلاهم الله بالكشوف العلمية أن يزدادوا إيماناً وصلاحاً ،
وإصلاحاً وعدلاً ، ورأفة بالشعوب ورحمة بالناس وتقرباً إلى الله لما يفتح عليهم من أسرار علمه .
وقد أوجب على الناس طلبه . فيزيدهم علماً نافعاً ويسعدهم به ، بدل أن يدمر عليهم بعد أن
عزموا هم على تدمير أنفسهم .

{ .. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ { (2) .

على أي حال بإخلاص الناصح ، ورفق الأخ الإنسان ، المنيب إلى ربه تعالى ، أدعوكم
لتأمل هذه الآيات التي طالما أفرغت العقلاء المستنيرين ، والتي تكشف ضلالة الذين يفرحون
بما عندهم من العلم ، مستهزئين بكل بشير ونذير ، شرقياً كان أم غربياً ، فتضعهم هذه
الآيات . إذا

(1) سورة الرحمن ، الآيات 33 . 34 . 35 .

(2) سورة النحل ، الآية 33 .

أصروا على عتوهم . في مهب الحشرات ، ولات ساعة مندم ، بعد دمار الحضارة وأهلها :
قال تعالى :

{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا

بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ { (1) .

وقال عزّ شأنه :

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَمَا أُغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } (2) .

ألا ، وإن بأس الله لآتٍ ، فهل تنتظرون انتظار العاجز عن اتخاذ القرار حتى يدهمكم بأس الله غاضباً مدمراً في خسف وقصف وأعاصير وزلازل وطوفانات أو قيامة ، أو غير ذلك من الآيات ، ومقدمات كل ذلك في عصرنا هذا ، هي للمستنيرين أظهر من الشمس في رابعة النهار ، اقرأوا الآية التالية وأنظروا ، ثم خذوا طريق الحق الذي هو الخير والذي هو الجمال . قبل أن يتحقق شيء من هذه الآية ، قوله تعالى :

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } (3) .

* * * *

(1) سورة الشعراء ، الآيات 128 . 130 .

(2) سورة غافر ، الآيات 82 . 85 .

(3) سورة الأنعام ، الآية 158 .

والآن ، بعد هذه المقدمة ، نبدأ بعرض ما وعدنا به آنفاً ، بخصوص لمعات عن القرآن الكريم والذي أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وآله وعن الفلك . حيث سيكون تركيزنا إن شاء الله على ما نعتقد أن فيه الفائدة للمجتمع الإنساني كله ، إذا أعمل قاداته عقولهم وأخذوا بحكم

الله وبما أنزل الله ، ناظرين بتجرد وموضوعية ، إلى بحوثنا الآتية ضمن هذا الكتاب نظر المؤمن على أعلى أمانة حملها الإنسان : نفسه وشرفه ، وشرف الإنسانية ، وباختصار دين الله القيم الذي أشار إليه سبحانه بقوله تعالى :

{ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } (1) .

وقوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وآله والبشرية كلها مع رسوله محمد صلى الله عليه وآله ، ليعقلوا ما شرع لهم من الدين ، وليعقلوا حقيقة الإسلام . الإسلام الذي كان منذ آدم ، شرائع متناسبة مع كل عصر من العصور السالفة : فكمّل نوح ما كان قبله ، وما نقضه ، وجاء إبراهيم شيعاً لنوح ، مكماً ما جاء به وما نقضه ، وكمل موسى ما كان قبله ، وما نقضه ، وكمل عيسى ما جاء به موسى ، وما نقضه ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وآله خاتماً للنبيين عليه وعليهم أزكى الصلاة والسلام ، مكماً بوحي الله ما أتى به الرسل من قبله ، وإنما جعل الله الشريعة التي أرسله بها نظام دولة مؤمنة تقيّة ثريّة عادلة ، دولة واحدة موحّدة ، يحكمها الله الواحد الأحد بتعاليمه ، وما ناسها إلاّ منفذون . وذلك منهاج عمل عقلي ونفسي ومادي ، ملزم ، منقذ للبشرية إلى قيام الساعة ، أفراداً ومجتمعات ، وذلك لقصر الزمان الواقع بين بعثة محمد الميمونة ، وبين القيامة الكبرى ، التي في أيامنا هذه تطل أشراتها برؤوسها بين بر وبحار وأنهار ، ودرع غيوم حرارية تلف الأرض وتعقد لها

(1) سورة الروم ، الآيات 30-32 .

المؤتمرات ، ناهيك عمّا في الفلك من مفاجآت داخت حياها المرصد ، فكيف يكون حال الراصدين . أما الآية التي عنيت فهي قوله سبحانه مخاطباً رسوله محمد ﷺ :

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ

اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ { (1) .

(1) سورة الشورى ، الآيات 13 . 14 .

{ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } (1) . (قرآن كريم) .

من أين القرآن ؟

• وقفة قصيرة مع الكمبيوتر .

• هل في القرآن أسرار حسابية ؟

إذا ثبت أن القرآن منزل من عند الله سبحانه . وهو لا يمكن إلا أن يكون كذلك كما سنرى . فسيكون أعظم حجة على أهل الأرض منذ تنزيله .

فالمطلوب في هذه العجالة ، إثبات أنه من لدن رب العالمين .

معلوم أن وجوه الإعجاز في القرآن كثيرة وكثيرة جداً ، منها ما هو باطني ومنه الإعجاز التركيبي المولّد للطاقة الفاعلة ، وبه تحدّى الله الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله . ومنها ما هو رقمي معقّد يعتمد البسملة الرقم (19) قاسماً مشتركاً لما يسمّى بالأحرف النورانية ، وهي الأحرف الموجودة في مفاتيح السور ، مثل كهيعص وحمعسق وغيرها . وهو اكتشاف مدهش ، كشف عن سرّ واحد من الأسرار الكثيرة العجيبة لهذه المفاتيح النورانية ، التي هي بمثابة (الشيفرة) بين الله عزّ وجلّ وبين أهل الزلفى من عباده .

وقد قام بإزاحة الستار عن سرّها الحسائي ، الدكتور _ رشاد خليفة المصري ، أثناء وجوده في الأمم المتحدة مندوباً عن حكومته . ولما كان قد

(1) سورة محمد ، الآية 24 .

عزم على ترجمة القرآن المجيد إلى اللغة الإنكليزية ، بادئاً بسورة البقرة ، كان لا بدّ له من وقفة طويلة محيرة أمام " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " ألم " ما هو معناها ؟ وماذا يقول لقراء الإنكليزية في ترجمتها ؟

وبتكرارها.. فتح الله عليه ، وأجأه إلى العقل الإلكتروني ، وقد آن آوانه لعرض هذا التحديّ الجديد، في بناء القرآن ، إضافة للتحديات السابقة ، في ظاهره وباطنه، وتفسيره

وتأويله، وجرسه وبيانه ، وعجيب كنوزه وأسراره .

* * * *

* الأحرف النورانية (شيفرة) يفتح الله بعضها على أوليائه أبواب السموات والأرض

* الأحرف النورانية من الأسرار المطلسة ، ما حاولها طامع معاند إلا لفح أو هوى أو احترق .

* بسببها وبغيره اتهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن به جنة .

* لا عرافة ولا كهانة في فداء عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وآله .

لقد كانت هذه المفاتيح أو الأحرف النورانية التي لا معنى لها في الظاهر ، من الأمور المهمة جداً التي امتحن بها الله الإنس والجن ، فالذين انخلعوا من الدنيا ، ونذروا أنفسهم بدون شرك ظاهر أو خفي لرب السموات والأرض رب العرش العظيم . الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، أعطاهم هبة هذه (الشيفرة) فخشعوا وخضعوا له وأخذوا بمزيد من التقوى ، وقد أكرمهم الله تعالى فأسماهم الراسخين في العلم ، لما ذكرناه في بحث سابق^(*) ، ولخشيتهم من كشف أسرارها بدون إذن أو مؤشر، وهو قال سبحانه :

{ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى }⁽¹⁾.

(1) سورة طه ، الآية 7 .

(*) كتاب (الحكمة الإسلامية . بحوث من مقتضيات العصر) .

ومدحهم بقوله تبارك وتعالى :

{ ..وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا.. }⁽¹⁾.

وينسبة درجاتهم في مفهوم التوحيد أفاض عليهم أسرار هذه المفاتيح ، أو من أسرارها، في مجالات تطهير النفس وتقربها من بارئها ، أو في دفع الأذى عن النفس وعن المؤمنين ، بشرط كتمانها ، حيث إن النفوس العادية وما دون العادية غير مؤهلة لها ، على أن فاعليتها وآثارها

العجيبة وإن كانت تخصُّ أهل العرفان :

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } (2) . إلا أنها تنفع وتعمُّ جميع المؤمنين .

أما أهل الشرك في زمن محمد صلى الله عليه وآله فقد زعم فريق منهم أنه رجل به جِنَّةٌ قياساً من جهة على ما كان سائداً في أيامهم من العرافة والكهانة ، اللتين تعتمدان الجن ، ومن جهة لزعمهم أن الحروف المقطعة ، ربما كانت من لغة الجن وكلامهم ، لا سيّما وأنهم كانوا يعتبرون الجن خلقاً أعقل وأقوى من الإنسان ، وأنهم يعلمون غيب السموات والأرض ، لذلك كان بعض الناس آنذاك يلجأون إلى الجن يسألونهم عن الغيب ، فكانت شياطينهم تكذب على الناس ، بما لم ينزل الله به من سلطان .

أما حكاية شق وسطيح وأوصافهما وأخبارهما فمطعون بها ومعتبرة من جملة الأساطير .
وأما قضية عبد المطلب وولده عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه لجأ إلى امرأة قيل إنها عرافة تستعين بالجن ، فهذا الأمر أيضاً تجنّى فيه بعض المؤرخين على الحقيقة ، والواقع أن هذه المرأة اشتهرت بتقواها وبالحصافة والحكمة ، وكان يقصدها الناس لشهرتها ، فكانت تشير عليهم بالرأي

(1) سورة آل عمران ، الآية 7 .

(2) سورة الحج ، الآية 67 .

السديد ، والسلوك الرشيد . وعندما منع العرب عبد المطلب من ذبح ابنه عبد الله وفاء لنذره ، قصدها مع رهط من قومه ليرى رأيها في هذا الأمر الخطير ، وكان لله سبحانه شأن عظيم ، حيث شاء أن يكون صفوة الله في خلقه محمد صلى الله عليه وآله ابناً للذبيحين : إسماعيل الذي فداه الله بكبش عظيم ، وعبد الله الذي فداه عزّ وجلّ بمائة ناقة ، وقد أوحى سبحانه إلى تلك المرأة ، كما أوحى من قبل إلى أم موسى عليه السلام . وذلك لأن الأمر يتعلق برجل في

صلبه أعظم رجل في تاريخ البشرية محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وقد جعل الله هذه المقدمات ، إعزازاً وتكريماً له ولبيته الكريم ، بسبب دورهم الجهادي التاريخي العظيم .

فسألت المرأة القوم : كم فدية الرجل عنكم ؟ فقالوا : عشر نياق ، فقالت ، ضعوا عبد الله في جانب ، وضعوا في جانب آخر عشر نياق ، ثم أرسلوا القداح ، فإذا اختارت عبد الله فريدوا عشراً ، وهكذا حتى تتحول القداح عن عبد الله . وتمت مشيئة الله ، إذ ظلت القداح تختار عبد الله عشر مرات ، في كل مرة تزداد معها الإبل عشراً ، وعندما أصبح عدد الإبل مائة ، تحولت القداح إلى الإبل ، وهو فداء ما عرفه تاريخ العرب ، تحدّث به القوم طويلاً في أنديةهم ، وتحدّثت به الركبان ، وتحدّثت به الأجيال وما زالت . وما أروع عبد المطلب ، وما أصدق إيمانه وما أعمقه ، حيث إنه أصرّ على إرسال القداح ، بعد ذلك ثلاث مرات تباعاً وفي جميعها تقع القداح على النياق ، وعندها تنفّس الصعداء لا حرصاً على عاطفته ولا حرصاً على ولده ، ولا حرصاً على مشاعر العرب ، وإنما حرصاً على رضى الله عزّ شأنه ، ربّه وربّ عبد الله ، وربّ العرب والعجم ، ربّ العالمين ، وهكذا أصبح على يقين لا يعتوره أدنى شك أن الأمر كله ، إنما هو بتدبير من الله سبحانه وبعنايته ورحمته ، وأنه سبحانه ابتلاه فنجح في الإبتلاء فجزاه خير الجزاء .

أعلى يد امرأة؟! هي كلمته سبحانه يجربها على يد من يشاء من عباده ، رجلاً كان أم امرأة ، ولشّد ما يجرح مفهوم التوحيد والفكر الإسلامي

فيما بعد ، أن ينسب ذلك إلى الكهانة أو العرافة أو الجن . إنما هي الحنيفية ، حنيفية إبراهيم ، التي كان ما زال عبد المطلب محافظاً حريصاً عليها ، وهو الذي يعرف بيقينية عظيمة ، أن الله وحده تبارك وتعالى هو الذي هيأ له ولإبنه من أمرهما فرجاً ومخرجاً . وكلمته لأبرهة الأشرم الذي قاد جيشاً لهدم الكعبة ، ما زالت تدوي في سمع البشرية : (أما الشياها فأنا ربّها وللبيت ربّ يحميه) .

وصدق عبد المطلب إذ حمى رب البيت بيته ، واللائذين بيته ، ومزق أبرهة وجيشه شرّ ممزق . فلو كان عبد المطلب يؤمن بالعرافة وبأن الجن تأتي بالغيب ، لكان لجأ للعرافة وللجن ليدفعا عن البيت العتيق الذي يتولّى هو سدّانته .

وأما الأواخر ، وخاصة في قرننا هذا العشرين ، فهم أيضاً ، وفي سياق ما اتهموا به جميع الأنبياء ، ومبدأ النبوة أصلاً ، فقد اتهموا محمّداً صلى الله عليه وآله بحالة من الجنون ، ولكن بصياغات وعبارات مستحدثة ، أبرزها أن ما تركه هو حالة من الهذيان ، هي من نتاج العقل الباطن ، مع تأكدهم أن صاحب هكذا حالة ، يكون حديثه فوضى لا يقوّه عقل ولا علم ولا منطق ، وحيث إنهم لم يجدوا ثغرة لينفذوا منها سواء في شخصية محمّد صلى الله عليه وآله أو في القرآن الكريم ، فقد تمسكوا بهذه الأحرف المقطعة ، واعتبروها مصداقاً لنظريتهم واتهامهم ، إذ إنّها لا تعني لأحد شيئاً ، متوقفين عندها ، متعامين عن البناء الشامخ للقرآن العظيم ، كمن لا يرى من الكعبة إلاّ مزاربها الذي من ذهب ، ثم يقف عند ظاهر بريقه ، ناسياً حقيقة معدنه فضلاً عن سرّ الرحمة الذي فيه .

وأصحاب هذا الزعم ، هم من الغربيين خاصة ، الذين اشتغلوا بعلم النفس وبعض أتباعهم من المسلمين ، الذين ، وبدون أدنى مسؤولية في حمل أمانة العقل والخلق والبحث العلمي ، اطرحوا القرآن ، ولم يكلفوا أنفسهم في حالات كثيرة حتى مجرد قراءته ، في وقت يجهدون فيه

أبصارهم وأعصابهم وكواهلهم ، بقراءة أحمال من الكتب ، فقط لأنّها مكتوبة بلغة المتفوقين في حقل الحضارة الآلية ، أو مترجمة عنها . ولو كان أكثر هذه الكتب محشوّاً بالضلالات والبدع المهلكات ، ولو كان في جملة الحضارة آلة دمارها وهدمها على نفسها .

وصحيح أن الثقافة العالية والتوسّع فيها مطلب رئيسي ، وهو عندنا واجب ديني ، ينبغي الحثّ عليه واعتباره في جملة العبادات ، إلاّ أنّ شرطه أن يكون بالعقل المستنير ، وليس بالنفس التابعة والعينين الضيقتين . والمؤسف جداً أن هؤلاء الأتباع ، أهملوا حتى العين الضيقة

واستناموا إلى طريقة التلقين : أسيادهم ، في فوضاهم الفكرية يقولون ويكتبون ، وهم يرددون وينسخون .

وهذا هدر لكرامة الإنسان ونعمة العقل ، والعقل والكرامة ، يعاقب الله سبحانه على التفريط بهما ، فساداً وإفساداً ، وضلالاً وإضلالاً ، ويعذب على ذلك في الدنيا والآخرة .
بلى لعلم ما في الذرة والمجرة وما بينهما ، وعلم ما كان أدق وأعظم ، بلى لفثوحات العلم في الأفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنه الحق ، بلى للفكر المقارن والثقافات المقارنة النافعة المؤدية إلى رضى الله ورضوانه ، بلى للتفاعل وتلقيح جميع معطيات الإنسان بالأفضل والأحسن حسب مقاييس الشريعة الإلهية ، أخذاً وعطاء ، وتمثلاً للنافع ، وتجنباً للضار ، وتحذيراً من الخطر . وبالنتيجة فإن الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أين يجدها ، كما جاء في الحديث الشريف .

ولكن لا لمصنفي الكتب التي بلا موازين ولا معايير ولا تستند إلى علم ولا كتاب مبين ، ومكدسي الأوراق تحت عنوان أنهم من أهل الفكر ، ولا يفكرون ، إنتاج على طريقة الآلة بدون أعمال عقل وروية ولا مسؤولية أمام الله فأين يذهبون والله يقول :

{ .. سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } (1) .

لا لتجار الفكر ، والمرابين بالكلمة الماكرة ، وأثوابها المستعارة ، الذين يخونون الله ورسوله ويخونون أماناتهم زحفاً وراء مال أو شهرة أو كليهما مجتمعين .

ويا ويلهم يوم يطالبهم الله بقوله سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (2)

وأخيراً وليس آخراً ، لا للمقلدين على طريقة القرد والإسكافي الذي سنّ السكين ومرّرها على عنقه فقلّده القرد ، فذبح نفسه ، إلا أن مقلدي أهل الباطل والفكر الباطل ، إضافة إلى أنفسهم ، أدموا الإنسانية وتهجموا على رسالة السماء التي هي الإسلام والذي هو سفينة نجاة البشرية وما زالوا يحاولونه طعناً وتجريماً ، ولولا أنّ الله بعزّته سبحانه وعد بنصرته وإظهاره على الدين كله إلى قيام الساعة لكان في ذبائحهم منذ زمن طويل . قوله تبارك وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (3).

ومن هو الخاسر ومن الراجح ، أنياً ومستقبلاً ، على كوكبنا هذا ، وغداً بعد الموت والإنبعاث عليه وعلى غيره من الكواكب ، التي يقول العلم إن منها الرائع جمالاً ولطافة مناخ، وهنائة جاذبية يستطيع الإنسان معها الطيران ، ومنها الموحش المفزع ، حيث تصل درجة الجذب إلى ثقل مرهق ، بالكاد يستطيع الإنسان معها قلع قدميه من الأرض ، وتصل درجة

(1) سورة القلم ، الآيات 44 . 45 .

(2) سورة الأنفال ، الآية 27 .

(3) سورة التوبة ، الآية 33 .

الحرارة إلى درجة غليان الماء كما هو في الزهرة ، وذوبان الحديد كما في عطارد ، وهذه الأمثلة ليست للحصر والتحديد ، وإنما لأخذ فكرة أولية ، عن حكاية الخلود في نعيم أو الخلود في جحيم .

تقدم بلا غاية :

الحقيقة أن كثيراً من الناس ، من الذين يدهشهم التقدم العلمي في الكون وفي ذات الإنسان ، نراهم يتعاملون مع هذه المدهشات ، بدون غاية ، يرتبطون بها ويبدلون الجهود للحصول عليها أو الوصول إليها ، ونجد أنهم مثلاً يعتقدون بإمكان أن يغزوا الكون ، ويسكنوا الفلك ، اعتماداً على التقنية العلمية .

صحيح أنه حلم جميل ، وصحيح أن العلم ما زال يراود الفضاء ، وأن بالإمكان الوصول إلى غير القمر . ولكن تبقى الحقيقة التي تنغص هذا الحلم ، وتدعو الإنسان لأن يحترم نفسه ويكون أكثر واقعية ، وأبعد عمقاً . إذ أن الملايين ماتوا قبل هذا الإمكان . الحلم . ، وسيموت ملايين مثلهم بعد هذا الإمكان ، إذا أمكن هذا الإمكان ، لأنه سيكون وقفاً . أقله حتى نهاية العام ألفين . على رواد الفضاء وحفنة من أثرياء العالم . فما هي الحصيلة الدنيوية والأخروية ، للذين ماتوا قبل هذا الوصول ، والذين سيموتون بعد هذا الوصول ؟ أم هي مباهاة القرعاء بشعر بنت الخالة ، أو افتخار الأعمى بزرقاء اليمامة ؟

فهل سألوا عن أدوارهم ومسؤولياتهم في الحياة الدنيا هذه ، أيرضون بالتبعية للقوي يأكلون من فئات خبزه ؟ أم يبحثون عن السبل التي تجعلهم أقوى منه ، وصولاً إلى الغاية التي هو شدّ عنها وانحرف على متن صاروخ أو مركبة فضائية ، على حساب شعوب مقهورة ، وملايين البطون الغرثى والأفواه الفاغرة ، جوعاً وعجباً ونصباً :

{ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } (1)

(1) سورة غافر ، الآية 21 .

فما شفعت لهم حضارة ، قيل فيها ، كحضارة (أطلس) ، أنها كانت أعظم من حضارتنا اليوم ، ولا شفعت لهم قوّة ، ناهيك عن إغراقهم في المعاصي والذنوب . فبأية قوّة يقون أنفسهم ويدفعون عنها عذاب الله ، وقد قضى أن ينزل بهم عذابه وغضبه سبحانه وتعالى عمّا يشركون . واليوم كالأمس ، والأمس كسابقه .

أُمَّمٌ تَتَحَوَّلُ إِلَى قَرَاصِنَةٍ وَدِينِ التَّوْحِيدِ مَمْنُوعٌ :

نعم ، { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ } صدق الله العظيم .

طغى الإنسان في ميزان الحضارة والله عزّت قدرته يقول له :

{ أَلَا تَطْعَمُوا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (1) .

وهو يعمل كذلك على مسح الأرض ، ففي المدن الكبرى من أوروبا إلى أميركا إلى الصين إلى اليابان ، تضيق أنفاس الناس لتناقص الأكسجين في الهواء وتزايد ثاني أوكسيد الكربون فمن هذه الزاوية فقط يسيرون باتجاه الكارثة ، فكيف سيكون الحال مع بقية الزوايا الفتاكة والأسباب المدمرة ؟

أما السبب الأساسي في الوجه القبيح للحضارة ، هو نسيان أن الحضارة بإيجابياتها وجمالياتها ، هي من نعم الله وعطاءاته ورحمته :

{ ..وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.. } (2) .

والله يبشّر الشاكرين ، بالزيادة من فضله وينذر بالعذاب الشديد الذين يكفرون بنعمه ،

يعني لا يشكرون الله عليها لا قولاً ولا عملاً ، قوله تعالى :

{ ..لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } (3) .

(1) سورة الرحمن ، الآيات 9 . 8 .

(2) سورة إبراهيم ، الآية 34 .

(3) سورة إبراهيم ، الآية 7 .

والعذاب يضرب به أو يصيب به قرى ومدناً وأماً ، وأفراداً وجماعات بين خسف وقصف ،

وحروب وفتن ، وبلاءات وأمراض ، وخوف وجماعات :

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } (1) .

ونسيان كون النعم من لدن الله ، كفر بالنعم ، ونسيان ذلك مدعاة لعدم شكر الله

عليها . والشكر إنما يكون قولاً وعملاً ، سداداً ورشاداً ، وعدلاً واستقامة .

نعم السبب الرئيسي في قبح الحضارة ، هو التحوّل عن عبادة الله وحده دون شريك ، إلى عبادة الذات والولاء لمراكز القوى في الناس ، وتعلّق القلوب بمصادر النفع فيما خلق الله سبحانه ، وهذا الولاء وهذا التعلّق فيهما شرك خفي وهما عبادة لغير الله . فالإنصراف عن التوجّه التعبّدي لله وحده ، دعاء واستغاثة وجهاداً وثقةً وتوكّلاً ، إنّما ينتج عنه تفرّغ الإنسان من الصفاء والعافية ، والحدس المرهف الذي لا يستمر إلاّ مع الإيمان المرهف .

وحيث إنّ التوحيد ، توحيد الله ، جلّت عظمته ، هو فطرة وعهد في أعماق الإنسان ، كل إنسان ، فنستطيع أن نقول ببساطة ، إنّ أهم الأسباب في غرق الإنسان في وحول الحضارة وقباحتها ، وخنق جمالياتها وأصالتها التي فيها السعادة ، هو عدم التوحيد ، وبعبارة أخرى هو فكر التوحيد المزعزع ، نتيجة للتوجّه البهيمي بعيداً عن كمال الحقيقة الإنسانية ، الذي لا يكون إلاّ بالله ولله وفي سبيل الله .

(1) سورة النحل ، الآية 112 .

من هنا الإنذار بالدمار ، ومن هنا قرع الناقوس بخوف ، ورفع الآذان بوجل

إن التوحيد في خطر :

وبما أن توحيد الله سبحانه يدعو إلى وحدة المجتمع الإنساني تحت رايات العدل والمساواة والحرية ، ويرفدها الحق ويرفدها الخير ، ويرفدها الجمال ، وتلك هي أركان الشريعة الإلهية .

فما دام التوحيد ، هذا الأصل - الذي هو أصل الدين - في خطر ، فإن أهل الأرض إذن جميعاً في خطر - إلا من رحم ربك .

التوحيد في خطر ؟ نعم ، وقد أُلغِيَ من القارات الخمس ، لولا بعض البقاع القليلة جداً ، والضيقة جداً ، حيث حوَصِر فيها وضيق عليه ، تحت وطأة القمع الشرس والملاحقة المتوترة والتعذيب وسفك الدماء ، بقيادة حلف إسلامي - نصراني - يهودي . تحت شعار الديمقراطية .

إذن باسم الديمقراطية تشنّ بلا هوادة ، الحرب على الإسلام الحقيقي ، لأنه رسالة السماء التي فيها خلاص البشرية ، لأنه دين الله .

فالتوحيد ممنوع ، بموجب قرار دولي صادر عن هذا الحلف الشيطاني المثلث ، الذي يمثل أعداء الله في القرن العشرين على هذا الكوكب :

دين الله ممنوع ، إذن أعداء الله في خطر ، يقيناً هم على حافة الهاوية . وإذا كانوا ممنوعوا العدالة في الأرض ، فليمنعوا عدالة السماء .

اللاأخلاقية ... شعار حضاري عالمي مععلن :

إذا احتاج الإنسان إلى أي لون من ألوان العون أو المساعدة ، فمن البديهي أن يحكم العقل باللجوء إلى الأقوى يعني إلى المهيمن على مراكز القوى ، الذي هو الله سبحانه ، تارة من الله إلى الأسباب ، وتارة من الأسباب إلى الله ، والأولى أولى وأرقى وأكثر عدلاً ، وأعزّ وأزكى ، وأشرف وأعلى ، وأبلغ قرباً وأكثر حباً أما مع الثانية فينبغي العمل ضبطاً وربطاً مع مراكز

القوى ومتفرعاتها ، على أساس أنها وسائل يُتَوَسَّلُ بها إليه سبحانه يَسَّرَهَا للعوام ، الذين يرتاحون إلى الوسيلة والواسطة ما دامتا توصلان إلى الغاية ، أما شرف الوصول إلى الغاية بدون وسيلة ولا واسطة ، فليس للعوام ، وإنما هو لمن يجتبيهم الله ويختصهم بعلمه وبفضله وبرحمته ، على أن يتمّ نشاط الفريقين ، في ظلّ شريعته ، وفي ظلّ كلمته ، فإذا كانت كلمة الله هي العليا ، استراح الناس وسعدوا برّبهم ، وسعد الإنسان بأخيه الإنسان .

ولكن الشائع بين الأفراد ، وبين الدول ، في حضارة هذا العصر ، هو التنافس الشديد ، من أجل الوصول إلى أهل الحل والربط ، من السياسة والعسكر ، وأرباب المال ، وطواغيت

الثقافة التبنية ، والتراث المكرور ، الموميائي ، المحنط ، ممّا يؤدي إلى التنافر والتزاحم والحسد ، من جانب ، وإلى تكاثر النماذج المفرغة من المناقب والقيم والتجدد النوراني ، من جانب آخر .

وهكذا يبذل الوصوليون ، على درج المادية ، مالاّ وعرقاً ، وهدايا وتزلفاً ، وجهوداً كبيرة ورياء ، بين زحف وركوع وهدر كرامات .

والله يغضب من ذلك . وغضبه عقوبته .

فعلى صعيد الأفراد ، من لو استطاع أن يكون مطية ، أو حتى أسيراً عند حاكم ، أو متسلط ، أو نافذ من أكلة الجبنة ، وحظي منه بحاجته ، فذلك هو الذكي ذو العقل الكبير المفلح المنجح . ومن لم يستطع يتدرج على الهرم الحضاري ، وكم تدمى على هذا الهرم الأقدام والركب ، للوصول إلى أهل (السرايات) .

والله يسخط على ذلك . وسخطه عذابه .

وتبقى في صدور الطموحين على صعيد الدنيا ، غصص لا تبرأ ، إلاّ عند جنرال ، أو أيّ ضابط أو حتى شرطيّ . هذا في بلاد الأمان . أما في بلاد الفلتان ، وانقلاب المقاييس وفوضى القيم ، فعند زعيم الميليشيا

اللا دينية واللا أخلاقية أو عنصرٍ من عناصره المسلحين ، أو السفاحين ... باسم الدين .
وباسم الدين قتلوا ونهبوا واعتدوا وروّعوا الشيخ والصبي والمرأة والطفل الرضيع ، ولقد لفحتكم نارها يا قادة الغرب والشرق ، أفلا تتقون الله فيهم وفي شعوبهم المقهورة بديمقراطياتكم العجيبة . والعين الطمّاحة ، أبداً على السدة ، حيث منها " الشطار " يشمّون ويضمّون زهرة الحياة الدنيا . وهكذا ضحاياكم بين التآمر السياسي والخلق الحضاري الهجين .

والله يمقت كل ذلك .

لذلك القيامة الصغرى وأهوالها على الأبواب .

ولغة (الشطار) نجدها منطقاً مقبولاً جداً تحت راية العلمنة ، أو الشعوب التي أعلنت استقلالها كلياً أو جزئياً عن الله جلّت عظمتة وعزّ شأنه ، وعن رسالته التي تقرأ في الإذاعات كما يقرأ النشيد الوطني في لبنان أو في حيّ هارلم في الولايات المتحدة " والله أعلم حيث يضع رسالته " .

ومعظم الناس مع هذا المنطق فريقان : الأول فريق اللادينيين ، الذين تعاقدوا مع الدنيا ضد الآخرة ، لمدة في العقد أقصاها مائة سنة ، مع حسابان المفاجآت ، من صدم وبتر وموت ومرض ... يحتاطون لها بإحالتها على شركات التأمين .

والفريق الثاني هم الدهاة بين ملحد ومشرك ومنافق ، ومنهم دينيو الثوب ، حيث الجوهر يقرئكم السلام ، تجار فجار ، يتذرعون إلى صيدهم بالتواضع المصطنع والتمسكن والمداهنة :

{ .. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا }⁽¹⁾ .
وقوله سبحانه كذلك فيهم :

(1) سورة النساء ، الآية 142 .

{ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }⁽¹⁾ .

أو هم من (الحواريين) الذين تلبسوا دور موسى وهارون ، ونسوا كفر فرعون وهامان ... وشغفوا حباً بقارون ...

وكل ذلك يتداخل على سبيل التفصيل ، في اللاأخلاقية الدولية والعالمية التي نتحدث عنها .

وأمثلة على ما شوّه أهل الحضارة في الحضارة ، تلك القيم التي هي ركائز الإنسانية ،

والتي هي كما أراد الله سبحانه ، قواسم مشتركة ، بين الشعوب على اختلاف الأجناس والملل ، التي هي ثوابت في مفاهيم البشر ، لا تؤثر في النظر إلى قيمتها الإيجابية ، لا العصور ، ولا مزاعم الجدلية التاريخية والصراع الطبقي .

وهذه الثوابت ، مثل نصرة الضعفاء ، ومكافحة الظلم ، ونشيدان الحرية ، والعفة ، والحكمة ، والحشمة ، والكرم والشجاعة في الحق ، والحلم والتسامح ، والدفاع المشروع... إلى آخر ما هنالك من أصول وفروع الأخلاق ، التي بها يكون الإنسان إنساناً ، والأمم أمماً . أما إذا طغى فيها الإنسان سقط من إنسانيته ، وإذا طغت فيها الأمم ، تحوّلت إلى عصابات لصوصية وقرصنة ، كما هو واقع الحال ، والشواهد على ذلك ماثلة للعيان ، مدوية في الآذان ، تعبر عنها طرق التهديد والابتزاز الحقيرة السافلة ، كما تنطق بها المدافع والقذائف واستعراضات الأساطيل في البحار والأجواء ، والتي تزرع الحقد حتى في قلوب ملايين الأطفال ، الذين يحملون وهمّهم الأعظم أن يكبروا لينتقموا وهم سيشكلون في المستقبل القريب أكثر من ثلثي العالم ، فكيف تفهمون الدين ، وإن لم يكن

(1) سورة البقرة ، الآيات 10.9 .

لكم دين فأنتم ترعون الديمقراطية ، فأية ديمقراطية تمارسونها ، وإن لم يكن ديمقراطية ، أفما بقية من أخلاق وحكمة وإنسانية ؟ ، أية سياسة تنتهجونها يا قادة ويا سادة ويا أتباع . وما رأيكم بإبادة هؤلاء الأطفال ، يعني إبادة شعوبهم لتتخلصوا من هذه الورطة ، وهذا مستحيل ، لأن الله عزّ شأنه يحفظهم ويحميهم حيث قد جعل لهم شأناً لن يطول الزمان حتى يظهره :

{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (1) .

وإن لم يكن خوف من الله المنتقم الجبار ، أفما تخجلون من نسائكم ؟ إن كنّ ما زلن

يقدرن أخلاق الفروسية ورجولة الرجال . وما رأيكن يا نساء العالم وفيكنّ رئيسات الوزارات ورئيسات الجمهوريات ، وهل أطفالكم يا نساء العالم ويا قادة ويا سادة ، أفضل من هؤلاء الأطفال الذين يرتجفون كفراخ العصافير إذا بللها المطر ، يرتجفون من هداياكم إليهم ، ومتى كان السم هدية ، متى كانت الصواريخ والقذائف المحرقة المدمرة هدايا للأطفال تمزقهم أو تروعهم يا نساء العالم ، ويا رجال العالم ، ويا قادة ويا سادة .

وانحراف الفرد وانحرافات الأمم عن دين الله ، من مستدعيات غضبه جلّت عظمتها ، والعقوبات بين معجل ومؤجل ، وكثيراً ما تكون العقوبات واقعة على إنسان ما ، أو مجتمع ما ، ولكن أكثر الناس بحكم تعاملهم بالمعادلات الزمنية والظاهرية ، ولعدم حرصهم على الإيمان ومعرفة الله سبحانه وتقواه ، تغيب عنهم الحقائق التي في المعادلات الإلهية ، والنتائج المترتبة عليها ، والتي قد يكون فيها الخسف والقصف ، أو الإغراق في الرفاه والنجاح الظاهري المؤقت ، ولكنه الملغمّ بأسباب الدمار والهلكة .

(1) سورة الطلاق الآية 3 .

وهذا واقع الحال في حضارتنا حضارة القرن العشرين ، في شتى بقاع الأرض ، ولكل بقعة حساب ، والله أسرع الحاسبين .

(10)

بين القرآن والكتاب المقدس

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقُدْرِهَا ... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ... } .

(17 : الرعد)

{ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } .

(10 . 7 : الشمس)

العقل ... أم النفس الأمانة ؟

العقل يدرك الكمال ... ويتكامل بخالقه .

في الواقع الموضوعي ، إن تاريخ البشرية المعروف ، بما فيه من إيمان وإلحاد ، وفكر

وفلسفات ونشاطات عقلية ، ما ادعى فيه إنسان كمال العقل بمعنى أنه ينتج الكمال . أما بمعنى أنه يدرك الكمال ويتلقاه ، فمتفق عليه عند معظم الفلاسفة والمتكلمين والمناطق ، سوى قلة من السفسطائيين لا يعتد بآرائهم . وصدق الله العظيم ، قوله :

{ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } (1) .

وقوله :

{ ... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } (2) .

وقوله :

{ ... وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... } (3) .

فإذن : هذا العقل يقبل الزيادة ، وإذن فيه قابلية التكامل ، ولكن كيف ؟

(1) سورة الإسراء ، الآية 85 .

(2) سورة طه ، الآية 114 .

(3) سورة البقرة ، الآية 255 .

والجواب : بالله ... بما أوصل إليه من التنزيل مضموناً أن لا يحرف ، ويعلم لديني بغير قلم : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (1) .

وقوله تعالى :

{ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا } (2) .

وبما يهدي إليه سبحانه من عرفانٍ مكتوبٍ :

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } (3) .

وبما يظهره إليه من علمٍ مكنونٍ :

{ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (4) .

وبما يكشف له ما يشاء من الأسرار :

{ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... } (5) .

ثم إن هذا العقل يرى أن العلم ما استطاع أن يدحض ولو إشارة بسيطة واحدة من

إشارات القرآن . وإن كل كشف علمي لا يتم إلا بإذن الله تعالى ، سواء أتى هذا الكشف على يد مؤمن أو يد ملحد :

{ سُنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... } (6) .
وإن القرآن أخبر عن حقائق وأسرار ، كان يجهلها أهل الأرض وقت

-
- (1) سورة الحجر ، الآية 9 .
 - (2) سورة الكهف ، الآية 65 .
 - (3) سورة القلم ، الآية 1 .
 - (4) سورة العلق ، الآيات (5.4) .
 - (5) سورة الفرقان ، الآية 6 .
 - (6) سورة فصلت ، الآية 53 .

نزوله ، ثم عرفهم الله بعضها عملياً بعد أكثر من عشرة قرون من تنزيله . وإن القرآن ما زال فيه علم ما يجهله الناس في هذا العصر ، رغم تقدم العلوم ، والمستقبل حقيق أن يكشف هذا الأمر ، كما عودنا القرآن المجيد في أيامنا هذه وفي العصور السالفة وحتى قيام الساعة .
والإنسان المفكر ينبغي أن يسأل : من أين أتى القرآن بهذه الأسرار والمعلومات ؟
والجواب أنه من الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

هذا السؤال والإجابة عليه إذا عُقِلَ النظر فيهما لعرف الناس أن الله عزت قدرته هو وحده وراء كل علم حقيقي وكشف علمي في مشارق الأرض ومغاربها وفي الكون كله ، منذ خلق السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما . هذا العرفان ، يجب أن يغدو عامل خجل وإدانة قبل الدينونة ، لأصحاب الرأي الشائع بين معظم المثقفين اليوم ، حول ما يسمونه سلبية الدين في التعامل مع الكشف العلمي ، وهذا الرأي خلاصته أن التدين كان بشكل عام ، عائقاً عن الإكتشافات العلمية ، وإنتاج العباقرة ، ولذلك بقيت المجتمعات المتدينة ، تعاني من الفقر

والتأخر والأمية العلمية . فالحمد لله على نعمة التدوين ، والحمد لله الذي اختصنا بمعرفته ولم يشغلنا بعلم سيكون عاراً وشناراً ودماراً على أصحابه في الدنيا والآخرة .

أحزاب العلوم . يتهم !؟

النفوس الأمية هي التي تتهم الإسلام ، أما المستنبرون بالله فهم مسلمون . وتذكر الهوية ليست مقياساً ، بل هي بالنسبة لأكثر الناس كالحامل حتفه بيده .
إن سوء الاطلاع ، ليس فقط على مضمون الإسلام ، بل حتى على تاريخه الظاهري ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، البطشات الرهيبة التي بطشتها الكنيسة بعلماء أفاذا ، هذان الأمران متلازمان ، جعلتا النفوس الأمية تتهم الدين عامة وضمناه الإسلام ، بالقمعية ضد العلم والعلماء .

وفي صدد الرد ، نسأل القارئ الحصيف ، هل علمت يوماً ، منذ القرآن الكريم ، أن أئمة الدين الإسلامي وعلماءهم (في مقابل البابوات) أقفلوا ، باسم القرآن ، أبواب البحث العلمي ، كما فعلت الكنيسة ، باسم التوراة والأنجيل ؟ أو هل هم ردوا حقيقة علمية بعد كشفها ، في حين _وباسم التوراة والأنجيل_ ستمت الكنيسة العلماء هرطقة ، وكانت تحاكمهم بهذه التهمة ، تهمة الهرطقة ، في محاكم التفتيش التاريخية المخيفة .

الواقع أن أئمة المسلمين وعلماءهم ، لم يفعلوا شيئاً من ذلك أبداً ، لأن الإسلام في الحقيقة هو محراب العلوم ، وأساسها المتين ، وكيف يتنكر الأساس المتين للعمارة والأيدي التي تشارك في بنائها ، مهما كانت أجناس هذه الأيدي أو خلفياتها .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن حضارة أسسها الإسلام على العلم ، وظلت منارة الدنيا لأكثر من سبعمائة سنة ، كانت أوروبا أثناءها غارقة في الجهل والأمية والتخلف .

صحيح أن العالم ، فجع بعلماء عظام . باسم الدين . على يد الكنيسة ، عبر فترة من الزمن ، وأن الكنيسة كانت تنطلق في ردود فعلها من الكتاب المقدس في عهده القديم

والجديد ، يعني التوراة والأنجيل . والحقيقة أنها الكنيسة ، ولا التوراة المجموعة مع الأنجيل ، فيما يسمى (الكتاب المقدس) Bible ، كانا يمثلان دين الله في هذه العصور تمثيلاً كاملاً ، وخالصاً لوجه الله تعالى . بل كانت الكنيسة ، وباعتراف المسيحيين المدون في كتب التاريخ ، قد انحرفت انحرافاً خطيراً عن تعاليم المسيح عليه السلام ، فضلاً عن أنها لم تكن عندها معطيات أن تناقش أية قضية علمية في ضوء النصوص الدينية ، الموجودة لديها في القرون المتأخرة ، لأن تلك النصوص لم تكن صالحة لتقويم أي موضوع علمي ، بسبب ما مرّ عليها من تحولات : بين فقد أصولها الأساسية من جهة ، وبين نقل وترجمة وتحريف من جهة ثانية . وهذا يستحيل أن يقال شيء منه عن القرآن الكريم ، بشهادة جميع الباحثين العالمين ، الذين تصدّوا لدراسة مقارنة بين الكتب الدينية الثلاث ، ولا سيّما في مجال الحقائق العلمية التي توصلت إليها الكشوف .

ولعل أبرز من تصدّى لهذا الموضوع في السبعينات والثمانينات ، هو المفكر الفرنسي الدكتور موريس بوكاي .

ونحن إذ نهنيء هؤلاء الباحثين المنصفين . على قلتهم . بنتائج صدقهم وتجردهم ونبارك لهم الفتوحات العقلية التي فتحها الله بسبب انتصارهم للحق وتصميمهم على انتهاج طرق العقل ، بدلاً من التعصّب الأعمى والانفعال ، ندعو المفكرين خاصة ، والمهتمين بقضايا الفكر عامةً ، إلى قراءة ذلك الباحث موريس بوكاي ، في كتابيه الصادرين تباعاً ، الأول : (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) الصادر سنة 1976م والثاني : (الإنسان من أين جاء) . حيث يعرض في هذين الكتابين ، وبالبراهين العلمية والعقلية الحاسمة أن الكتاب الوحيد المنزل من لدن الله تبارك وتعالى ، أو الذي يستحيل إلا أن يكون من عند الله سبحانه ، والذي لا يزال في الأرض على ثباته كما أنزل هو القرآن الكريم ، وأن الكتاب المقدس Bible بعهديه القديم والجديد ، أي التوراة والأنجيل ، حرّف وحوّر وبدّل وأنقص منه وزيد عليه ، وأنه يتضمن مغالطات ضخمة من وجهة نظر العلوم .

ونحن هنا ، وإبراءً للذمة ، نورد لموريس بوكاي بعض الفقرات ، ممّا سيكون حجة على المفكرين والباحثين في جملة الحجج وما أكثرها : لماذا توصل موريس بوكاي وأمثاله إلى الحق فارتاحوا وأراحوا ، بينما بقي الآخرون مصرّين على العمى والضلالة ، فتعبوا وأتعبوا معهم الذين لا يعقلون ... إلى الأبد ...

يقول موريس بوكاي :

" إننا عندما نقيم الدليل ، وبالاستناد دائماً إلى النصوص ، على أن القرآن يحتوي في طروحاته ، حول نقاط معينة على أفكار تتطابق والعلوم

الحديثة ، في حين أن الإنجيل يعالج نفس النقاط بطريقةٍ مغلوطَةٍ علمياً " .
" إن الفترة الأعظم من تاريخ الحضارة الإسلامية ، والتي شهدت تقدماً علمياً ضخماً ، هي تالية وبقرون عديدة لعصر تنزيل القرآن " .
ويقول في مكان آخر من بحثه :

" كل هذه الملاحظات المثيرة لكلّ من يتناولها بتجرّد ، والتي لم تثبت علمياً إلاّ بعد قرون عديدة متأخرة ، تضع حديثنا في إطارٍ يمنح المسألة أبعاداً كبيرةً " .
ولكن يبقى السؤال المطروح نفسه :

" ولكن ينبغي أن نعلم أن خاصيّة القرآن هذه ، ليست نتيجةً لعمليات حذف خضع لها النص القرآني ، في العصر الذي كانت تكتشف تلك الأخطاء ... إذ أن المخطوطات الأكثر قدماً للقرآن ، والنصوص المعاصرة ، تتماثل بشكل قاطع ، برغم مرور أكثر من ألف سنة ، على تنزيل القرآن ، وبالتالي لو كان محمّد ، هو مؤلف القرآن فعلاً . وهو الغرض الذي يأخذ به البعض . فكيف أمكنه أن يكتشف الأخطاء العلمية الواردة في الإنجيل حول مسائل كثيرة ، وأن يتلافها عندما وضع . حسب الغرض . نصاً يتناول نفس المسائل ؟ علماً بأنه منذ كتابة الإنجيل ، وحتى عصره ، لم تتوضح أية حقيقة علمية جديدة ، بحيث يمكنه على ضوئها ، تلافياً تلك الأخطاء " .

" لقد رأينا سابقاً (أي في فصل سابق) أنه بالنسبة لمفسري الكتاب المقدّس ، ينبغي

اعتبار كتب العهدين القديم والجديد (أي التوراة والإنجيل) على أنها كتبت بالإلهام " .
وفي مكان أيضاً من كتابه :

" وهناك مخطوطات من القرن الأول للهجرة توثق النص المتداول الآن ، ثمّة عنصر آخر للتوثيق ، هو حفظ القرآن غيباً ، وقد تواصل ذلك منذ عصر النبي " .
" ... وقد وجدت أجزاءً من القرآن ، تعود للقرون الأولى للهجرة ،

متشابهة تماماً للمخطوطات الأكثر قدماً . وكل الطبقات المعاصرة ، ليست إلاً استنساخاً للنماذج الأصلية . فالقرآن لم يخضع لعمليات كتابة متعددة يصبح معها نصّه عرضةً للتحريف عبر الزمن . إذ لو كان مصدر القرآن مشابهاً للإنجيل ، لكان من المتوقع ، أن تستند الموضوعات التي يتطرق لها إلى مفاهيم ، تعكس معتقدات عصر التنزيل ، مع ما فيها من أساطير وخرافات مختلفة ... وبالتالي فإن النص ، سيكون ممتلئاً بالأقاويل الموروثة ، ذات المنشأ الأسطوري غالباً . وهكذا فإن فرص إدخال أقوال مغلوبة في النص ، ستصبح فرصاً مضاعفة ، كما بخصوص الموضوعات المذكورة آنفاً ... ولكن أي شيء من هذا لا نجد له أثراً في القرآن ... (*) .

* * *

هذا ، وإضافة إلى الدكتور بوكاي ، فإن مجموعة من العلماء الغربيين ، تصدّوا لموضوع عدم ثبات التوراة والإنجيل ، وثبات القرآن وتطابقه المدهش ، مع الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً . وقد كانت الغاية من دراساتهم تلك ، هي البحث عن سبب انفجار الغرب في موجتين خطيرتين من الانفلات الهستيرى ، اجتاحت أوروبا وأميركا في السبعينات ، وهما موجتا الخنافس في بريطانيا ، والهيبيين في الولايات المتحدة الأمريكية .

وتوفيراً لجهد القارىء وضعنا خلاصة لتلك الدراسات ، مفادها أن الإنجيل والتوراة ، كانا سبب خيبة أمل كبيرة للطلاب ، وللشباب بشكل عام وجملة من المثقفين حيث إن الكتابين المقدسين ، لم يصمدا للحقائق العلمية ، ممّا شكّل سبباً مباشراً لعدم الثقة بهما ،

وبالتالي مراودة الإلحاد ، ومعه لتحولات نفسية خطيرة في المجتمعات الغربية نتيجة للصددمات التي من جرائها تزعزعت العقيدة الدينية في أعماقها ، حيث أصبحوا . حسب تصريحاتهم . يشعرون أنهم بلا هدف ، في خضمّ متلاطم من نشازات الحضارة المادية الحديثة .

(*) (المنطلق) العدد 20 . 1402 هـ . تحت عنوان : القرآن لا يمكن إلا أن يكون وحياً .

المؤلف : موريس بوكاي . ترجمة : حسين الحكيم .

وهكذا فلم يبقَ إلا القرآن ، هو الكتاب الوحيد في الأرض ، المنزل من لدن الله عزّ وجلّ ، بواسطة جبرائيل عليه السلام ، على محمد صلى الله عليه وآله رسول الله وخاتم النبيين . وبقي القرآن . وهو باق إلى يوم القيامة . هو الحقيقة الراهنة ، على أنه كلام الله تبارك وتعالى وأنه الكتاب الوحيد في الأرض ، الذي لم يطرأ عليه أي تغيير ، أو تعديل ، أو تبديل ، منذ وجوده على هذا الكوكب . كذلك الحقائق العلمية التي فيه ، هي باقية تتحدّى العلم والعلماء ، وتساعدهم ضبطاً وتصحيحاً وإرشاداً .

* * *

النفس اللادينية سجينه :

جری عندي حوار بين رجل دين وأستاذ فلسفة ، أثبتته إظهاراً لفضل الله على عبده الصالح الذي شعاره : نعم لكتاب الله ولا للفلسفة ...

الشيخ : . نحن في سفينة الأرض ، فلنقم بجولة في خضم هذه الحضارة ، ونتحدث على المائدة ، مائدة العقل ، لأن مائدة الطعام ، كلانا يأكل من طيباتها ، فهي بنسبة عالية متاحة للجميع ، مع فارق لا بدّ منه ، إن للدينيين ميزة ، هي اجتنابهم المحرمات في سلوكهم عامة ، لكي تبقى قلوبهم ونفوسهم صالحة للتلقي من أعلى .

الأستاذ : . وماذا تتلقى ؟

الشيخ : . تتلقى الهداية والسعادة ، والنعيم الخالد الموعود .

الأستاذ : . ولماذا لا تقبض هذه النعم على اللادينيين ؟

الشيخ : . لأنهم يتناولون من أسفل .

نحن الدينيين ، نأخذ ونعقل عن الله خالقنا وخالق هذا الكون ومسخره لنا . ويجادلون في

الله ...

{ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ... وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } (1) .

ويحتجون بنظريات ما أنزل الله بها من سلطان . قال نيتشه ... ويقول هيغل ... ويقول
ماركس ... اسمحوا لنا هؤلاء بشر مثلكم ، ونفوسهم أمارة بالسوء . ثم إنه كان الأخذ عنهم ،
لو أنهم تلقوا من أعلى ، ولكن هؤلاء تناولوا من أسفل .

أنقلوا لنا عن مصدر كمال : عن الله جلّت عظمته ... عن كتاب لا ريب فيه من
كتبه... عن نبي ختمت به النبوات ، وما كان إفرازاً للصراع الطبقي ولا الجدلية التاريخية...
عن خلفائه الأئمة ... وعمّن أوجب الله طاعتهم على الناس بعد أن نبأهم أو اجتباهم ،
وعينهم في كتابه العزيز ، بأسمائهم أو بأوصافهم ... وأيضاً عن علماء الفلك والتشريح ،
والنفس وشتى حقول العلم الكاشف عن حقائق نهائية ، ممّن أرادهم الله وجعلهم مصاديق
لقوله عزّ وجلّ :

{ سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... } (2)

يبقى الفارق بين العقل المقدس الذي هو نفخة من روح الله وبين النفس اللادينية من
حيث النتائج ، وبالتالي مصير الإنسان العقلاني والإنسان النفساني ، ومصير التابعين لهذا أو
لذاك . مستفيدين هذه المقارنة من قوله تبارك وتعالى :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ } (3) .

فحيث إن العقل مستنير بالله عزّ وجلّ ، الذي هو نور السموات

- (1) سورة الرعد، الآية 13 .
 (2) سورة فصلت، الآية 53 .
 (3) سورة الليل، الآيات (5 . 10) .

والأرض ، فقد غدت المصادر التي يتفاعل معها هذا العقل ، جميعها إيجابية ، وهذه المصادر : هي الطبيعة حوله مُدَارَةً مُدَبَّرَةً بكل أبعادها ودقائقها بخالقها العظيم ، ثم العقول ... عقول الذين نبأهم الله أو اجتباهم وأوجبهم على خلقه ، ثم العقل الذاتي الذي يعلم أنه نفخة من روح الله مستخرّ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه سبحانه ، فواضح أن نتائج هذا التفاعل هي في سلم الإيجابية ، على قاعدة (لكل ما قدمت يداه) مترتب عليها المصير الذاتي ومصير التابعين .

بينما تأخذ النفس اللادينية زادها ، حصيلتها الفكرية ، أدواتها ، حاجياتها ، وبالتالي غايتها من مصادر هي أوثانها شاءت أم أبت ، حيث إن النية والاعتقاد والتصديق بالله العظيم وبدينه الحنيف ، هما في رأس أولويات الاستنارة وبالتالي التوفيق للأسباب، وما تستتبع من صلاح بال وفلاح ، أما اللادينية فهي تعاني من الانتكاس ، والتخبّط ، والتردي على سلم السلبية على نفس قاعدة لكل ما قدمت يداه ، كذلك للذات والاتباع . فنتيجة لنيّتها وعدم تصديقها بالله أو بوعده أو بوعيده ، تسمي الطبيعة عندها عمياء مجهولة المصير ، ثم هي تأخذ بالاعتماد على نفوس الآخرين اللادينية بحكم التجانس ، ممّا يزيد ، بالضرورة ، من نقصها الذاتي. وبموجب المنطق العام تكون النتيجة : النقص والسلبية .

وممّا يدعو للأسف الشديد ، هذه المفارقة : فبينما نحن ندّعي على النفس اللادينية في كثير من دعاوانا ، بالعلم والكشوف العلمية ، نجدها مصرّة على نفس الادعاء بالعلم والكشوف ، والحضارة التي تركب هذه النفس سفينتها . فنجد أنفسنا ، وبعاطفة الإنسان لأخيه الإنسان ، مردّدين قول النبي إبراهيم عليه السلام ، الذي أثبت له الله عزّ شأنه :

{ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (1) .

(1) سورة إبراهيم ، الآية 36 .

ونحن نسأل ، ولكن هذه السفينة إلى أين في خضم هذه الحضارة ؟ وما الساحل المقصود ؟ وما الجزيرة المرجوة ؟ وهل العلم غاية أم وسيلة ؟
الواقع أن العلم وسيلة لمعرفة الله عزّ شأنه وللوصول إلى الحقائق العليا والنهائية ، وبالتالي سعادة الإنسان الكلية .

فهل حقق العلم ، بالمنظار اللاديني ، شيئاً من هذا ، أم أنه زاد الأمر تعقيداً ؟ هذا في وقت زادت طمأنينة الدينيين مع الكشوف العلمية ، إلى درجة اليقين بفرد وسهم الموعود ، فضلاً عن سعادتهم النسبية على الأرض ، والتي هي على أي حال ، وبالتأكيد ، وبالبيئات القطعية أفضل بما لا يقاس من حالات اليأس ، والتأزم ، والشقاء ، التي يعانيها اللادينيون، ظاهراً وباطناً .

ويبقى السؤال : النفوس اللادينية إلى أين ؟

رضيت أن تكون رهينة الأرض ، ورهينة الحضارة ، ورهينة السفين ، وما استطاعت أن تستوحي شيئاً من علم الفلك ، ولا علم التشريح ، ولا علم العقل ولا علم النفس ، ولا بقية العلوم . وليت المشكلة تنتهي هكذا ، أي تلزم بما ترضى هي لنفسها . الحقيقة العلمية تقول : قطعاً ، لا ، لأنه ليس عبثاً وجود كواكب في الكون ، هي أكبر من كوكبنا الأرض ، فضلاً عن سماوات غير سمائنا ، ولا عبثاً قول الله عزّ شأنه :

{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ . فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ } (1)

(1) سورة الليل ، الآيات (21 . 12) .

(11)

القرآن بين العقل والكون

(11)

القرآن بين العقل والكون

*عنييت العقل الإسلامي .

ولماذا العقل الإسلامي ، وليس القرآني ؟ . بل هو كذلك .

ولماذا العقل الإسلامي وليس الإنساني ؟

لأن أخذ العلم هنا سيكون من القرآن الكريم ، ولا يمكن أن يفهم القرآن فهماً صحيحاً ، إلا من آمن بكلية القرآن منزلاً من لدن الله عزّ وجلّ ، وأنه ليس من تأليف بشر ، أو خلق ممّا خلق الله ، ومن آمن كذلك أن القرآن هو كتاب الله وكلام الله عزّ شأنه ، أصبح مسلماً يشهد بطمأنينة الصديقين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّداً صلى الله عليه وآله رسول الله .

وهنا لا نريد أن نقول لعلماء الغرب والعالم ، أننا سبقناكم بأكثر من ألف سنة في مجال الفلك ، وأسّسنا لكم به وبعلم الأرقام المساعد عليه . فهذا أصبح كلاماً تقليدياً مكروراً ، عندنا وعندكم ، لا سيّما وأنتم تملكون . ظاهرياً. المبادرة والقوة ، وتقدمون الأعاجيب حقاً عبر الأرقام والأجهزة والتنفيذ .

وإنما ما نريد أن نفعله هنا ، هو أن نلقي عليكم الحجة لعلكم تهتدون وتسلمون لله

بكتابه الكريم ، فنوقر على أنفسنا وعلى البشرية الكثير من الإبتزاز الذي تمارسونه ، ومدافعتكم
عن أرضنا وأوطاننا وحقوقنا التي

تكلفنا هدر الأموال والطاقات ، حيث تسببتم عبر ذلك بالمجاعات والفقر ، والكوارث ،
وتسميم الأجواء بإفرازات المصانع الحربية والتكنولوجيا المدمرة ، وكذلك الإعتداء على
الشعوب الضعيفة واستنزافها ، وكل ذلك نتيجة لعداؤكم لرب العالمين . وللإسلام الذي أرادته
هو سبحانه ديناً لصالح البشرية وإنقاذها ، في عمرها هذا القصير ، قبيل اليوم الآخر ، اليوم
الحق ، يوم الفصل .

لذلك نقدم لكم في جملة ما نقدم ، ثلاث ركائز ، لتكون محطات للتأمل والتفكير
وتحمّل المسؤولية أمام الله ربنا وربكم ، رب العالمين .

أولها : أن يقرّ في أذهانكم أنه ليس لنا عندكم مصلحة ، ولا مطمح ، ولا مكسب ، إلاّ
أن تلبّوا داعي الله سبحانه ، فهمّ كل مسلم حقيقي ، هو طاعة الله مولانا ومولاكم ، وأداء ما
حمّل من الأمانة . حيث إننا ندعوكم إلى الله ، لا لأنفسنا ، ولا شيء أو لأحد ممّا خلق
سبحانه من إنس أو جن أو ملائكة ، أو غير ذلك .

فلبيك اللهم ، طاعة لك فيما أمرت ، حيث تقول :

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. } (1)

وحيث تقول سبحانك لا إله إلا أنت :

{ .. فَلَا يُنَارِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } (2)

{ .. وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (3)

{ وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

شَقِيًّا } (4)

- (1) سورة النحل ، الآية 125 .
 (2) سورة الحج ، الآية 67 .
 (3) سورة القصص ، الآية 87 .
 (4) سورة مريم ، الآية 48 .

الثانية : نعرض عليكم من القرآن الكريم ، نفحات من رحمته سبحانه ، تكون منطلقات للكشف ، أدرتم ظهوركم لأمثالها في الماضي ، فبقيتم في جهالة القرون الوسطى ، مئات السنين .

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا... } (1) .

فافتحوا قلوبكم ، وافتحوا آذانكم ، وخلصوا أنفسكم من أوزارها وأوزار البشرية التي في أعناقكم . وإلا فأنتم على أي حال أمام القيامتين المتعاقبتين ، كما ذكرنا آنفاً ، الصغرى ، وهل ترضون أن تكونوا وقودها أو ممن سيصب عليهم عذابها ؟ ثم الكبرى ومن لكم بأهوالها وسوء الحساب ؟:

{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (2) .

الثالثة : فيما يتعلق بضمير الإنسان ووجدانه الداخلي ، قوله تعالى :

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } (3) .

وسواء كان هذا العطاء من ماله أو من جهده فكراً وعملاً ، فالمهم أن يكون خالصاً لوجه الله .

وقبل أن نزودكم ، ببعض هذا الرصيد النافع ، . والنعمة نعمته سبحانه علينا فيما نكتب ونقول ، وعليكم في أن تقرأوا وتعدوا . من الإيمان والعلم ، فمن المفيد تذكيركم بما أهملتموه من قبل ، فلزكم من ذلك العنت والجهد في تحصيله ، وشقيتم به علماً ومعرفةً ، ودينياً وآخرةً ، في الوقت ،

- (1) سورة الكهف ، الآية 57 .
 (2) سورة الأحزاب ، الآية 73 .
 (3) سورة الليل ، الآيات (10.5) .

الذي سَعِدَ به من لزمه ، علماً ومعرفةً ، ودينياً وآخرةً . ولا يفقه أبعاد هذا الأمر ، إلا أولوا الألباب ، ومن رحم ربك ، قال تعالى :

{ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ } (1) .

فإلى وقفة خاشعة أمام ومضات من علم رب العالمين ، ممّا نبّه إليه في كتابه المجيد...

القرآن تبيان لكل شيء

ووجهان لحديث : (قيّدوا العلم بالكتاب) .

ما أرمي إليه ، هنا ، ابتداءً ، هو التنبيه إلى المصدر الأعظم ، المدوّن ، في شتى مجالات العقل والحياة ، عنيت القرآن الكريم ، لقول الله تعالى فيه ، عزّ من قائل :

{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } (2)

تبياناً لكل شيء في تشريع الكون وتشريع الحياة : من الفرد إلى الأسرة إلى المجتمع إلى الدولة إلى الكون طرداً وعكساً وهذا الكلام ، لكل عاقل رصين ، أو متعقل ، وليس للذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون .

ولذلك سيتأزم ، عند قراءة هذه السطور غير العارف بالقرآن وبعظمة رب القرآن فينفر ويستكبر. وإذا كان خلوقاً لَيّن الطباع ، فسيطالبنا بما قلناه

(1) سورة الحج ، الآيات 54 . 55 .

(2) سورة النحل ، الآية 89 .

نحن عن القرآن ، من أنه ليس كتاب علم تفصيلي ، وإنما هو كتاب دين فيه ضوابط لمسارات العلم من جهة ، ومن جهة ثانية ، حقائق علمية تستدعي الكشف عنها حسب تطوّر البشرية ، فضلاً عن أسرار مستحيلة على البشر ، يفاجأ بها الإنسان حين كشفها ، منها على سبيل المثال ، استخراج أسرار الذرة ، والتحوّل العلمي الألكتروني الخطير الذي ترتّب على ذلك . ونحن عند قولنا ، فينبغي أن يدقّق المعترض ، ليتيقن أنه لولا العلامات الضابطة ، والثوابت العلمية في القرآن والمتعلّقة بما ذكرنا من المواد والموضوعات العلمية ، لكان انهار الإسلام كبرنامج حضاري منقذ للبشرية ، وكرسالة وكدين ، ولكان ترتّب وسقط في فوضى ومفارقات الحضارة الغاشمة ، لا سيّما في مجالات الفكر والتنظير والفلسفات المتضاربة ، فضلاً عن البحوث الظنيّة والنظريات والاحتمالات التي لا يمضي على بعضها ربح من الزمان ، أو حتى لا يحول على بعضها الحول ، حتى تسقط وتصبح باطلاً ، بعد أن كانت مظنونة حقاً اعتنقه ملايين البشر ، وما زال الأمر كذلك ، وما زال القرآن وسيبقى منارة الضبط والتوجيه والتصحيح ، وتقويم المعوج ، وتقديم المنطلقات ، التي توفرّ الجهد وتختصر الطرق ، وتقود إلى الطريق المستقيم . يعني إلى صراط الله عزّ اسمه .

ولشدة يقيننا بهذا الأمر ، ولو تميع دونه الغافلون ، الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وخاضوا خوض الهيم ، فيما دون القرآن من المدونات المأجورة والمهجورة ، والموضوعة والمستعارة ، والتي فيها التشدّد أكثر ممّا فيها ورع العلماء ويقين العلماء وحرصانة العلماء ، نعم تركوا القرآن والعلم والعقل ، وتنكروا للعلوم العصرية على خطورة ولزوم ما يجب لزومه من معظمها ، هجروا كل ذلك ، إلى نبش قبور الفكر والتعبّد بها ، فوقعوا في حيرة وأوقعوا الناس وما زالوا .

وتأكيداً على ما ذكرت من عظمة القرآن وشمولية القرآن ، يقينيّ بأنه ليس عبثاً قول الله تبارك وتعالى عن القرآن ، أنه تبيان لكل شيء ، الآية آنفاً ، وكذلك قوله عزّ شأنه :

{ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } (1) .

فمن يدعي أن هذا القول ، إنما قاله سبحانه وتعالى ، فقط للتدليل على بناء القرآن
وأسرار بنائه وتركيبه وإعجازه ، من ادعى ذلك فهو قصير النظر ، كليل الفؤاد واهي الجناح ،
وما قدروا الله حق قدره .

والحقيقة أن هذه الآية إنما تعني ذلك ضمن وجوه من المعارف لا تكاد تحصى ، ولكن
يتبين المقصود من مداها وأبعادها ، عند ربطها ، بقوله سبحانه :

{ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ .. } (2) .

فتنجلي عندها البصائر والأبصار .

وقد قدمنا في بحوث سابقة ، أمثلة ، عن دلالات القرآن وإرشاداته ، منها نظرية
النشوء والإرتقاء ، وكيف أنقذنا الله بالقرآن من السقوط في بهيميتها وإن الحقيقة هي عكسها
فقلبها وجعلها وقوداً على أصحابها .

علم النفس الحديث شوّه الحقائق :

وكذلك في علم النفس ذكرنا أموراً هي خطيرة بمقدار ما يجهلها علماء النفس الحديثون
من جهة ، وخطيرة بما هو واقع الحال ، من حيث هي من آثار عظمة الله في خلقه. فهم سدّوا
على الناس طرق الوصول إلى حقائقها الرائعة ، وذلك بادعاءاتٍ وفرضياتٍ هجينة ، كان من
الطبيعي أن تتهاوت وتنهار ، ما دامت متنكرة للحقائق الروحية والغيبية التي كان بها الإنسان
إنساناً.

فعلم النفس اللاديني الحديث ، غرس في النفوس القلق ، والأرق ، وسدّ على الإنسان
أبواب الرجاء ، وأبواب السماء ، وحال بينه وبين أن يعرف

(1) سورة الإسراء ، الآية 88 .

ربه الله الرحمن الرحيم ، فحرمه من الثروة الروحية التي فيها كرامة الإنسان ، وسعادة الإنسان وحقيقة الإنسان .

وبكلمة ، فإن علم النفس الحديث ، جعل الإنسان أسير الأرض ، وضيّقها عليه ، حتى هو في حالة اختناق .

بينما علم النفس القرآني ، أو الإسلامي ، علّم الإنسان الحقيقة ، وهي أن ربه سبحانه وتعالى ، جعله سيدها وليس أسيرها ، وأفهمه أنه مسافر منها إلى ما هو أوسع وأجمل وأروع بما لا يقاس ، وعلّمه كيف يتسامى فيتعافى ، وواقع الحال ، أن حياة المسلم العادي ، هكذا ، بسيطة هادئة مطمئنة ، لا خوف ولا تأزّم ، ولا انفصام ولا عقد ، ولا عقاير ولا مخدرات . حتى في أشد حالات الحرب وحالات الرعب . كذلك لا (سيدا) ولا (إيدز) ولا أمراض مستعصية أو مستحيلة الشفاء .

لذلك عندما يخبر الله سبحانه ، عن أهوال يوم القيامة يتوجّه بالخطاب إلى الناس ، بينما العادة في طمأننته تبارك وتعالى للمؤمنين والمسلمين ، أن يخاطبهم بـ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } ومن ذلك قوله عزّ شأنه موجهاً لغير المؤمنين :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } (1) .

ومخبراً عن المؤمنين بقوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ } (2) .

وعن طمأننتهم بخصوص يوم القيامة ، قوله تعالى :

{ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ، هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ }⁽¹⁾ .

لقد أربع أميركا ومعظم دول الغرب التي كانت ما زالت تحتكم إلى نظريات فرويد في فهم النفس وتربيتها ، استيقاظها مؤخراً على كتابين صدرتا في نفس أميركا وهنّا ملايين الناس ، حيث أثبتت مؤلفة أحدهما ، أن (فرويد) إنما كان يصدر بأقواله عن (عقل هائج) حسب التعبير الحرفي للكاتب ، ومن حالة اضطراب ناتجة عن إدمان الكوكايين ، وكذلك وثق الكاتب الآخر هذه الأقوال ، ولقد نشرت الصحف أخبار هذا الكشف الخطير عن حقيقة هذا الرجل المؤسس لعلم النفس الحديث ، في شتاء 1989 .

من وجوه العظمة في القرآن ضبط الحقائق العلمية :

ومن مقاصد قوله تبارك وتعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } ، ضَبُّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، للحقائق العلمية ، وليس الخوض في التفاصيل ، وهذا من أعظم النعم في حياتنا الدنيا . ومثلاً على ذلك : أن القرآن يقرّر بشكل حاسم ، وفي آيات عديدة ، أن الإنسان إنما خلق في الأصل إنساناً سويّاً وفي أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه العقل ، وعلى هذه الضابطة القرآنية وهذا الأساس ، لو ظهر ، بعد القرآن ، ألف (دارون) يقررون معه بطريقة الفرضيات ، أن مراحل الحياة المائتية ، ثم البرمائية ، ثم المرحلة القرودية ، هي من مراحل نشأة الإنسان ، فإن الإنسان المؤمن بالله وبكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه سيرد هذا الزعم وهو مطمئن لعلمه ولضميره العلمي . وكذلك لو بقيت كتب منطلق أرسطو التي ما زالت تدرّس في الحوزات الدينية والتي تقرّر أن الإنسان ،

هو حيوان ، ولكنه ناطق أو ضاحك ، أو ينام على ظهره . ترى كيف يصنّفون البغاء . فسيتبقى

الإِنسان القرآني المؤمن المسلم ، أقل ردود فعله أن يشمئز من هذا القصور المنطقي، ومن هذا التقصير الفكري في تدبّر الثوابت التي في كتاب الله العزيز .

قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ :

فهذا الحديث الشريف ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يرده الأساتذة في الحوزات ، وما زالوا يفعلون ، كلما أرادوا أن يلفتوا الطلبة إلى أهمية أن يكتبوا المعلومات التي يتلقونها من صدور الرجال ، على دفاترهم وقراطيسهم ، صحيح أن هذا الوجه للحديث مقبول ، ولكن الحقيقة المرادة منه أعمق وأهم ، وهي ضبط العلم وربطه بكتاب الله عزّ وجلّ ، فإن صدّقه الكتاب ، كان علماً حقاً ، وإلّا سقط ، وكان ظناً وفرضيات ، شأنه في ذلك ، شأن كل حديث أو رواية ، للصحيح الذي جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أتاكم من حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن قبله فبِهِ ، وإن لم يقبله فاطرحوه (وعلى رواية) فاضربوا به عرض الحائط .

من هنا وجب علينا نصاً وعقلاً ، أن نعرض على القرآن المجيد ، ما يأتينا من علم ، محققين في ضوئه ، بصحة هذا العلم أو فساده ، لا أن نخضع القرآن أو نعرضه على ما يأتينا من علوم نقيدها بما آيات نيرّات . في حين قد تكون فرضيات ما أنزل الله بها من سلطان .

القرآن لا يخطيء وإنما قد يخطيء المفسرون :

صحيح أنه قد يبطل العلم اعتقاداً سائداً في قضية علمية قيل أن القرآن قبلها قبل ذلك. فإن حصل هذا الأمر ، فلا يتهم القرآن ، وإنما يتهم مفسّرو القرآن .
الواجب أن ترفض النظرية ، ما دامت نظرية ، حتى تثبت بالبينة . ومن جملة البيّنات ، صريح القرآن وإشاراته ، إلّا أن يحصل غالباً ، هو عكس

ذلك ، فهناك من الباحثين المسلمين ، من تبهرهم النظرية العلمية بمجرد أن تعلن ، فيعتبرونها

من المسلمات ، ويحاولون فهم القرآن على أساسها ، لا فهمها في ضوء القرآن ، وهذا يجري حتى في مجال العقيدة . فعلى سبيل المثال : قضية البعث أو القيامة أو اليوم الآخر ، فقد أصبح هناك اتجاه . حتى عند بعض من يكتبون إسلامياً . لاعتبار يوم القيامة ، أنه سيقع كما قررت القواعد العلمية ، مثل قاعدة فقدان الطاقة التدريجي . أو على أساس أن الأجرام السماوية ستتصادم ويكون الدمار الكوني، ويقدرّون لهذا الأمر ملايين أو بلايين السنين .

ونحن لا نرد النظرية العلمية المحققة ، نظرية (فقدان الطاقة التدريجي) فهذا ناموس في جملة النواميس الإلهية ، من مفرداته جميع الأجرام الكونية ، ومنها شمسنا ، وعلى أساس هذا الناموس ، يرشحها العلماء للخمود والإنطفاء . ونحن نؤيد هذا الناموس وفاعليته حكماً ، إلا أننا ننكر ادعاء تعطيل الشمس عن فاعليتها كما ننكر ادعاء أن القيامة مرهونة بنفاد الطاقة ، طاقة الشمس أو غيرها، لأن صريح القرآن ينفي ذلك بوضوح ، ويقول في الساعة أو القيامة أنها { تأتيكم بغتةً } وأنها من أسرار الله سبحانه :

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي .. }⁽¹⁾
 { .. وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. }⁽²⁾ .

ثم من الدلالات القرآنية الجلية على أن الساعة تقوم والحياة على الأرض عادية ، إذ لو كانت مرهونة بنفاد الطاقة ما بقيت على الأرض الحياة لا الإنسان ولا غير الإنسان من الأحياء :

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ .. }⁽³⁾

(1) سورة الأعراف ، الآية 187 . (2) سورة الزخرف ، الآية 85 .

(3) سورة الزمر ، الآية 68 .

أو { أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ }⁽¹⁾ .

أو { وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً

تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ }⁽²⁾ .

فلذلك كله يجب على البشرية أن تتوقع قيام الساعة . عبر تحقق أشراتها القرآنية قياماً
مباغتهاً . وحيث أن الأشرار يواكب بعضها بعضاً من حيث التحقق . فنحن إذن في آخر
الزمان ، والساعة على الأبواب .

الإسلام سلط الضوء على الأفلاك ، وما يرى إلا الصديقون :

كان الأقدمون ، يضعون الأرض في منتصف العالم ، ويعتقدون أن الشمس والكواكب
تدور حولها . وفي القرن الثاني بعد الميلاد ، زاد هذا الاعتقاد تأكيداً وتحديداً بفضل الطريقة
التي عرفت بنظرية بطليموس .

وبطليموس ، هو فلكي يوناني ، ولد في الإسكندرية ، ووضع نظريته مشروحة في كتاب
شهير اسمه (المجسطي) . وقد ظلت نظرية بطليموس هذه معترفاً بها طيلة قرون عديدة . كما
ظلت أساساً لعلم الفلك ، حتى القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري ، يعني بعد نزول
القرآن بألف سنة تقريباً ، والقرآن الكريم طيلة هذه القرون ، يعلن الحقائق الباهرة ، ولا من
يسمع .

كذلك ظلّ الناس يجهلون كروية الأرض وسبحانها في الفضاء . عدا بعض علماء الفرس
واليونان والعرب في صدر الإسلام . حتى قام برحلته الشهيرة ماركو بولو في القرن الثالث عشر
الميلادي . السابع الهجري . ثم تلاه كريستوف كولومبوس ، في القرن الخامس عشر الميلادي ،
إلا أنّ الجميع ، الفرس واليونان والعرب ، وماركو بولو وكريستوف كولومبس ، وإن كانوا

(1) سورة الأعراف ، الآية 98 .

(2) سورة يس ، الآيات (48 . 50) .

اكتشفوا كروية الأرض ، إلا أنهم ظلّوا يجهلون انطلاقتها في الفضاء ، ودوراتها حول الشمس
، والقرآن الكريم أثناء ذلك ، أي خلال تسعمائة أو ألف سنة يقرّر بصوت يصل إلى عنان
السماء قوله عزّ وجلّ :

{ .. يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ .. } (1)

وقوله تعالى :

{ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها } (2) .

{ وَالْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاها } (3) .

وواضح جداً ، أن هذا التكوير ما دام على الأرض ، فيجب أن تكون كرة ، وهي مدحوة في هذا الفضاء ، تسبح سبحاً ، حيث إن دحا وطحا لفظان عربيان رائعان للتعبير عن جعل الشيء كروياً ودفعه في آن ، وهما بمعنى واحد أو متقارب ، والدحو هو الدفع والدحرجة (راجع القاموس ومفردات الراغب) . ثم من آية (التكوير) هذه ، وإضافة إلى معرفة أنها كرة هائلة ، نستنتج دورانها حول نفسها لتشكل الليل والنهار ، كما نستنتج تبعيتها المستمرة للشمس ، ثم من آية ثانية قوله تعالى :

{ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِداً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. } (4) .

نستنتج أن لهذه الأرض سيراً في الفضاء سريعاً ، وربطاً بآية (يَكْوَرُ اللَّيْلُ) نوقن أن هذا السير هو في مدار حول الشمس لا تفارقه .

وهنا يتبادر إلى الذهن ، السؤال عن حال أولياء الله ، أئمة العلم والدين في تلك الفترة المتطاولة ، قبل تطوير أجهزة الرصد الفلكية ، وبداياات الكشف عن أسرار الفلك بواسطتها . والحقيقة أن علماء الهيئة

(1) سورة الزمر ، الآية 5 .

(2) سورة الشمس ، الآية 6 .

(3) سورة النازعات ، الآية 30 .

(4) سورة النمل ، الآية 88 .

(علم الفلك) يحصون لأئمة أهل بيت النبوة عليهم السلام ، نصوصاً كثيرة في هذا المضمار إلا أنها رمزية ، بموجب القاعدة النبوية الشهيرة (أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم) وفي لفظ آخر (على قدر وصولهم) حيث كانت الأحاديث تستعمل عبارات مختلفة ، تناسباً مع علوم كل عصر ، حتى إذا تزندقت الأمة ، وكثر الفسوق بين الناس والحكام ، وانتشر الترف

والخمر والمجون ، وزاد الظلم والجور والفساد ، والتكالب على الدنيا ، " فصبّ عليهم ربك سوط عذاب " ، وأذهب عنهم هيبة السلطان وقوّته ، ومزّق دولتهم شرّ ممزق ، وأرسل عليهم وعلى حضارتهم ، وعلى مدّنتهم وأمصارهم ، وعلى عاصمتهم بغداد ، موجاتٍ عاتيةٍ مدمرةٍ ، من البربر والتتار ، فتبرّتهم تنبيراً .

ثم أذن سبحانه لأقوام آخرين ، بالكشف في مجال الفلك ، وشتى المجالات ليكونوا مصاديق لقوله عزّ وجلّ :

{ سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. } (1) .

(1) سورة فصلت ، الآية 53 .

(12)

كتابان في كتاب الله : القرآن والفلك

ثم أقفل الله على المسلمين وفتح على الآخرين أبواب كل شيء

{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ
أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .. }

(65 : الأنعام)

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا
أَخَذْنَاهُمْ بِغْتَةٍ فَاذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . }

(44 : الأنعام)

نموذج عن الفلك في العقل الإسلامي :

وللدلالة على تصدّي الأئمة لهذا العلم الخطير ، نذكر هنا نصاً واحداً ، نموذجاً . من مئات النصوص المثبوتة في مجاميع الروايات . ورد في بحار الأنوار للمجلسي ، وفي كتاب التوحيد للشيخ الصدوق محمد بن بابويه المتوفي سنة 381 هجرية . بسنده عن جابر الأنصاري الصحابي ، أن الإمام الباقر محمد بن علي عليهما السلام ، قال له : ولعلك ترى أن الله تعالى إنّما خلق هذا العالم الواحد ، أو ترى أن الله تعالى لم يخلق بشراً غيركم ، بلى والله ، لقد خلق تبارك وتعالى ألف ألف عالم ، وألف ألف آدم ، وأنتم في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين .

ونستنتج من هذا الخبر المقدّس ثلاثة أمور :

أولاً : حكاية الرقم (ألف ألف) التي تتناسب مع وصول الناس آنذاك في علم الحساب ، ولذلك نلاحظ اختلاف الأرقام في مختلف الروايات .

ثانياً : سبق العقل الإسلامي في معرفة تعدّد العوالم ، فهذا الخبر المأثور ورد عنه عليه السلام في وقت كان الناس فيه ما زالوا يدرسون أوضاع مجموعتنا الكوكبية ، اعتماداً على النظريات الخاطئة ، وعلى أن ليس بعدها عوالم .

ثالثاً : تأكيد ما يظنه العلم في هذا القرن الخامس عشر الهجري ، العشرين الميلادي من وجود بشرٍ أو مخلوقات ، في بقية العوالم الموجودة تحت سبع سماوات . فهذا الخبر تقرير علمي ، يستطيع العلماء الإستنارة به ، والخروج من الظنّ إلى اليقين ، فيستعملون وسائلهم على هذا الأساس . ومع اليقين يكون الحافز أقوى بما لا يقاس ، ويكون الإصرار على الوصول إلى الهدف .

أول الغيث مع كوبرنيكوس :

منذ أربعة قرون ونصف ، من كتابنا هذا ، وبالتحديد في سنة 1543 م ، ظهر العالم الكبير ، نيقولاي كوبرنيكوس ، ونادى بخطأ نظرية سلفه بطليموس وأكد عكسها . فقد بين أن مركز العالم ، إنما تشغله الشمس على أنها . حسب نظريته . ثابتة لا تتحرك ، وأن الأرض والقمر وخمسة (فقط) من الكواكب الأخرى تدور حولها في مدارات دائرية ، وفوق كل هذه المدارات ، يوجد فلك النجوم الثابتة ، وهو فلك ثابت يشتمل على العالم بأكمله ، ويؤثر على كافة الكواكب التي تدور أسفله . هذا موجز نظرية كوبرنيكوس .

وهنا كذلك ، كان القرآن العظيم ، يخبر عن كوبرنيكوس فيما أصاب فيه :

{ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ } . صدق الله العظيم .

وكذلك عمّا أخطأ فيه :

{ .. وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }⁽¹⁾ .

وفي القرآن صواب ما أخطأ فيه كوبرنيكوس ، أولاً . من حيث عدد الكواكب قول الله

تعالى :

(1) سورة الجاثية ، الآية 24 .

{ .. أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. }⁽¹⁾ .

وكذلك من حيث عدد طبقات الكون ، فهو ظنّ حدود الكون ، هذه السماء المرئية

وفي القرآن الكريم قوله تعالى :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. }⁽²⁾ .

فكوبرنيكوس ظلّت نظريته محدودة ، قاصرة في مدى ما توصل إلى رصده تحت السماء

الدنيا . فمن أين له أن يتعرض هو والأعظم منه في مستويات البشر ، لعوالم ما فوق هذه السماء ، إذا لم يكن العلم قرآنياً .

ثانياً : زعم كوبرنيكوس ، أن فوق مدارات مجموعتنا ، فلکاً ثابتاً يشتمل على العالم بأكمله . وفي القرآن قبله بعشرة قرون قول الله عزّ وجلّ :

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحُهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ } (3) .

إن لفظة إدبار ، هي عكس إقبال ومعناها الذهاب والمجيء ولا يمكن إقبال ولا إدبار بدون حركة . قوله تعالى :

{ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا } (4) .

فهي في وجه من وجوه الظاهر فضلاً عن وجوه الباطن تعني نجوماً وكواكب ، حيث لا قرينة للتخصيص ، ولا قرينة في السياق تُبعدها عمّا نقول . وما أغنى القرآن العظيم في تعدد وجوه الآيات ومراميتها ، وليس هنا مكان بحثه . وكذلك قوله تعالى :

{ فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ } (5) .

(1) سورة يوسف ، الآية 4 .

(2) سورة الطلاق ، الآية 12 .

(3) سورة الطور ، الآية 49 .

(4) سورة الذاريات ، الآية 3 .

(5) سورة التكويد ، الآيات (16 . 15) .

نقول فيها كذلك ، ما قلناه في سابقتها . وبتعبير آخر لنفس المعنى ولنفس الموضوع قوله تعالى :

{ .. وَكُلٌّ فِي فَالِكٍ يَسْبَحُونَ } (1) .

وقوله تعالى :

{ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا } (2) .

وأخيراً وليس آخراً ، قوله عزّ وجلّ :

{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ } (3) .

وهذه الآية هي من أوضح الدلالات على عدم ثبات الشمس وغيرها من الكواكب ،
كما أن هذه الآية من أعظم الآيات في مجال الفلك حيث تحسم القول ، في قضية الجاذبية
الكونية ، وكذلك في جري الشمس والقمر والأقمار ، لأن العبارة " كل يجري إلى أجل
مسمّى " عائدة إلى الشمس والقمر والسموات ، وهي لغة كل سام مرتفع ، ولفظ " الشمس
والقمر " دلالة على النوع وليس على الجنس ، والمقصود في الآية على هذا الأساس ما في
الكون من شمس وأقمار ، وكذلك القول في لفظة أرض ، فهي تعني النوع والماهية في أكثر
الآيات . ولذلك لا نجد في القرآن لغة جمع للأرض ولا للشمس ولا للقمر (يعني أرضون وشموس
وأقمار) . وقارئ القرآن اللبيب يفهم القصد، حيث يكون المقصود هو الجمع أو النوع أو
الجنس ، من السياق والقرائن .

القرآن يخبر عن حركة الشمس قبل أن يعرف ذلك بشر:

بعد كوبرنيكوس ، أذن الله عزّ وجلّ ، بخطوات جبارة ، قطعها علم

(1) سورة يس ، الآية 40 . (2) سورة النازعات ، الآية 3 .

(3) سورة الرعد ، الآية 2 .

الفلك . كذلك سدّد فيها ثلاثة من العلماء كيبلر **Kepler** ثم بعده غاليليو **Galileo** ثم
بعده نيوتن الذي توفي حوالي 1727 م . وكان غاليليو أول من استعمل التلسكوب واكتشف
أن الشمس تدور حول نفسها كما تدور الأرض ، وكما تدور بقية الكواكب . هذا والقرآن
المجيد يعلن هذه الحقيقة ، طيلة حوالي إثني عشر قرناً ، قبل هذا الكشف .
فإذن أقفل الله تعالى على المسلمين أبواب العلم ، وفتح على الآخرين أبواب كل شيء .

ويبدو أن الجميع اليوم ، أصبحوا يستدعون غضب الله المنتقم الجبار . فباسم الدين ، شيعةً تسفك دماء الشيعة ، وسنةً تسفك دماء السنة . والسنة والشيعة لبعضهما بالمرصاد الدموي ، أفلاجل هذا كان الإسلام وكان إرسال الله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وآله؟ ومثل ذلك فعل اليهود بأنفسهم وبالمسيحيين من قبل ، ومثل ذلك فعل المسيحيين بأنفسهم في الحروب الدينية ، وما زالوا يفعلون بأنفسهم وبالآخرين .

لذلك يعتبر معظم أهل الأرض ، في هذه الأيام ، وخاصة أصحاب الحضارة الزنديقة، من مصاديق قول الله عز وجلّ :

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (1) .

معظمهم اليوم مصاديق للقسم الأول ، لِمَهْلَةٍ ما قبل الأخذ بغتةً . وترقب الباقي أمر طبيعي ، فإن وعد الله حق . ثم بعض التأمل في قوله سبحانه يجب أن يفرع الأعراب وأهل النفاق من أدياء الإسلام . والإسلام في الحقيقة غداً غريباً بالنسبة إليهم ، وغدوا هم عنه غرباء :

{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، انظُرْ كَيْفَ

(1) سورة الأنعام ، الآيات (45.44) .

نُصِرْفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } (1) .

فهل أكثر من هذا الواقع انطباقاً على الناس ، قصف من فوقهم واهتزاز الأرض بالدواهي من تحت أرجلهم ، والآتي أعظم ، وإنهم تمزقوا شيعاً يذيق بعضهم بأس بعض ، ويسفك بعضهم دماء بعض ، ويروّع بعضهم بعضاً أعراباً ومنافقين ، ومسلمين زائفين . وأسوأ من ذلك كله ، اليهود والنصارى ، وبقية أهل الأرض ما بين القطبين .

ألا وإن فرصة الجميع ، جميع أهل الأرض ، الفرار إلى الله ، بالإسلام والقرآن .

وأمامهم قيامتان : أرضية وكونية ، وليرتقب أعداء موسى والمسيح ومحمد عليهم السلام ، إننا مرتقبون . أو فليطيعوا الله في أمره تعالى حيث قال :

{ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } (2) .

{ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .
وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } (3) .

* * *

ثم نعود إلى حركة الشمس والقمر والأرض وتتابع الليل والنهار ، وعدم طغيان الأكبر على الأصغر في ناموس التجاذب والمدارات ، متأملين قول الله تبارك وتعالى :

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ

(1) سورة الأنعام ، الآية 65 .

(2) سورة آل عمران ، الآية 133 .

(3) سورة الزمر ، الآيات (54 . 55) .

تُدرِكُ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (1) .

وهكذا نجد أن الله عزّ شأنه ، رفع (غاليلو) درجات عالية وغالية ، في سلم الفلك ، الذي يبدو أنه غير متناهٍ في السموات السبع وما بعدهنّ ، ثم علّم وهياً سبحانه من يتابع عنه .
وحيث أن (غاليلو) ترك للعلماء القانون الذي يقول : (إن حركة الجسم تستمر إلى ما لا نهاية ما لم يطرأ عليها ما يعدّها أو يوقفها) هذا القانون استوقف نيوتن ، وجعله يتساءل ، لماذا لا تستمر حركة الكواكب في اتجاه مستقيم ، بدلاً من أن تدور حول الشمس وكأنها مشدودة

بجبل غير منظور ؟ وبفضل من الله على البشرية وأيضاً لتعزيز قرآنه المجيد ، وزيادة في إلقاء الحجة على الماديين والطبيين ، ألقى النفاحة أمام نيوتن وأهمه أنها الجاذبية ، وأن ما يرفع السماوات ، ويربط الكواكب بالشمس إنما هي عمد لا ترونها ، أي أنها قوى جذب توجد بين هذه الأجرام ، وتشد بعضها إلى بعض دون أن يطغى فيها الأعظم حجماً على ما دونه . وهي التي أسموها بلغتهم **Attraction** أي التجاذب وهي صريحة في كتاب الله المجيد :

{ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } (2) .

وهكذا أتى تفسير هذه الآيات وبعض تأويلها بعد أكثر من (1200) سنة من إعلان القرآن لهذه الحقائق الكونية العجيبة . أفما يستحي الذين لم يسلموا بعد ، إلى الله إسلاماً كلياً ، ولم يذعنوا لقرآنه العظيم ، لا سيما عندما يقرأون فيما يقرأون ، هذه الآية ، التي تدمغ الذين اتهموا محمداً صلى الله عليه وآله بأنه افترى القرآن وأتى به من عنده ومن عند أقوام آخرين بعدما تبين لهم من النواميس والدقائق العلمية المذهلة التي أشرق بها القرآن على البشرية

(1) سورة يس ، الآيات (38 . 40) (2) سورة الرعد ، الآية 2 .

في وقت كانت فيه ظلاماً دامساً من الجهالة والامية العلمية :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } (1) .

العلم المعاصر ما زال في رقعة تحت سماء من سبع سموات ، وهذه السموات السبع في كرسي العرش كحلقة في فلاة ، والكرسي على شاسع اتساعه وشموله هو في العرش كحلقة في فلاة : هذه مواد كونية ، للأدمغة والأرقام والمراصد ويبقى كلام عن الملكوت واللاهوت

والجبروت ، وهذا لغير النظر المادي ، ويبقى اللاكلام .

أما ما دمنا في الكلام ، فنعود إلى الفلك ، وبالتحديد إلى الشمس بين القرآن وبين الكشوف العلمية .

الشمس ليست مركزاً للكون :

من كل ما تقدم من الآيات الكريمة ، نفهم بجلاء ، أن الشمس ليست مركزاً للكون ، وإنما هي مجرد نجم من ملايين النجوم ، التي لها في الفضاء الرحب إقبال وإدبار . بينما كان أهل الأرض ، منذ القدم ، يعتقدون أن الشمس هي مركز الكون كله ، وبقي هذا الاعتقاد سائداً ، حتى بعد القرن الخامس عشر الميلادي ، التاسع الهجري ، وبعد كوبرنيكوس وكبلر ، وغاليليو ، وكذلك نيوتن ، بينما القرآن الكريم يقرّر عبر كل هذه الحقب من الزمان وبأوضح عبارات ، أنّ الشمسوس كلها هي سراج في السماء الدنيا من السموات السبع . وهو ما يراه الإنسان العادي من الضوء في ليل سمائنا الدنيا هذه . قوله عزّ وجلّ :

(1) سورة يونس ، الآيات (38 . 39) .

{ أَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا } (1) .

كما قرّر أنها غير ثابتة في مكانها :

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (2) .

كما قرّر أن ما زاد عن السموات السبع والأرضين السبع هو الكرسي :

{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } (3) .

وما زاد عن الكرسي هو (العرش العظيم) و (العرش المجيد) و (العرش الكريم) .
ولفهم تقريبي لنسبة السموات والأرض إلى الكرسي ونسبة الكرسي إلى العرش ، نذكر

هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله فعن الصادق عليه السلام ، قال ، قال أبو ذر : " يا رسول الله ما أفضل ما أنزل عليك ؟ قال : آية الكرسي ، ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة ، بأرض فلاة . ثم قال : وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة " .

المهم أن الناس . مسلمين وغير مسلمين . ظلّوا هكذا ، منصرفين عن كتاب الله الكريم ، زاعمين أنّ الشمس ثابتة في موقع واحد من السماء لا تبرحه ، حتى كان القرن الثامن عشر الميلادي ، فظهر العالم الفلكي هاللي **Halley 1758** م وهو صديق لنيوتن ، وصاحب نظرية المذنب المُسمّى باسمه ، وقرّر أن الشمس تغيّر مكانها . وهنا بطل الاعتقاد بأن الشمس هي مركز الكون كلّه ولم تعد سوى مجرد نجم عادي في مجرة درب التبانة ، حيث يوجد شمس أصغر وأكبر منها بالملايين . وقد كانت هذه الحقيقة

(1) سورة نوح ، الآيات (15 . 16) .

(2) سورة يس ، الآية 38 .

(3) سورة البقرة ، الآية 255 .

التي اكتشفها هاللي مقرّرة . كما رأينا . في القرآن الكريم قبله بحوالي إثني عشر قرناً .

علم الفلك في القرآن يفتح العقل على مصراعيه :

إنّ علم الفلك في القرآن . فضلاً عن بقية العلوم فيه . يشهد أولاً أنّ لا إله إلاّ الله ، ويشهد ثانياً أنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله ويشهد ثالثاً أنّ القرآن الكريم هو من لدن الله جلّت عظمته . وعلم الفلك ، وحده ، في القرآن ، يكفي لأن يجعل العقل الإسلامي عقل عالم ، فكيف ببقية وجوه الشهادة ، ووجوه الإثبات ، ووجوه الإعجاز ، التي إذا اجتمعت لإنسان أسلم لربّ العالمين إسلاماً حقيقياً كاملاً ، جعلته أعلم العلماء على مستوى البشر ، وفي شتى المجالات ، شرطه أن ياتمر بما أمر الله به محمّداً صلى الله عليه وآله وكل مسلمٍ لله تبارك وتعالى إسلاماً صادقاً :

{.. قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } (1).

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } (2).

ففي عصر محمد صلى الله عليه وآله لو كنت أنت وسألت أعلم أهل الأرض في أرقى الحضارات آنذاك من اليونان إلى الفرس إلى الرومان : ماذا في السماء ؟ فسيكون الجواب : نجوم ثابتة ، أو بتعبير آخر (علمي) عندهم آنذاك : مسامير ضوئية .
وإذا سألت كم سماء فوق هذه ؟ فسيكون هذا السؤال من العجب . أ يوجد أكثر من سماء ؟ هكذا كان حال أعلم العلماء في بقاع الأرض قاطبة أيام رسول الله محمد صلى الله عليه وآله . فما بالك إذا سألت الأعراب والبدو الذين كانوا حول محمد صلى الله عليه وآله وليس عندهم أي لون من ألوان الحضارة .

(1) سورة طه ، الآية 114 .

(2) سورة الأنعام ، الآية (162 . 163) .

وهم لولا الإسلام العظيم لكانوا ظلّوا إلى يومنا هذا عَيْنَةً من عَيْنَات القرون الوسطى ، إلاّ أنّهم بالإسلام فيما بعد ، سادوا حضارات الماضي ، ووضعوا الأسس الإيجابية لحضارات اليوم . وهم إذا رجعوا إلى الله متمسكين بكتابه الكريم وبسنّة محمد وآل بيت محمد صلى الله عليه وآله ، فسيبنون حضارة المستقبل ، بدون سلبات . فيسعدون سعادة الدارين ويسعدون معهم البشرية .

ثم من أين لرسول الله صلى الله عليه وآله ، أن يعلم آنذاك ، مفاد الآيات التي في القرآن ، والتي تكشف منها جانب بعد تطوير التلسكوب الذي استعمل أول مرة في القرن السابع عشر ، أي بعد (1200) سنة حوالي إثني عشر قرناً من نزول القرآن العظيم .

من أين لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله أن يعلم ، لولا القرآن أولاً ، ولولا المعراج

ثانياً ، إلى السماء السابعة :

{ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى } (1)

والقاب ، هو المعروف في الهندسة **Rayon** بشعاع الدائرة . فإذن انطلق محمد صلى الله عليه وآله من مركز دائرة السماء الدنيا ، خارجاً من أحد أقواسها (وذلك هو القاب الأول) ثم ارتفع مسافة القاب الثاني ، مقارباً قوس الدائرة الثانية " وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى " فكان أدنى قليلاً من قاب قوسين ، غير مرتكز على شيء مادي ، حتى ولا على نظام الجاذبية . كذلك مما يجب أن يستفیده علم الفلك الحديث ، أن جميع الفتوحات العلمية الباهرة في عالم الكواكب والنجوم والمجرات والأبعاد الهائلة التي تقاس بملايين السنين الضوئية ، كل ذلك ، إنما يقع تحت السماء الدنيا ، التي فوقها ستّ سموات ، فوقهنّ العرش العظيم .
ثم إنّ رسول الله محمد صلى الله عليه وآله كان همّه الأول والأكبر ، أن يقنع بدعوته العرب أولاً وبشكل خاص ، لأنهم على عنفوانهم ، ونزعتهم المتميزة

(1) سورة النجم ، الآيات (9 . 8) .

إلى الحرية والفردية ، سيكونون كما أراد لهم وعلمهم الله سبحانه ، قاعدة الدعوة ، وأساسها، وركيزتها .
إذ أن القرآن هو لبّ الدعوة وعقلها ، وهو عربي ، ولا يمكن أن يستسيغه ، ولا حتى أن يقبله ، بالبداهة ، والتفاعل السريع ، غير العرب .
ومعلوم تاريخياً ، أنّ العرب آنذاك ، زمن محمد صلى الله عليه وآله لم يكونوا أهل حضارة وعلوم ، بل كان أبرز شأنهم ، التجارة في العواصم ، والرعي والبداوة ، على امتداد شبه الجزيرة العربية ، إضافةً إلى اللغة الصافية التي كانت الطابع المميّز ، لهؤلاء وهؤلاء ، من أهل حضر وأهل وبرّ .

فلو كان الفكر هو فكر محمد صلى الله عليه وآله ، والتخطيط لنجاح الدعوة هو تخطيطه ، فأول ما كان يجب أن يتعامل مع هؤلاء القوم ، بما يفهمونه، ويستجيبون له . فلماذا جاءهم ومن أين ، بهذه الآيات العلمية ، التي كانت ربما ، متعبة لهؤلاء القوم ، وهو لا يريد أن

يتعب أفكارهم . هو يريد أن يقنعهم . وواضح أن هذه الآيات العلمية ، لم تساهم أية مساهمة في إقناعهم . فلماذا الآيات العلمية الكثيرة والمعقدة ؟

إذن لا شك البتة ، في أن محمداً صلى الله عليه وآله لم يكن المخطط ، وأن محمداً صلى الله عليه وآله لم يكن المفكر بما ينفع ، وبما لا ينفع من الآيات ، وإنما كان محمد صلى الله عليه وآله السامع ، المتلقي ، ثم المبلغ حرفياً لما ينزل عليه من ربه رب العالمين . ولولا أن القرآن الكريم هو وحي من الله سبحانه ما كان محمد صلى الله عليه وآله يستطيع أن يتحرف مستقبل البشرية بهذه الآيات الباهرة ، في مجال الفلك والنفس والإنسان والطبيعة والكون كله ، ثم لم يكن منها فائدة ما دام لا يفهمها أحد من الناس إلا من رحم ربك . فمن أين أتى محمد صلى الله عليه وآله بهذه الأسرار ؟ وهي لم تفده ولم ترفده في دعوته آنذاك لا من قريب ولا من بعيد . وإنما ظلت مئات السنين أسراراً ورموزاً ، حتى قبض الله سبحانه كشف مصاديقها للعلماء . فمن أين لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله كل ذلك ،

إذا لم يكن نبياً مرسلًا من لدن الله تبارك وتعالى ، والقرآن وحيًا يوحى :

{ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عِلْمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ } (1) .

وهل كان لأي إنسان آنذاك ، مهما علا شأنه ، أن يلم بهذه العلوم العالية ، بدون مقدمات علمية ، وأدوات فكرية ومادية ، تساعده على معرفة هذه الأسرار . هذا مستحيل . فإذن وحده خالق هذا الكون ، هو الذي أخبر عنها في القرآن الكريم ، وهو الذي علم رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وعلم بعده أوليائه ، ثم البشرية . لأنه وحده تبارك وتعالى يحيط بأسرار السموات والأرض وما بينهما ، وهو بكل خلق عليم .

من هنا يتضح بشكل قطعي ، أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } (2) .

{ .. وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا } (3) .

بقي علينا أن ندرك ، أنه ما دامت آيات كثيرة ، فيها مثل هذه الكنوز العلمية ، ولم يكن عند الماضين ، تمكين لسبر أغوارها وفك رموزها ، بل كانوا يمرون بها مكتفين بما يحمله ظاهرها المريح لإفهامهم على قدر أفهامهم ، فكذلك ما زال الكثير أيضاً من الآيات في عصرنا هذا ، هو بالنسبة للمفسرين من المغلقات المغلقات بالجمال والإقناع على قدر الحاجة . ولكنها

(1) سورة النجم ، الآيات (5.3) .

(2) سورة الفرقان ، الآيات (6.4) .

(3) سورة الفرقان ، الآية 8 .

يقيناً ستحمل فتوحات ما بعد الكشف عن مضامينها ، أو عن مصاديقها في كتاب الكون.

كتابان لله يفسر بعضهما بعضاً :

وختاماً لهذا البحث يجب أن نذكر دائماً أننا إنما نعرض هذه الحقائق ، ليقرّ في الأذهان ، والعقول والقلوب ، أن القرآن معجز وأنه . رغم كل ما قد يقال ، ظناً ، أو جدلاً . من أعظم الروافد الظاهرة ، للعقل الإسلامي المتفوق .

وأنه ما كان لبشر ، أن يعلم هذه الأسرار ، وهذه الحقائق الفلكية قبل القرآن المجيد ، ولا حتى في زمن القرآن ، ولا حتى بعد مئات السنين من القرآن ، حتى يأذن الله عز وجلّ بالكشف تدريجياً عمّا في القرآن وفي الكون :

{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتَهُمْ تَأْوِيلُهُ .. } (1) .

نعم ، حتى أذن الله تبارك وتعالى ، ببعض تأويله ، ببعض الكشف التدريجي عمّا في القرآن الكريم ربطاً بملكوته وملكه العظيم . وينسب ، هي وإن كانت جليلة بالنسبة للإنسان ،

إلاّ أنها ما زالت قليلة جداً في مجال العلم ، وفي المجالات اللانهائية لكلمات الله ، التي بها يكشف عن النواميس أو القوانين العلمية ، وبها يعلم وبها يخلق ، قوله تعالى :

{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (2).

وكذلك ، علينا أن نتذكر دائماً ، أن ما يكشف في شتى ميادين العلم من أعاجيب ومددهشات ، إنما هو تحقيق لوعده الله عزّ وجلّ حيث قال :

(1) سورة يونس ، الآية 39 .

(2) سورة لقمان ، الآية 27 .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. } (1).

ومن هنا نرى أن الرافد الثاني العظيم للعقل بعد القرآن هو كتاب الكون ، متضمناً منائره القادة الملهمين ، الذين اجتباهم الله عزّ وجلّ ، لكشف الأسرار وتعليم البشرية ، حسب حاجة كل جيل ومستواه التحصيلي في مجال العلوم أو مستواه الفكري .

والله عزّ وجلّ ، يعلم خلقه الأرضي ، من جن وإنس ، بهذين الكتابين غير منفصلين ، رابطاً الثاني بالأول الذي هو القرآن المجيد ، هادياً ومعلماً ومرشداً ومسدداً .

{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } (2).

مهمة العلم :

كما أنه ينبغي ألا ننسى كذلك ، أن مهمة العلم هي التفكير والخلق والإبداع ... استنتاجاً واستقراءً إلى أقصى الحدود التي يصل إليها الفكر أو الخيال أو الظن . ومادته (أي مادة العلم) هي جميع ما خلق الله في السماوات والأرض وما بينهما . إلاّ أن العلماء ينشعبون على هذا الأساس إلى شعبتين : شعبة للنعيم ، هم أهل طاعة الله ، وشعبة للجحيم هم أهل

معاصيه .

ثم يشير القرآن المجيد إلى الكون اللامتناهي متحدياً أهل السموات والأرض بقول الله ،

والله أكبر :

{ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

{ (3) .

(1) سورة فصلت ، الآية 53 . (2) سورة النحل ، الآية 89 .

(3) سورة لقمان ، الآية 11 .

(13)

نحن وحضارة العام ألفين ...

إلى أين ؟ !

نحن وحضارة العام ألفين ... إلى أين ؟ !

وجهان للحضارة : جميل وقبيح :

ممّا لا شكّ فيه أن الحضارة ، بما تعنيه من تقدم وتطوّر مذهل ، في شتى مجالات النفس والكون ، قد جعلت الإنسان أغنى بالمعاني ، وأقدر على التحكم بمعطيات الوجود ، وبالتالي أرفع مستوى ثقافياً ، ممّا كان عليه الأسلاف من عوام البشر .

نستثني من ذلك الملهمين ، كما نستثني احتمال حضارة أو أكثر ، يقال إنها فاقت حضارتنا هذه . ولعلها هي التي اشار إليها الله عزّ وجلّ قوله :

{ أَتَّبِنُونَ كُلَّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ }⁽¹⁾ .

ودمرها لما أن انحرفت عن طاعته وتعاليمه .

أما من الوجهة الإيجابية للحضارة ، فجميل جداً أن تضغط زراً لتضيء المنزل أو الشارع أو المدينة بنور مريح ، بدلاً من الشمعة أو قنديل الزيت . مع الفارق الكبير ، العملي والنوعي والاقتصادي .

والأجمل منه أن تطير إلى مكة ، أو تخرج على الدولاب ، حاجاً ،

(1) سورة الشعراء ، الآيات (128 . 129) .

فتصل إليها في بضع ساعات ، أو بضعة أيام . وكذلك إلى أي مكان على هذا الكوكب . وأن تسعد بصحبة عيالك أو أخوانك إن صحبتهم ، أو تعود إليهم على جناح الشوق ، دون طول غربة وطول فراق .

ويتكامل الجمال في عينيك ، ويصبح رافداً للسعادة في قلبك ، عندما تشكر الله ... وتقول عندما تقلع بك الطائرة ، أو تندفع بك السيارة :

{ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ }⁽¹⁾ .

كل ذلك بدلاً من الوسائل البدائية ، وما كان فيها من كلفة البدن ، وكلفة الزمن ، وهدر ما بينهما من الطاقات .

وجميل أن يكون لبيتك سقف ، تنزلق عليه مياه المطر ، بدلاً من أن تتسرّب عبر السقف التراي إلى الداخل ، فتختلط بدخان الموقد العتيق ، وتمتزج بالدموع ... التي توشك أن تكون بكاء ، فتنغص بركة الشتاء ، وبركة الحياة . ولو كان لا يجرح في ذلك قول ميسون الكلبيّة زوجة معاوية :

لَبَيْتٌ تَعْصِفُ الْأَرْيَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مَنِيْفِ
وَلَبَسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرُّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَعَلَجٌ مِنْ بَنِي عَمِّي لِحَيْفِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجِ مُحَيْفِ

إذ أنها لا تلام في ذلك ، وهذا الموقف شبيه ، ولو من طرف الزوج ، بموقف زوجة فرعون ، التي أخبر الله سبحانه أنها قالت ، وقد شاهدت فساد القصر وكفر من في القصر :
{ .. رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ .. } (2) .
وجميل في الحضارة أن تدير مفاتيح الكهرباء ، أو الغاز ، لتطبخ ، أو

(1) سورة الزخرف ، الآيات (13 . 14) .

(2) سورة التحريم ، الآية 11 .

تهيء بالسرعة ما تشاء من طعام وشراب ، وبدلاً من النفخ على الحطب ، الذي يذكرنا بإزعاجه ، جانباً من معنى قول حاتم الطائي لعبده :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ وَالرِّيحُ يَا وَاقِدَ رِيحٍ صَرٌّ
إِنْ جَلَبْتَ صَيِّفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

وجميل في الحضارة أن تنقل أصابعك على لوحة صغيرة ، لتحسب في عمليات رقمية معقدة ، فتحصل على نتائج ، نادراً ما تحتاج إلى مراجعة ، وذلك في ثوان ، كانت تقتضي في الماضي ساعات طويلاً .

وكم تشعر بالحيوية والنشاط والسعادة ، وأنت تشكر الله ... متمتماً أمام كل جهاز ، أو نتيجة كل عملية يسرها سبحانه :

{ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (1) .

{ .. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .. } (2) .

ثم تبتسم ابتسامة المشفق الحزين ، على الذين حرموا أنفسهم نعمة الإيمان : { الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا } ، فحرموا السعادة الحقيقية ، ولذلك ادّعوا أنها من المستحيلات .

وجميلاً في الحضارة الثلاثة ، والغسالة الأوتوماتيكية ، وأنواع المنظفات ... والحمامات التي تذهب بما يستقبح إلى باطن الأرض ، ولا عين رأت ولا أنف شم ... جميلاً النظافة ، نحصل

عليها بالطريقة الآلية بدون عناء ومريحة في الحضارة الدولة العادلة ، ومؤسساتها النظامية ، وإداراتها الفنية المعززة بالالكترونيات ، وكذلك الأنظمة المانعة للفوضى في الناس ، والفوضى في الأشياء ... وما أكثر وجوه الجمال في الحضارة . ولو شئنا أن نعدد لاقتضى الأمر منّا مجلدات : في مجال ذات الإنسان ، وفي كوكبه السّواح حول الشمس ، وفي الفضاء ، وفي الفلك .

(1) سورة العلق ، الآية 5 . (2) سورة الأعراف ، الآية 43 .

والأجمل من ذلك كله ارتقاء القمر ، والتنقل عليه ، بخفة توازي (8/1) ثمن وزن الإنسان على الأرض ، بما يشبه الطيران ، فوق تلاله وآكامه . ثم التطلع منه . عبر العلم الذي أوصل إليه . نحو جيران أرضنا : المريخ الأحمر ، بأقماره ، وزحل ، بهلاته الشاعرية ، والمشتري عملاق الكواكب ، هذه وبقية مجموعتنا التي تقودها شمسنا كراع يقود قطيعه ، ولا أحد غير الله ، يعرف إلى أين ، والراسخون في العلم . والأجمل أيضاً ، الحلم بارتقائها ، بعضاً أو جميعاً ، وأخذ فكرة عن من حولها ، أو منها ، أو عبرها ، عن الجنة والنار... أفي مجموعتنا الكوكبية هما ، أو في مجرتنا درب التبانة ، أم في مجرة أخرى معروفة ، أم في مجرة من اللواتي تراهن المراصد مرة واحدة ، ثم لا تعود تراهن أبداً؟! النعيم والجحيم، هل هما في كوننا المرئي ، أم في كوننا غير المرئي من دنيانا هذه؟!

جميلة التلسكوبات ، وأجهزة الرادار ، والمراصد ، والجالسون أمام عدساتها ، ولوحاتها الإلكترونية : يراقبون ... يدرسون ... يسجلون ... ينبهون ، وينبههم معهم العالم ، بما في هذا الكون من أسرار وجمال ، وحسن وروعة ، ومفتحات ومغلقات ... تارةً نشعرنا بالسعادة والشوق ، إلى ما وعد الله به الأبرار ، وتارةً نشعرنا بالرهبة والفرع ، وتغرقنا في التأمل ، عن النفخ بالصور ، والقيامة ، وأهوال القيامة ، والإنبعث، من ذلك الذي هو في مفكرة العلماء اليوم : طواحين الشمس والكواكب ، وهي ما أسماه العلم بالثقوب السوداء، ووصفها بأن بعضها، تهوي فيه مجموعات كوكبية بشموسها ، فتطحنها طحناً ، وهو أمر استنتاجي عندهم ،

ولنا نحن أن نستنتج معهم ، أنها أمثلة يضربها الله لنا عن القيامة الكبيرة الكلية الشاملة ، التي عناها بقوله عزّ وجلّ :

{ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ
وَكُلُّ أُمَّةٍ دَاخِرِينَ } (1) .

(1) سورة النمل ، الآية 87 .

والعلماء يصوّرون هذه الثقوب على شكل أبواق ، الواحد منها يجذب المجموعة الكوكبية ، جذباً عنيفاً ، يتلعتها ابتلاعاً ، يسحقها سحقاً ، ثم تنبعث من جديد ، من طرفه الآخر ، من الثقب الأبيض ، تنبعث وقد أعاد خلقها الذي يميت كل شيء ، ليعثه حياً كما خلقه أول مرة ، قوله عزّ وجلّ :

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } (1) .

وإذا لم نفهم الثقوب السود ، فهماً قرآنيّاً ، كان في خروجنا من الثقوب البيض استحالات وإشكالات . ومن الإنذارات ، قوله جلّ شأنه :

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ، إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ... } (2) .

جميلة الحضارة ، ومخيفة ، وجميل العلم ، ومخيف ...

يبقى أن الأجل من هذا كله ، كما السعادة في كمالها واستمراريتها ، أو الأكثر قبحاً ، وأشدّ إرهاباً ، هو عقل الإنسان ، في التواصل معه أو في هجره ، فمن أين هذا العقل ، وبالتالي

هذا الإنسان . وإلى أين؟!

بليغ هذا السؤال ، والأبلغ منه الإجابة عليه ، الإجابة التي تقول ، لا إله إلا الله الإجابة التي تضع على الحقيقة العين والقلب وكل ذرة في الكيان . وقد وضعها ناس ، فسعدوا سعادة الأبد . وما زال ناس آخرون ، يمدّون إصبعهم ، تارةً في عتمة ، وتارةً بين النور والعتمة ، وتارةً في سراب ، وتارةً تحت قنديل ديوجين ، الذي كان يسير به في ضوء النهار ، باحثاً عن

(1) سورة يونس ، الآية 4 .

(2) سورة محمد ، الآيات (26.24) .

الحقيقة . والحقيقة ما هي في عتمة ، ولا هي في الشك ، ولا هي في سراب ، ولا هي من ديوجين في مزحة أو خبال .

هذه الحضارة الجميلة ، أرادها لنا الله سبحانه وتعالى سعيدةً مسعدة . ولكن اشترط على الإنسان أن يعرف خالقه من آثار صنعه ، وكرمه وعظمته . وأن يحترم النعمة العظمى ، التي هي عقله ، فيغذّيه بعلم وهداية وكتاب منير ، أسمع قوله عزّ وجلّ :

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.. } (1)

وقوله تبارك وتعالى :

{ طه مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } (2)

وقوله عزّ شأنه :

{ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (3)

وقوله عزّ شأنه :

{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (4)

وقوله وما أكرمه :

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. } (5)

ثم تنهال التحذيرات من تشويه وجه الحضارة :

(1) سورة لقمان ، الآية 20 .

(2) سورة طه ، الآيات (2 . 1) .

(3) سورة العلق ، الآيات (5 . 3) .

(4) سورة الجاثية ، الآية 13 .

(5) سورة الأعراف ، الآية 32 .

{ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى }⁽¹⁾ .

ثم : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ }⁽²⁾ .

ثم : قوله جلّت عظمته :

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ }⁽³⁾ .

-
- (1) سورة طه ، الآية 81 .
 - (2) سورة الرحمن ، الآيات (8.7) .
 - (3) سورة النحل ، الآية 26 .

القيامة الأولى أو الصغرى

القيامة الأولى أو الصغرى :

وأعني بها الحرب العالمية الثالثة ، التي نحن والعالم بصددها . وقد سميتها " القيامة الأولى " مجازاً ، تشبيهاً بالقيامة الحقيقية ، التي هي آتية بعدها ، حاملة معها وعد الله وووعيده النهائيين .

فالحرب الآتية قيامة صغرى ، لأنها سيكون فيها من الأهوال على الكافرين ، والندم والإبلاس من رحمة الله خطوب عظيمة . ولأنها ستدك جوانب من الكوكب الأرضي هذا الذي نحن عليه ، ستدك دولاً بما فيها من مدن وقرى وجبال راسيات . وتقتل ملايين الأحياء ، وفي مقدمتهم من البشر ، عباد الحضارة وعبيدها ، أسياداً وتابعين .

والله عزّ وجلّ ، كما جعل للقيامة الكبرى أشراطاً ونذر ، كذلك جعل لأشراطاً ونذر للقيامة الصغرى التي على الأبواب ، وذلك تنبيهاً للعالمين لكي يستعدوا ويكونوا دائماً على حذر ، ويفرّوا إلى الله سبحانه ، حيث لا ملجأ ولا مأوى يؤويهم دونه . ومن أين الملاجيء إذا أصبح حصيداً عمران دول حضارة الفحشاء وعماراتها . وهذه علامة : قوله تعالى :

{ .. حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارْبَتْتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (1) .

وفي ما يلي سنذكر من أشراط القيامتين التي يبدو أنها متداخلة والتي يبدو أنها في عزّ هجمتها في عصرنا هذا وأيامنا هذه ، ولو كان لا يدرك هذا الأمر ولا يتنبه إليه إلا بعض من لهم خصوصية من الله سبحانه .

ولكي نوفر على أنفسنا الوقت ، لن نلتفت كثيراً إلى الوراثة التاريخي ، وإنما سنكتفي بإشارات معاصرة وعلامات ، تفرض في كل عاقل أن يعتمدها استقراءً أو استنتاجاً . ليصل من خلالها إلى وجوب أن تقوم حرب عالمية ، شبه شاملة لأرقام المعادلة أو أطرافها أو أقطابها حتى أنه يكاد يكفي الاعتماد في الاستنتاج على ظواهر الأمور ، كما يفعل الصحفيون أو المراقبون سياسيون وعسكريون .

وقد قلت (يكاد يكفي) ولم أقل يكفي ، لأنه ليس بكاف في الحقيقة إلا علم من لدن الله تبارك وتعالى : اعتماداً على آياته ونواميسه ، وإخباره لمن يشاء من خلقه :

{ .. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.. } (2) .

{ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } (3) .

والله سبحانه أذن بالاستنتاج والاعتماد نسبياً على الظواهر :

{ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. } (4) .

-
- (1) سورة يونس ، الآية 24 .
 - (2) سورة الروم ، الآية 4 .
 - (3) سورة الروم ، الآيات (7.6) .
 - (4) سورة الروم ، الآية 9 .

ففضلاً عن الحربين الكبيرين السابقتين وما قبلهما وما بينهما ، من الفساد الذي ملأ البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . فأثمر الفساد والتنكر لله ولدين الله ، ولتعاليم الله ، هاتين الحربين . فصّب الله على الفاسدين والمفسدين غضبه وانتقامه وعذابه .

كذلك جاء عصرنا هذا مليئاً بالمفارقات والمغالطات ، والظلم والجرائم على أعلى مستويات الدول ، بين إلحادٍ في جانب ، وفجورٍ في جوانب ، وأتباعٍ لذاك في شتى الأقطار ، ممّا أنتج حالات سياسية شوهاء في بقاع الأرض ، أقضت وما زالت تقض مضجع مليارات البشر في القارات الخمس .

من هم أنصار الله : اليهود المفسدون ، أم العرب (الأميون) والأمة المسلمة :

وأبرز هذه الحالات الطاغية الباغية ، والأكثر نشازاً وفساداً وإفساداً في بقية حالات العالم ، هي دولة إسرائيل ، إذ أن إفسادها شمل شعوب العالم ، وهو إفساد تاريخي ومبرمج مدروس ، إفساد هادف ، والهدف منه هو تدمير كل قيمة دينية أو أخلاقية ، أو إنسانية ، أو حتى اجتماعية واقتصادية في جميع شعوب الأرض ، وفي كل من هو غير يهودي . إذ أن غير اليهود وهم المليارات البشرية التي تقطن هذا الكوكب ، هم بنظر اليهود " أميون " وهي ترجمة لكلمة " غوييم " العبرية وهم يعنون بها : المستوى البهيمي . ويزعمون أن المسلمين يقرّون بذلك إذ أن لفظة (أميين) واردة في قرآنهم على أنها تسمية للعرب الذين ارتضوها مقرّين بأميئتهم التي معناها الجهل والفقر إلى المعرفة .

والواقع هو كذلك ، فإن العرب وغيرهم من المسلمين لم يقفوا عندها طويلاً كعادتهم في انصياعهم لطاعة رب العالمين . ما داموا قد أكرمهم الله بكرامة الإسلام وكرامة القرآن وكرامة أعز المرسلين النبي الأمي محمد صلى الله عليه وآله .
ولكن الأمر أبلغ وأعظم ، حيث آتانا الله سبحانه حقيقة ما تعنيه .

المعنى القرآني للفظي : أمي وأميين :

قال تعالى :

{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ .. } (1) .

وقال سبحانه :

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاٰمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (2) .

في الحقيقة ، إن لفظة (أمي وأميين) أخذ يتداولها العرب قبل غيرهم ، بعد نزول القرآن الكريم . إذ كانت الألفاظ التي تتعلق بها في اللغة شبه منسية . فبعثها القرآن بمعان فهمت فهماً مقارناً مغلوطاً بنسبة أو بأخرى . لذلك نجد لها احتمالات عديدة في تفسيرها ، مما يدل على عدم الثبات عندهم على معنى واحد . ومن هذه الاحتمالات :

- 1 . إن النبي (ص) وصفه الله سبحانه بالأمي لأنه لا يقرأ ولا يكتب .
- 2 . أنه سبحانه وصفه بالأمي ، نسبة إلى مكة التي تكنى بـ (أم القرى) .
- 3 . أنه [قيل لمحمد صلى الله عليه وآله (الأمي) لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب] (3) .

- (1) سورة الجمعة ، الآية 2 . (2) سورة الأعراف ، الآيات (157 . 158) .
 (3) لسان العرب . ابن منظور . مادة أمة .

فبخصوص هذه الاحتمالات المسلمة والمتداولة . تنفي كونه صلى الله عليه وآله أمياً بمعنى أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ، وتدعي أنه كان أفضل من قرأ وكتب في تاريخ البشرية . ودليلنا بخصوص القراءة ، أمر الله تبارك وتعالى له بواسطة جبرائيل عليه السلام حين قال : إقرأ ... (فعلى الرواية) قال ما أنا بقارىء ... قال : إقرأ باسم ربك الذي خلق ... فقرأ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }⁽¹⁾ .

وهكذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله أحسن قراءة عرفت ، وظلّ يقرأ حتى أكمل الله عليه وعلى البشرية الدين الحنيف والقرآن المجيد وظلّ يقرأ هكذا حتى قبضه الله إلى رحمته وجواره وحبّه .

وكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله كتب كثيراً ، وإنما بنفس الطريقة التي بها قرأ . أعني بدون قلم ولا قرطاس . والحقيقة العليا للقراءة والكتابة ، أنهما في العقلاني الذي هو قبل التجسيم الحسيّ أو المحسوس ، هما كذلك بدون أدوات ممّا نعرف وتداول . حتى القلم واللوح ، إضافة للقراءة والكتابة ، لهما معان ، فوق ما نتصور في عالم المحسوسات .

ولكن ، صحيح أن محمداً صلى الله عليه وآله كان في العرف العادي لا يقرأ ولا يكتب بيده . إلا أن الله سبحانه لو كان وصفه بالأمّيّ قاصداً جهله بالكتابة والقراءة ، لما كان أولاً قال له اقرأ ... فقرأ . ولكان ثانياً اكتفى بهذه الصفة صفة (الأمّيّ) ، إذا كانت كما فهمها . خطأ . العرب ثم الآخرون . إلا أنه حيث لم يرد سبحانه هذا المعنى ، وإنما أراد لرسوله محمد صلى الله عليه وآله ، أن يكون عُرفاً ، لا قارئاً ولا كاتباً ، لذلك خاطبه عزّ شأنه بقوله :

{ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابِ الْمُبْطِلُونَ }⁽²⁾

(1) سورة العلق ، الآيات (5.1) . (2) سورة العنكبوت ، الآية 48 .

فمحمّد صلى الله عليه وآله لم يكن أمياً بمعنى جهله القراءة والكتابة . فكونه كان يجهلها معروف بالنص والسيره . ولكن أمياً . كما وصفه الله سبحانه . لمعان آخر ، وكذلك قومه العرب . فما هي هذه المعاني ؟ ...

إن هاتين اللفظتين (أمّي وأميين) إنما هما في أوجه معانيهما ، تشريف للنبي صلى الله عليه وآله وتشريف لقومه العرب . ففي تحليلهما اللغوي ، هما نسبة لأمّ التي معناها الأمة ، ففي لغة العرب : [(الأمّ كالأمة) أنظر لسان العرب لابن منظور ج 12 ص 27 . دار صادر] . و (الأمة) إذا كانت تعني شخصاً ، ففي جملة معانيها : (الأمة : الرجل الجامع للخير ، الأمة : الإمام ، الأمة : العالم ، الأمة : الرجل الذي لا نظير له ، إلخ ...)⁽¹⁾ .

ولفظه أمة ، هي في آية من آيات القرآن ، تعني النبي إبراهيم عليه السلام ، وهي قوله تعالى :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّم يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }⁽²⁾ .

ونسبة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ونسبة قومه العرب لأبيهم إبراهيم عبر ولده إسماعيل عليهما السلام معروفة ومشهورة حتى عند اليهود أنفسهم ، ناهيك عن شهرتها التاريخية . إلا أن اليهود معروف عنهم تحريف الكلم عن مواضعه . وقد حرّمهم الله سبحانه من شرف انتسابهم هم والنصارى إلى إبراهيم ، وقرّر هذا الشرف لمحمّد صلى الله عليه وآله ولقوم محمّد من العرب وكافة المسلمين . فليتأمل المتأمل في تأنيبه لهم وللنصارى :

{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ }⁽³⁾ .

ثم قوله تعالى :

(1) نفس المصدر . لسان العرب .

(2) سورة النحل ، الآية 120 .

(3) سورة آل عمران ، الآية 65 .

{ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } (1) .

وخليل الله إبراهيم هو رمز التوحيد في تاريخ البشرية ، والتوحيد هو أصل الدين القيم ، وروحه ونوره ومنطلق حقائقه وأسراره ، وقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله :

{ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (2) .

يعني التوحيد في أعلى منازلته .

ثم قوله تعالى للعرب قوم محمد صلى الله عليه وآله وكذلك لجميع من التحق وسيلتحق بهم من المسلمين :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } (3) .

وواقع أن في ذلك خصوصية واجتباءً (أي اصطفاءً) وتفضيلاً على بقية الملل وبقية الشرائع السماوية ، بدلالة قوله سبحانه : { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ... } وتتضح هذه الخصوصية وهذا التفضيل أكثر فأكثر في قوله سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } (4) .

- (1) سورة آل عمران ، الآية 68 .
- (2) سورة الأنعام ، الآية 161 .
- (3) سورة آل عمران ، الآية 110 .
- (4) سورة الحج ، الآية 78 .

هؤلاء هم الأمميون الذين شرفهم الله سبحانه وأكرمهم بأن سمّاهم كذلك ، ذلك لأنهم وحدهم كانوا ، وسيبقون في الأرض ، ما بين قطبيها ومشرقيها ومغربيها ، هم وحدهم أمة التوحيد ، أمة لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، والكون أحد ، فالكون كله ليس كفواً لوحداية الله وجبروته وعزّته .
وأهل التوحيد هم أنصار الله ، وأنصار الله هم أهل التوحيد . وغيرهم ليسوا أنصار الله لأنهم غير موحدين .

فاليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وقالوا عزير ابن الله ، وغيرهم بقية أهل الأرض ، يراوحون بين وثنية وصنمية وإلحاد ، في عقائدهم وضلالاتهم ومعبوداتهم من تعبد لأصنام منحوتة أو مصوّرة في الكنائس ومعابد الشرق الأقصى إلى تماثيل ماركس ولينين وستالين وغيرهم في الإتحاد السوفياتي وبقية دول الإلحاد سواء على الطريقة الشيوعية أو على الطريقة الرأسمالية . أصبحت مع اتساع الإعلام الحديث ظاهرة مكشوفة ، ليست بحاجة منا إلى أن نورد صوراً ووثائق وأدلة .

المسلمون يشهدون كل يوم شهادة أن لا إله إلا الله ، وكل أهل الأرض غيرهم ، يعبدون ما ينحتون ، بين نحت فكر ونحت إزميل ، حتى أن ملايين تثور لأجل صنم أسقطه على الأرض ثوار آخرون : هؤلاء لأنهم حكموا باسمه فأكلوا حقوق الآخرين قمعاً وظلماً ، وهؤلاء لأن صاحبه كان وعدهم الشبع ، فما وجدوا لديهم إلاّ الجوع ، الذي أشدّه جوع الأنفس ، ثم الضياع الذي أسوأه البعد عن الله تبارك وتعالى .

والله سبحانه لا ينصر إلاّ أنصاره :

{ .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (1) .

* * *

(1) سورة الحج ، الآية 40 .

التوحيد ... وأنبياء وأولياء ... والمهدي المنتظر ... والله أكبر :
قال الله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } (1) .

والتأييد هو التوفيق والتمكين المتوج بالنصر ، وقد أنعم الله عليهم بكل ذلك لأنهم ما سقطوا في الشرك . وفي السؤال ابتلاء يبتلي الله بمثله من يشاء من عباده .

وهؤلاء الذين هم صدقوا بالمسيح نبياً مرسلاً من لدن الله تبارك وتعالى ، كانت عقيدتهم التوحيد ، إذ أنهم كانوا حقاً أنصار الله ، ولم يكونوا أنصار المسيح ، إذ هو معهم أيضاً نصير الله ، وأبلغ دليل على ذلك ، بلاغة جوابهم ، ودقته وحرصهم على كل حرف فيه ، وهم لو أنهم قالوا للمسيح عليه السلام ، نحن أنصارك إلى الله ، حسب توجيهه سؤاله ، لما كان في ذلك في الظاهر خطأ ولا شبهة . وإنما هو سرّ التوحيد ، وسلامة التوحيد ، والصدق في التوحيد ، والولاء الحقيقي والكلّي لله سبحانه ، الولاء الذي لا يشوبه أدنى شائبة من الولاء لغير الله ، إلاّ ما أمر الله به ، وبالنتيجة يكون الولاء لله وحده وحده لا شريك له ، ومثل ذلك قوله تعالى :

{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. } (2) .

ولم يقل سبحانه: محمد وأنصاره ، أو أتباعه ، أو أي تعبير آخر ، علماً أن عشرات الآيات ، يقرّر فيها سبحانه بديهية الإلتباع لمحمد صلى الله عليه وآله ولجميع أولياء الله :

(1) سورة الصف ، الآية 14 .

(2) سورة الفتح ، الآية 29 .

{ .. وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. } (1) .

هذا فضلاً عن أن لمحمد وآل بيته خصوصية وامتيازات ، ليست لأحد من خلق الله ممن سكن بعدهم هذه الأرض . منها أنهم من مقاليد السماوات والأرض ، ولو كان على الله وحده يتوكل المتوكلون ، إلا أن بهم كذلك يتوسل المتوسلون . ولكن بالرغم من هذه الخصوصية والإمتيازات ، لمحمد وآل بيته عليهم السلام ، تبقى حقيقة حقائق الإِتِّبَاع ، هي في غايتها القصوى لله تبارك وتعالى ، وذلك هو المراد في قوله عزّ شأنه وجلّت عظمته :

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } (2) .

ومحمد صلى الله عليه وآله لا يهدي إلا أن يُهْدَى ، وكذلك آل بيت محمد صلى الله عليه وآله وكذلك نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وجميع الأنبياء والرسل والأئمة وجميع خلق الله . وهكذا فإن محمداً صلى الله عليه وآله والذين معه ، هو وهم جميعاً أنصار الله جلّت قدرته .

طبعاً مع الفارق الذي يكاد لا يقاس بين محمد وآل بيته من جهة ، وبين أهل الأرض كلهم من جهة ثانية ، ومع هذا الفارق العظيم ، يبقى من وجوه شرف محمد أن يكون عبداً لله ، يقول له ربّه سبحانه :

{ .. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا } (3) .

فيرفع يديه إلى ذي الجلال والإكرام ، خاشعاً خاضعاً ، فقيراً إلى عنايته وهدايته ورحمته ، ويقول : " رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا " .

- (1) سورة لقمان ، الآية 15 .
 (2) سورة يونس ، الآية 35 .
 (3) سورة طه ، الآية 114 .

لا تدعوا مع الله أحداً ...

وفي أن أي ولي من أولياء الله ، لا يضر ولا ينفع إلا بعناية من الله وتوفيق من الله ، وإذن من الله ، وتسديد منه سبحانه ، وأنه لا يجوز أن ندعو مخلوقاً من دون الله ولا أن نناديه ولا أن نناجيه ، قوله تبارك وتعالى :

{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا } (1) .

وواضح معنى الآية الأخيرة ، قل يا محمد ، أنك لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، فالله سبحانه هو المالك لك ولهم ، بيده ناصيتك ونواصيهم .

وكذلك في وجوب أن لا يدعى مخلوق من دون الله ، قوله تبارك وتعالى :

{ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } (2) .

والتوجه بالدعاء لعباد الله ، أو طلب النجدة ، أو المساعدة منهم ، أو قضاء الحاجات ، نجده أكثر ما يكون عند اليهود والنصارى ، ناهيك عن أصحاب الديانات الوثنية في أقطار الأرض . وللأسف أيضاً ، نجده عند كثرة من عوام المسلمين ، حيث يقدمون على ذلك . على إمكانية أن يستجيب المخلوق الولي ، لمن يدعوه . أدلة ، فيها من ابتلاء الله لهم ولسماعهم العجب العجاب . فكلما دعا داع عبداً من عباد الله ، نبياً كان أو إماماً أو ولياً ، وأجبت حاجته كان الله سبحانه وتبارك وتعالى ، هو المجيب وليس عبده الصالح . ويفسر هذه الأمور بجلاء ، هذه الواقعة التي يقبل معانيها

(1) سورة الجن ، الآيات (21 . 18) .

(2) سورة فاطر ، الآيات (14 . 13) .

القرآن الكريم ، إذ نحن ملزمون ، بعرض كل حديث على القرآن الكريم للتأكد من سلامته :
عندما صنع السامريّ عجلاً لبني إسرائيل ، سجد له الفريق الذي طلب إليها مجسماً
يعبده ، وتردّد آخرون ، فأخذ العجل يخور ، فحسم المتردّدون أمرهم وسجدوا مع الساجدين .
وكان أن رجع موسى من ميّعه مع ربّه تبارك وتعالى ، ونسف العجل في البحر ، وابلغ أمر الله
سبحانه بأن يقتلوا أنفسهم تكفيراً عمّا وقعوا فيه . وبعد أن هدأ غضبه ، أخذ يفكر في الأمر
من بدايته ، حتى وصل إلى أن العجل كان يخور ، فمن أين الخوار؟! وسأل ربّه تبارك وتعالى
قائلاً : يا ربّي أما العجل ، فصنعة السامريّ وساعده بنو إسرائيل ، وأما الخوار فممن وهو الأمر
الذي فتنهم أيما فتنة؟ قال له تعالى : منّي يا موسى لأزيد في فتنهم وإضلالهم ، بعد الذي
أبدت لهم من نعمي ورحمتي وآياتي ، فأبوا إلا أن يعبدوا إليها مزعوماً غيري .

فإذا كان بنو إسرائيل ، في ذلك الزمن ، قادمي خيالهم الفاسد ، إلى صناعة عجل معدني
، نصبوه وعبدوه ، فإن هذا الخيال بعينه ، ما زال موجوداً في هذا الزمان ، وإنما بشكل متطور ،
تطورت معه كذلك نسبة الكفر ، والإقبال على ما هو مادي ومجسم . لكأن أكثر الناس في
التاريخ ، يرتاحون إلى الكساح ، ويفضلونه على التحليق وبذل الجهد فيه ، لمعرفة الحق الأزليّ
الأبدي . لذلك نجد أكثر الناس من أصحاب الملل ، استبدلوا تماثيل بشرية ، بتلك الحيوانية .
والذين ترقوا في كفرهم أكثر فأكثر ، استعاضوا عن التماثيل الحيوانية والبشرية ، بأولياء الله
يعبدونهم أحياءً أو أمواتاً . ومن هنا قوله فيهم عزّ شأنه :

{ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ

لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا } (1) .

وغاية الأمر أن يكون الله من وراء القصد في أتباعهم أولياء الله ، بأن لا ينسى المتولي لعباد الله ، نبياً كان أو ولياً أو إماماً ، أو عبداً صالحاً ، أو أحد والديه أو كليهما ، أنه إنما يتولّى عبد الله هذا ، لأنه منيب إلى الله ، داع إليه سبحانه . فإذا كان نبياً فلأنه يدعو إلى الله الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وإن كان إماماً وصياً أو ولياً فالأمر كذلك . يضاف إلى ذلك وجوب الحذر الشديد من الشرك الخفي . ويكون ذلك بأن يتذكر الإنسان دائماً أن الله سبحانه هو الحي القيوم ، السميع البصير ، وهو وَخَدَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : قوله تعالى :

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } (1) .

وقوله عزّ شأنه :

{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } (2) .

وبعد ، أفلا يستحي المخلوق أن يدعو غير الله ، والله أقرب إليه من حبل وريده ، أقرب إليه من دمه الجاري في أعراقه ، أفلا يخجل الإنسان أن يكون الله ربّه العظيم أقرب ما يكون إليه ، ثم يصيح ويستنجد بعبد من عباد الله ، حياً كان أو ميتاً ، سامعاً أو غير سامع كأن يقول يا فلان أدركنا ، ويا تمثال أرزقنا ، أو يا وليّ أو يا نبيّ أو يا شفيع انصرنا واكفنا .

الله صاحب العصر والزمان :

والأعجب من هذا كله ، إني عاشرت أناساً هم في موقع المسؤولية الدينية ، يحصرون المصير والمستقبل ، وحتى تفاصيل الأمور الدولية تحت عمامة مخلوق من عباد الله ، وينتظرون بفارغ الصبر مُنْقِذاً من الخلق وناصرًا

(1) سورة ق ، الآية 16 .

(2) سورة المجادلة ، الآية 7 .

من الخلق وهادياً من الخلق ، بينما المنقذ والناصر والهادي أقرب إليهم من دمائهم ، وهو معهم أينما كانوا وهو الله الذي لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ينسونه سبحانه ويتوكلون على عباده ، وإن نوقشوا في الأمر ، لقوا وداروا ثم ادعوا الزُلْفَى ورجاء الشفاعة ، اللتين بريء الله منهما إذا كانتا في واقع شرك أو جحود :

{ .. مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَّلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } (1).

ليس هذا الكلام تنكراً أو إنكاراً للمهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف ، فإن معظم كلامنا الذي دار حول وعود الله عز وجلّ بنصر الإسلام في هذا الزمان ، وبميراث الأرض ، وبالفتح المبين الذي تزول معه دولة بني إسرائيل ، كان إشعاراً وإشارةً إلى قرب موعد بعثته عليه السلام .

ولكن الطامة الكبرى ، التي طمّ بها أكثر الذين ينتظرون بعثته الميمونة ، هي أنهم نسوا الله ، وتعبدوا لعبده المهدي المنتظر ، الذي ناصيته بيد الله ، والذي لا حول له ولا طول ولا قوّة إلا بالله ، فأخذوا ينادونه ويدعونه ، ويسألونه حاجاتهم ، ويشكّون له الزمان والأيام والأقوام الظلمة ، وهو إذا كان بعيداً لا يسمع ، وإذا كان قريباً لا يستجيب ، والدليل على ذلك كثرة دعائه وندائه من قبلهم ، وعدم الإجابة من قبله ، ذلك عبر مئات السنين ، بمصائبها وملماقتها وكوارثها ، وظلم الظالمين وغدر الغادرين ، وكثرة الوقعات التي شاب ويشيب لها الأطفال . ثم إذا هم قوّموا الحصاد والمحاصيل ، رجعوا بخفي حنين . ومع ذلك ما يزدادون إلا دعاء ونداء وكتابة لافتات : يا مهدي أدركنا ، يا صاحب الزمان أدركنا ولا محيب ...

فيا الله ، يا ربنا وربهم ، يا رب العالمين ، أدركنا وأدركهم ولا تجازهم بأقوالهم وأعمالهم فإنهم لا يعلمون . ربنا واشرح صدر عبدك المهدي عليه السلام ، ويسر أمره ، وانصره على أعدائك وأعدائه نصراً عزيزاً ، وفرّج به

كربات هذه الأمة المسلمة لك ، وآتما ما وعدتها على رسلك ، فإن وعدك الحق ، وأنت العزيز الحكيم ، الحليم الكريم ، وأنت أرحم الراحمين ، وأنت صاحب الزمان ، والأزمنة والأمكنة :
{ .. مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }⁽¹⁾.

إذا دعي الله وحده كفروا :

فتعبداً بآيات الله تبارك وتعالى ، لا بما يصدر عن هوى الأنفس والمزاج والتقليد الأعمى لكثير من الأدعياء الأغبياء الذين يفترون على الله الكذب ، ويشهدون لما لم يروا ولم يتبينوا . لم يتدبروا كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا سنن أهل بيته عليهم السلام . وتعبدوا بمزاعم وأقاويل هي أقرب إلى الجهل والعصبية منها إلى الإيمان واليقين . نسأل الله لهم المزيد من الهداية والسداد والرشاد ، ونذكرهم بقوله تبارك وتعالى :

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }⁽²⁾ .

وقوله سبحانه :

{ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا .. }⁽³⁾ .

وقوله تبارك وتعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ .. }⁽⁴⁾ .

ثم في جولة عقلية في الكون ، انطلاقاً من الأرض وأهلها وسكانها من جميع من خلق وما خلق الله ، ومنذ بداية البشرية وما قبل البشرية ،

(1) سورة آل عمران ، الآية 26 .

(2) سورة الحشر ، الآية 19 .

(3) سورة غافر ، الآية 12 .

جولة نستعرض بها أكابر خلق الله ممّن نبأ وممّن أرسل وممّن قُربَ نجياً ، فهل نجدُ فيهم جميعاً وإلى أبد الآبدين ، أحداً خلق أو رزق أو فتق سماءً بغيثٍ ، أو رتقَ أرضاً بعد فوران بركان ، أو سمياً بصيراً ، أو مجيباً قديراً ، أو حياً قيوماً ، أو فعلاً لما يريد ، أو ذا بطشٍ شديد ، أو لا يعذب عذابه أحدٌ ، ولا يوثق وثاقه أحدٌ ، أو أحداً له الأسماء الحسنی ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ، غير الله؟! ... فما للإنسان يصدّ عن هذا الإله العظيم ، ذي العرش المجيد الكريم ، ويستجير بغيره ، ويستغيث بسواه ؟ كدعائهم يا محمد يا علي إنصراي إنكما ناصران واكفياني إنكما كافيان ، أو يا مهدي أدركنا ، أو يا مسيح نجنا وارزقنا ، أو يا موسى ملكنا رقاب العالمين ، والله سبحانه يدمغ هؤلاء جميعاً ببيناته وحججه وآياته ، يزرعها في عيونهم ويجعلها أغلالاً في أعناقهم يقول :

{ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .
قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } (1) .

ويقول سبحانه :

{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ } (2) .

يدبر الأمر كله ، وحده لا شريك له ، بدون مساعد ، ولا معاضد ، ولا يتعبه أدنى تعب
حفظ الكون وتدبيره بما فيه من الأفلاك والسماوات الهائلة الاتساع ، والأرضين وما فيهن وما
بينهن ، وما يرى من إنسان وحيوان ونبات في البر ، وحياتان ومخلوقات في البحار والأنهار ، وما
لا يرى من الملائكة

(1) سورة المؤمنون ، الآية (84 . 89) . (2) سورة الرعد ، الآية 2 .

وأصناف الملائكة ، والشياطين وأصناف الشياطين ، والجن وأصناف الجن .

كل ذلك فضلاً عما في كرسي العرش ، ثم ما في العرش العظيم ، مما لا يستطيع تخيل صورة عنه فكر مخلوق . وكيف يستطيع والإنسان مع ما سخر له تبارك وتعالى من الكون ، وسخر له ما في السموات والأرض جميعاً منه سبحانه ، ومع ذلك ما استطاع ولن يستطيع إدراك أبعاد هذه السماء الدنيا وحدها . وأعلم علمائه يقرون بأنهم ما أدركوا بعد حدّاً لها ، ولا حتى لأكثر مجراتها السابحة تحت هذا السقف الجميل .

{ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ }⁽¹⁾ .

قتل الإنسان وهو يجحد عظمة ربه ، ويقف عند غيره مادحاً ، منشغلاً بسواه ، متعبداً لعبيده ، منتظراً منهم لا من ربهم النجاح أو الفلاح أو الفتح المبين .
قتل الإنسان وهو ينسى عظمة ربه السميع الحبيب ، ثم يذكر دائماً عبداً من عباد الله لا هم السميعون ولا هم الحبيون .

وقد يدمي وهو يستجير بهم رأسه ووجهه دون قتال .

آلهة من دون الله ، أم شركاء لله ؟ ...

وبإخراج فني وإيقاع جماعي ، قد يلدن صدره وظهره ، ويقول : بدعة مستحبة .

فمن أجهل وأغبي من إنسان يرهن نفسه بمخلوق ، أو بمخلوقات من ملائكة أو جن أو إنس ، وهم لا يشعرون به . ولو شعروا وكانوا من أهل الإيمان العالي لمقتوه في الدنيا ، وكفروا بشركه في الآخرة .

قتل الإنسان وهو يملأ قلبه حتى الجمام بحب غير الله ، وهذا القلب لا يكون كريماً ولا معافى ، ولا مصفى ، ولا يصطفى إلا إذا ملئ حتى الجمام بحب الحبيب الأعظم رب العالمين الرحمان الرحيم . فإذا فاض

شيء من هذا الحبّ على جوانب هذا القلب ، فلا بأس أن يكون لمن أذن الله بمودتهم من أنبياء وأوصياء ، وأهل وأئمة . لأن ما يفيض على جوانب القلب من حب الله ، يكون أيضاً حباً مقدساً . وفي هذه الحال فقط ، يجوز أن يختص به أولياء الله وأحباؤه ، والأخلاء المتقين ، إذ يقول سبحانه :

{ الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } (1) .

قتل الإنسان الكفور الجحود ، يغرقه الله بنعمه ويكفر ولا يشكر ، ويتحجب سبحانه إليه بالثناء على بعض ما عمل من الصالحات ، ويكون هو سبحانه مكّنه من ذلك ، فيدير له ظهره معتداً بقدرته البشرية ، وهي لا تقوم إلا بالله الذي تقوم به السماوات والأرض ، وما ومن فيهن ، وما ومن بينهن .

من هنا حاجة الإنسان التي لا تعلق عليها حاجة ، إلى النجاح في الابتلاء ، النجاح المؤدي إلى التوحيد الصافي ، الأصفى من الفجر في الجنة ، والأعذب من الماء البارد النмир على غلة العطشان ، والأقرّ للعين وللقلب من كل ما في الوجود .

وهذا الإبتلاء درجات ، كما أن فهم التوحيد درجات عند الموحدين ، ومن هنا يفهم الإبتاع وتفهم الولاية .

ولا ينسى أحد أننا نكتب لأهل القرن العشرين ، مسلمين وغير مسلمين ، غير متعرضين . بدون طائل معاصر . لقضية السقفية وما بعدها ... ولا لولاية الإمام المنتظر عليه السلام ، ولا حتى لولاية الفقيه . لأننا إنما ندعو ليس المسلمين وحدهم ، وإنما جميع أهل الأرض ، إلى التوحيد باسم الله وبتعاليم الله ، على أن أساس هذا التوحد والتعاليم ، هو توحيد الله جلّت عظمته ، وولاء جميع الناس له على شتى درجاتهم الدينية والاجتماعية ، قوله تعالى :

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { (1)}

فالاتِّباع في توجيهات الله تبارك وتعالى أمر متدرج من أتباع المؤمنين إلى أتباع الأنبياء والرسل والمُنيبين إلى الله عامة ، لأن ذلك كله طرداً وعكساً يؤدي إلى إتباع الله ، يعني الكتب المنزلة الصافية ، يعني إتباع القرآن وما صحَّح عن الرسل وأوصياء الرسل ، يعني أتباع الحق ، وبكلمة أخيرة حاسمة ، يعني إتباع الله تبارك وتعالى وعزَّ شأنه وجلَّت قدرته .

كذلك مفهوم الولاية ، وهو مفهوم خطر وشديد الحساسية ، فالذين فهموا الولاية وقوفاً عند نبي أو إمام أو وليٍّ من أولياء الله دون العبور بأسرع من الضوء إلى التوحيد بالأسماء الحسنى ، فقد وقعوا في الشرك . حتى ولو ادَّعوا بعدها أنهم إنما كانوا يرجون بذلك الزلفى أو الشفاعة . إذ أن ذلك يقودهم إلى التبعّد للوليِّ قاصدين أو غير قاصدين ، عن وعي أو غير وعي . فينصرفون إلى التبعّد بأقوال الشفيع حتى ولو كانت مزعومة ، أكثر ممَّا يتبعّدون بآيات الله تبارك وتعالى ، وفي ذلك قوله عزَّ وجلَّ :

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . قُلْ أَتُبِتُّونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (1) .

(1) سورة الشورى ، الآيات (9 . 8) .

(2) سورة يونس ، الآية 18 .

(14)

الإسرائيليون

إفسادهم الثاني وعلوهم الكبير

{ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ
وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }

(160 . 161 : النساء)

إن إفساد بني إسرائيل في الأرض ، أمر معروف عند القرآنيين المستنيرين بالله ، وهو أمر مراقب عند الراسخين القرآنيين . ومن وجوه علم الله سبحانه فيما يختص بخلقه :

{ .. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.. }

{ (1) .

فهو سبحانه ، جلّت قدرته وعزّ شأنه ، قد أخبر في كتابه الخبر اليقين ، الخبر العجيب ، الذي نراه في عصرنا هذا ، ويوماً بعد يوم ، هو ينطبق آية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ، قوله تعالى :

{ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } (2) .

فليس عبثاً هذا الإفساد الفظيع الرهيب ، الذي أفسده بنو إسرائيل في

(1) سورة البقرة ، الآية 254 .

(2) سورة الإسراء ، الآيات (6 . 5 . 4) .

عصرنا هذا في شعوب الأرض . فما من موبقة على صعيد الأخلاق ، وما من فتنة على صعيد الشعوب والدول . وما من فاحشة على صعيد الربا ، (مؤسسات وأفراد) ، والتعبّد للمال ، للذهب والفضة ، ولما يسمّى (الاقتصاد) ، وما من سكين مزق في جسم الإسلام وجسم المسيحية ، أو سم ديف في كتبهم وتاريخهم ومعتقداتهم وأحاديثهم وأفكارهم إلاّ وكان الشريك الأكبر في ذلك كله أقلامٌ أو مؤسساتٌ أو جمعياتٌ أو عصاباتٌ يهودية .

ولا بدع منهم في ذلك . فهم شهدوا على أنفسهم بما ذكرت وبأكثر ممّا ذكرت ، وتاريخهم يشهد ، وكتبهم التي أصبحت بين أيدي الناس تشهد ، وكذبهم وافتراءاتهم وادعاؤهم أن الله سبحانه وعدهم ... ووعدهم ... كل ذلك يشهد أنهم المفسدون في الأرض ، ولذلك باؤوا بغضبٍ من الله تبارك وتعالى ، قوله عزّ شأنه فيهم :

{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيَنْ مَا تُفْقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مَنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يُكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (1) .

ولو أني أردت أن أعطي أمثلة ، أو أقدم أدلة موثقة على ذلك ، لاقتضى الأمر مني مجلدات . على أن البدع الغريبة العجيبة في عقيدتهم لم تعد خافية على أحد من العقلاء والمفكرين . كذلك وضع الوضعين والكتب التي كتبها بأيديهم والتي غدت معتمدة أكثر من التوراة . حتى التحريف الفظيع لأخبار التوراة زيادةً على النص وتشويهاً في التفسير ، لدرجة أنّ هذا الكتاب الذي كان مقدساً ككتاب سماوي ، لم يعد كذلك ، إذ أنه أختلط فيه ما أنزل الله سبحانه على موسى عليه السلام بما كتبه الأحرار ، وبما افترضه عزرا كبير أحبارهم في العراق . أثناء السبي . تعويضاً

(1) سورة آل عمران ، الآية 112 .

عن النقص الكبير الذي لحق بالتوراة ، بعد مصادرة كتبها وحرقها من قبل الفاتح البابلي نبوخذ

نصر . فحيث أن عزرا لم يجد نسخة كاملة للتوراة ، شرع يأخذها من أفواه الحفاظ، ومن وريقات مشتتة ، ثم رَقَّع النقص الباقي بما أدخله إليه شياطينه . وفي ذلك ما يغني عن تقويم هذا الكتاب الذي كان مقدساً ، بعد هذه العمليات التي ليست مقدسة .

على أن ما جعلهم مستقبحين مكروهين من جميع الناس ، كون أكثرهم يستحلون مال غير اليهودي ، وحتى دمه ، هذا أولاً ، وثانياً نظرهم لأنفسهم من جهة وللعالم من جهة ثانية ، وهي نظرة إبليسية ، على أنهم من معدن فوق البشر ، والبشر من تراب ، وإلى قسوة في القلوب ، يشهد عليها إضافةً إلى حاضرم الوحشي ، تاريخهم الربوي حيث أجاز بعض اليهود فيه الاقتطاع من لحم من لا يستطيع أن يسدّد إليهم الفائدة مالاً نقدياً . وقد كتب في هذا كثرة من كتاب أوروبا قديماً وحديثاً . هذا وغيره من سلبياتهم الأخلاقية الكثيرة، جعل شعوب أوروبا المسيحية ، في كثير من الأحيان ، يثورون ويهاجمونهم في أحيائهم الخاصة ، بردّات فعل غاضبة ، يمارس فيها ضدّهم القتل وإحراق المنازل . وهذه الأمور من المشهورات قبل ثلاثينات هذا القرن العشرين ، على مستوى الدول الأوروبية كلّها تقريباً ، من بروسيا إلى بولندا إلى ألمانيا وإيطاليا وإنكلترا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا .

أما الأعاجيب التي لم يسبقهم إليها شعب بدائي ولا أمة همجية فهي التي مارسوها ضد العرب المسلمين والمسيحيين في فلسطين ، فإن تاريخ البشرية لم يشهد فظاعات ممهورة بالحقد الملون بألوان الحرباء ، الحقد الذي لم يشفه حتى الآن ذبح الأطفال وبقر بطون الحوامل في فلسطين ، طبعاً إضافةً إلى قتل الشباب والشيوخ في مذابح جماعية ، تنفيذها عصابات إرهابية منظمة تنظيمياً دقيقاً ومباركةً بلغة الحاخامات الشيطانية وموجهة بأفطع حركتين مفسدتين في تاريخ البشرية : الماسونية التي تنزياً بكلّ أزياء العالم ومغرياته التي خدعت كثيراً من رجال العالم حتى الأذكيا منهم ، وهي الحركة الأم ، ثم وليدتها الحركة الصهيونية .

وهاتان المؤسستان . مع ما يرتبط بهما من حركات مشبوهة ، كثيراً ما تتخذ صفات عالمية وشعارات إنسانية . ما زالتا تفتكان بالبشرية وأمنها وسلامها وأخلاقها وقيمها فتكاً ذريعاً .

وهاتان الحركتان ، هما اللتان أقامتا دولة بني إسرائيل ، على أشلاء وجراح المسلمين والمسيحيين ، لا لشيء ، إلا لأتَمَّ مسلمون ومسيحيون .

ثم أخذت هذه الدولة تطول أذرعها كما الأخطبوط ، حتى ليتمكن القول ، إنه ما من كارثة سياسية أو اقتصادية أو حتى اجتماعية أو أخلاقية ، تحلّ في بلد ما ، أو دولة ما ، إلا ويكون لذراع من أذرع الأخطبوط الإسرائيلي شأن خبيث فيها لدرجة أن هذه الأذرع اشتهرت بالاغتيالات والغدر ، وكانت وراء معظم الحروب الأهلية في أكثر دول العالم ، كما كانت وراء تأسيس حركات الإتحاد العالمية وعلى رأسها الفكر الإلحادي الشيوعي ، الذي أقام له دولة عظيمة أصبح اسمها الإتحاد السوفياتي ، كادت تبتلع بعقيدتها الشاذة الهدامة أكثر من ثلثي العالم ، لولا أنّ لله سبحانه شأن في تحجيمها وإرهاقها من الداخل حتى تكون سهلة المنال أمام هجمة أمريكية . أطلسية . تمزقها على جميع الأصعدة السياسية والعسكرية والإقتصادية بعدما تكون قد هيأت لها . في الظاهر . نفس دولة بني إسرائيل وحركة الصهيونية العالمية ، ليس حباً بأمريكا ودول الحلف الأطلسي وإنما محاولة جاهدة ، لنجّ الدولتين العظيمين في آتون حرب تعتقد إسرائيل أنّها ستكون القاضية على كليهما وكذلك على أكثر الدول وأقواها والتي لا بدّ أن تكون بشكل أو بآخر وقوداً لهذه الحرب ، فتبقى إسرائيل هي الدولة الأقوى في العالم ، فتخضع الأرض ، وأهل الأرض لمشيئتها وأحلامها ، ولكن مشيئة الله هي التي تتحقق وليس مشيئة إسرائيل ولا غير إسرائيل . فإن توقيت الحرب زماناً ومكاناً وضيقاً واتساعاً إمّا بأمره سبحانه وإمّا بإذنه ، فإنه يستحيل الخروج من سلطان الله . ولقد سبق قوله تعالى في بني إسرائيل ومحاولاتهم دائماً إشعال الحروب :

{ .. كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ.. } (1)

فيتليهم ويجزيهم أو يأذن لهم أو لغيرهم ساعة يريد وكيف يريد ، مع حسابات متناهية في الدقة ، تتصل بجميع الفرقاء ، لا يقدر عليها غير ربّ العالمين .
فهذا إذن ، هو التصوّر اليهودي الذي لا يدركه في العالم إلا من امتحن الله قلوبهم

للإيمان واختصهم برحمته الواسعة . ولأن أهل الغرب عامة أغلقوا قلوبهم دون رحمة الله ، وبرأوا اليهود من كفرهم بالمسيح عليه السلام ومن عدوانهم على المسيح والمسيحية في التاريخ قديماً وحديثاً ، ولأنهم ارتضوا بذاعة اليهود في حق مريم عليها السلام ، ولأنهم سكتوا أذلةً أمام تشنيع اليهود عليهم وعلى اعتقادهم بقداسة المسيح وأمه ، وأكثر من ذلك ، لأنهم أداروا ظهورهم كلياً لله ولدينه وتعاليمه ، واتبعوا الهوى وفرحوا بما عندهم من العلم ، لذلك كله ختم الله على سمعهم وقلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فتركهم ينخدعون بمزاعم اليهود من حيث صداقتهم للغرب عامة وللأمريكيين خاصة . والأكثر انخداعاً بذلك ، هم الكهنة الإنجيليون في الولايات المتحدة الأمريكية ، والذين يروجون تبعاً لإيحاءات اليهود الكتابية والشفوية أن الحرب ستنتصر فيها أميركا وحلفاؤها ، وأنها حرب تعبديّة يتقربون بها إلى الله عزّ شأنه . وأن حرباً أخرى آتية اسمها هرمجيدون (سهل مجدو في فلسطين) سيفنى فيها ملايين العرب ... هذا إلى آخر الادعاءات والمزاعم الإسرائيلية المتداخلة بغباء الشعوب المادية التي كانت مسيحية ، والأمريكان وفي مقدمتهم الكهنة الإنجيليون ومن ورائهم ملايين شعبهم ولا سيما الحزب الجمهوري وعلى رأسه عدة رؤساء للجمهورية وعلى رأسهم جميعاً المخدوع الرئيس بوش ، كل أولئك كانوا مقتنعين بوجوب شنّ حرب على الإتحاد السوفياتي ،

(1) سورة المائدة ، الآية 64 .

وكانوا يعملون على ذلك ويمهدون لساعة الصفر ، وواقع الحال أن ساعة الصفر ستقع ، ولكن ليس في الزمان والمكان اللذين يريد هما الإسرائيليون والأمريكان .
والذي نعلمه بفضل من الله ولا يعلمه الأمريكيان والحلفاء الذين انتصروا على الإتحاد السوفياتي وحلفائه ، هو أنهم سيشتبكون مع الصين في حرب ضارية ، ويستمران يتغالبان... فكيف ستكون النهاية ، فهل حقاً سيقطف اليهود الثمرة العالمية بحكم الأرض ؟ هكذا

يعتقدون سرّاً ، ومن أجل هذا يعملون ليل نهار ، ولكن :

{ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } (1) .

{ .. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } (2) .

نحن . بفضل من ربنا . نعلم ما لا يعلمون :

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } (3) .

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } (4) .

وفي جملة ما يختلفون فيه أن أكثرهم يعتقدون أن واقع فسادهم وإفسادهم إنما هو

صلاح وإصلاح ، بينما بعضهم وهم الذين رفضوا الانضمام إلى هذه الدولة الإرهابية

إسرائيل ، ورفضوا المجيء إلى فلسطين ، يعتقدون . وهو الحق . إن هذه الدولة في غضب الله

، وإنها خلاصة الإرهاب العالمي المنظم ، وإنها بالنتيجة تسير نحو الهاوية ، لتسقط فيها من

(1) سورة الفجر ، الآية 14 .

(2) سورة الأنفال ، الآية 30 .

(3) سورة الإسراء ، الآية 9 .

(4) سورة النمل ، الآية 76 .

شاهق بعد بلوغها العلو الكبير الموعود ، يتضح ذلك كله في القرآن المجيد ، حيث يقول سبحانه

عن القلة القليلة الصالحة فيهم :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (1) .

فيجعلهم في جملة المسلمين والنصارى الناجين إلى نعيمه ورحمته والمحفوظين من غضبه

وانتقامه في الدنيا والآخرة . وحيث يخاطب الباقيين من بني إسرائيل بقوله :

{ .. لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا } (2) .

{ .. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } (3) .

فلقد تحقق إفسادهم في المرة الأولى ، وصبّ عليهم ريك سوط عذاب في تلك المرحلة بسبب خيانتهم وإفسادهم وغدرهم عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله، عهد النبوة الميمونة ، إذ رغم الأدلة القاطعة عندهم في التوراة ، عن هذا النبي المرسل ، واسمه وصفاته ، وتصديق ما بين يديه ، ممّا أنزل الله سبحانه على نبيهم وعلى رسول الله عيسى عليهما السلام ، فقد أنكروه وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا ، وكادوا يفعلون به كما فعلوا بالمسيح عليه السلام ، من محاولة صلبه ، وقتل أصحابه ذبحاً وصلباً وتشريداً . وهم إلى الآن يعتقدون أنهم إنما صلبوا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، كما يعتقد ذلك وللأسف ، المسيحيون عامة. إلا أن الله سبحانه ، رفع المسيح إلى السماء ثم ليرسله مرة أخرى بين يدي الساعة ، وهذا عصر إرساله إن شاء الله . وسلط عليهم محمدًا صلى الله عليه وآله وأصحابه، فجاسوا خلال ديارهم، وأخرجوهم من شبه الجزيرة كلها حيث حرّمها الله سبحانه عليهم إلى الأبد، وهو قوله تعالى:

(1) سورة البقرة ، الآية 62 . (2) سورة الإسراء ، الآية 4 .

(3) سورة النساء ، الآية 122 .

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.. } (1)

كما تعني هذه الآية ، إخراجهم كذلك من فلسطين وإلى الأبد ، يوم يتحقق وعده سبحانه في الآيات التي ذكرنا من سورة الإسراء : وقد تحقق والله الحمد ، إفسادهم الأول ، وَبَعَثُ مَؤْمِنِينَ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ عَلَيْهِمْ وَإِخْرَاجَهُمْ مِنَ الْجَزِيرَةِ ، ثم إفسادهم الثاني وعلوهم الكبير . ولم يبق إلا أن يدخل عليهم المؤمنون دخولهم المظفر الموعود :

{ .. وَلَيُتَبَّرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا } (2) .

أما كلمة (أخرج) وكونها هنا بصيغة الماضي ، فكيف هي تعني الماضي والمستقبل ؟
ففي القرآن الكثير من هذه الصيغ ، تفهم بالقرائن . على أساس أن ما يعد الله بتحقيقه في
المستقبل ، فهو متحقق لا محالة . والقرينة هنا وعده سبحانه في سورة الإسراء .

فبعد أن توفى الله رسوله محمداً صلى الله عليه وآله ، يسّر للمسلمين فتح بلاد الشام ،
ومنها فلسطين . ونصر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله والتابعين لهم بإحسان ، نصراً مبيناً ،
فجاسوا خلال الديار الشامية والفلسطينية ، ودخلوا المسجد الذي هو هيكل سليمان والقدس
عامّة ، وذلك قبل بناء مسجد الصخرة ، الذي أمر ببنائه الخليفة عمر بن الخطاب ، بعد أن
دخل مدينة القدس ، ذلك الدخول التاريخي المظفر ، وهو قوله سبحانه :

{ .. لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا }⁽³⁾ .

جامعاً بهذه الآية الكريمة بين الواقعتين ، واقعة إخراج اليهود: بني

(1) سورة الحشر ، الآية 2 . (2) سورة الإسراء ، الآية 7 .

(3) سورة الإسراء ، الآيات (5.4) .

القينقاع وبني النضير وبني قريظة ، ويهود خيبر ، وبقية يهود شبه الجزيرة ، من ديارهم لأول
الحشر ، وواقعة دخول المسلمين إلى فلسطين ، وجوسهم خلال ديارها ، وخاصة القدس
الشريف ودخولهم المسجد الذي كان فيها .

فالمقصود بقوله سبحانه : { ..عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .. } هم محمد صلى الله عليه
وآله وأصحابه المجاهدون الأبطال ، الذين قاتلوا اليهود وأخرجوهم من المدينة وغيرها عهد
رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم المسلمون الذين فتحوا بلاد الشام عامّة . فتلك مرحلة
واحدة ممتدة من حياته الشريفة صلى الله عليه وآله إلى ما بعد وفاته ، معززة بدخول القدس

الشريف ، وما تعلق بذلك من الفتح المبين .

(15)

الحرب الثالثة ... والفتح المبين

حقائق قرآنية تقرر مصير الاسرائيليين ومصير العرب

المبلغون العاملون بدين الله ، اثنان : قرآني وروائي ، ونحن لكي لا نكون في حرج شديد أمام الله يوم القيامة ، اخترنا القرآن الكريم ، لأن فيه رسالات الله ، ولقول الله تبارك وتعالى :
{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } (1) .

ثم يكون كلاهما ، والناس ممن يقرأ أو يسمع معهما في مواجهة هذه الآية المفزعة : قوله تبارك وتعالى :

{ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } (2) .

من هنا وجدنا أنفسنا ملزمين بإبلاغ ما آتانا الله ويؤتينا من فضله ، من تفسير آية كانت مغلقة لحكمة إلهية ، أو آيات لم تفسر في الماضي ، لأن تفسيرها مرهون بمواقيت ، أو ظروف أو أحداث مستقبلية ، مثل آيات أشراط الساعة وغيرها ، أو الإلمام ببواطن آيات أو تأويل آيات أُخْرُ ، وكل ذلك بتوفيق وتسديد منه تبارك وتعالى .

(1) سورة الأحزاب ، الآية 39 .

(2) سورة الزمر ، الآية 60 .

والحقيقة أن الأمر صعب من جهة ، وميسر من جهة ثانية ، فصعوبته من حيث أن الناس بصورة عامة ، كأنهم في قوالب ، غالباً ما تكون جامدة ، وعلى شتى مراتبهم ، تعلقاً بتراث متراكم موروث عبر مئات السنين ، عن الآباء والأجداد ، وفيه الكثير ممّا لم ينزل الله به من سلطان ، ولذلك نبّه سبحانه الأولين والآخرين من العباد بقوله في بضع آيات في القرآن الكريم :

{ .. قالوا حسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. } (1) .

{ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا.. } (2).

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. } (3).

{ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } (4).

وكذلك يذكرهم تبارك وتعالى بوجوب لزوم القرآن تحت طائلة أنواع رهيبة من العذاب في حال الإعراض عن القرآن ، والتوقف عند غيره ، قوله تعالى :

{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ .
وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .
مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ } (5) .
ولفهم ما نرمي إليه ، نضرب مثلاً من ألوف الأمثلة ، على إدخال

-
- (1) سورة المائدة ، الآية 104 . (2) سورة الأعراف ، الآية 28 .
(3) سورة يونس ، الآية 78 . (4) سورة الشعراء ، الآية 74 .
(5) سورة الجاثية ، الآيات (11.6) .

الروايات التي ما أنزل الله بها من سلطان في تفسير بعض الآيات الكريمة ، هذا المثل ، يتعلق بقصة ياجوج وماجوج الواردة مرتين في القرآن الكريم (1) . وسلاحظ كيف تختلف الروايات ، أحياناً وفي الواقعة الواحدة أو الموضوع الواحد ، اختلافاً منكرًا . فقد جاء في الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (رضي) ، بين المتن والحاشية ، ما يلي (2) :

" ... ومن ذلك اختلافها (3) في وصف ياجوج وماجوج فروى (عن الدر المنثور عن ابن المنذر عن علي عليه السلام وعن ابن أبي حاتم عن قتادة ، وفي نور الثقلين عن علل الشرائع عن العسكري) أنهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح كانوا يفسدون في الأرض فضرب السدّ دونهم . وروى في (نور الثقلين عن روضة الكافي عن ابن عباس) أنهم من غير ولد آدم

. وفي (الطبري عن عبد الله بن عمير وعن عبد الله بن سلام وفي الدر المنثور عن النسائي وابن مردويه عن أوس عن النبي صلى الله عليه وآله وفيه عن ابن حاتم عن السدي عن علي عليه السلام ، عدة من الروايات أنهم قوم ولود لا يموت الواحد منهم من ذكر أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد وأنهم أكثر عدداً من سائر البشر ، حتى عدوا في (الدر المنثور عن عبد الرزاق وغيره عن عبد الله بن عمر) في بعض الروايات تسعة أضعاف البشر ، وروى في (الدر المنثور عن ابن إسحاق وغيره عن وهب) أنهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرون ببهيمة أو سبع أو إنسان إلا افترسوه وأكلوه ولا على زرع أو شجر إلا رعوه ولا على ماء نهر إلا شربوه ونشفوه ، وروى في [الدر المنثور عن ابن أبي المنذر وأبي الشيخ عن حسان بن عطية وعن أبي حاتم وغيره عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وقد بلغ من مبالغة الروايات في عددهم أنه روى عن النبي صلى الله عليه وآله أن يأجوج وماجوج يعدل ألف ضعف للمسلمين

(1) سورة الكهف ، الآية 94 . وسورة الأنبياء ، الآية 96 .

(2) ج 13 . ص 372 . 373 . الطبعة الثانية . مؤسسة الأعلمي .

(3) يعني الروايات .

(البداية والنهاية عن الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله) وهو ذا يقال : إن المسلمين خمس أهل الأرض ولازمه أن يكون يأجوج وماجوج مائتا ضعف أهل الأرض] إنهم أمتان كل منهما أربعمئة ألف أمة كل أمة لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه . وروى في (الدر المنثور عن ابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب الأحمار) أنهم طوائف ثلاث فطائفة كالأرز وهو شجر طوال ، وطائفة يستوي طولهم وعرضهم : أربعة أذرع في أربعة أذرع ، وطائفة هم أشدهم للواحد منهم أذنان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يشتم في إحداهما لا بساله وهي وبرة ظهرها وبطنها ويصيف في الأخرى وهي زغبة ظهرها وبطنها، وهم صلب على أجسادهم من الشعر ما يواربها ، وروى أن الواحد في (الدر المنثور عن ابن المنذر والحاكم وغيرهما عن ابن عباس) منهم شبر أو شبران أو ثلاثة ، وروى في (الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله أن الذين كانوا يقاتلونهم كأن وجوههم وجوه كلاب) .

ثم توفيراً على أعصاب القارىء ووقتنا ووقته ، نكتفي بمثل آخر فقط ، على الروايات المتعلقة بتركيب الكون ، ونختار تلك الرواية المشهورة التي نقلتها مصادر الفريقين المسلمين، والتي أكثر ما يهمننا فيها ، أنها تنسب زوراً وكذباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى أئمة آل البيت الأبرار الأطهار ، بينما هي في الواقع من جملة الإسرائيليات التي كانوا يعتقدونها في علم الهيئة والكون . عنيت بها التي تقول إن الأرض على قرن ثور ، والثور على حوت ... إلى آخر الرواية ، ومن عجيب ما فيها أن الأرض عندما يضربها زلزال ، فإنما يكون ذلك بسبب أن الثور تعب قرنه ، فنقلها إلى القرن الآخر .

أما أنه لا بدّ من خارج القرآن من مصادر للتشريع ، يدخل فيها الإجماع والعقل والحديث والسنة ، وبعض القياس ، فهذا ممّا لا شكّ فيه ولا يماري فيه إلا جاهل معاند ، ونحن إذ نعمل على ذلك ، نسأل الله أن يري المسلمين حقيقة القرآن القلعة الشامخة والحصن الحصين

الذي يتضمن كل هذه المصادر ، إما تفصيلاً وإما تنويهاً وإما تأويلاً .
وهنا نكتفي بالكلام عن صعوبة التبليغ ، مضيفين ما لا بدّ من التنويه به ، وهو أن المبلِّغ ، برغم أن شعاره العملي ، هو قوله سبحانه :
{ .. قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } (1)
وقوله تعالى :

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ } (2)
{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (3) .

برغم ذلك ، فإنه يتعرض إلى أذى كثير ، أقلّه التعجّل بالحكم عليه إنطلاقاً من القوالب ومن الموروثات الدخيلة على الدين وعلى العقيدة وعلى كتاب الله المجيد . حتى أن العوام غالباً ما يديرون دفة التدخّل ، ويعتبرون الرواية أية رواية ، وحتى الملفقة ، بمنزلة الآية

وربما أكثر قدسية .

ومن هنا كانت جسيمة مسؤولية العلماء ، العلماء الحقيقيين ، لكن أجرهم في حال نجاحهم وصدقهم عند الله عظيم ، وأول درجة في مدارج النجاح أن يكونوا مقبولين عند رب العالمين ، ولكي يكونوا كذلك ، ينبغي أن يكونوا صديقين ، يعني أن لا يرتابوا بكتاب الله وأن يوقنوا به ويبلغوه ، تلك وظيفتهم ما داموا تصدّوا للعمل باسم الله ودين الله كل ذلك على أساس التوحيد وعدم السقوط في ألوان الشرك الظاهر أو الخفي التي يسقط فيها العوام ، والتي تأخذ صاحبها بعيداً عن صراط الله المستقيم ، وتوقعه في خبط عشواء ، فيصبح شأنه شأن الغوغاء ، والهمج الرعاع ، الذين ينعقون مع كل ناعق ، ويميلون مع كل ريح . ففي الذين آتاهم الله نعمة القرآن وهياً لهم فهمه وتدبره والعمل به ، ثم هم اعتمدوا غيره من دونه ، أو ارتابوا به أو ببعضه ، وجه من وجوه قوله سبحانه :

(1) سورة الأنعام ، الآية 90 . (2) سورة القلم ، الآيات (46 . 47) .

(3) سورة الطور ، الآيات (42 . 43) .

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } (1) .

وقوله تعالى في الغوغاء :

{ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلًا } (2) .

وبرغم الأذى ، والتحكّم على طريقة محاكم التفتيش في تاريخ الكنيسة الأسود ، تلك المحاكم التي كانت تدين العلماء الأفاضل وغالباً ما تحكم عليهم بالإعدام ، ودائماً بالهرطقة ، لا لشيء إلا لأنهم اكتشفوا حقائق أبقدها لهم الله سبحانه فأبدوها للناس . فغضب لذلك رجال الدين المسيحيون لأنها لا توافق أوهام الكنيسة وموروثات رجال الدين من التخيلات التي

كان أودعها لهم في الكتب الصفراء كهنة سابقون ، فاحتلت في أذهانهم موقعاً متحجراً و ... مقدساً . برغم ذلك ينبغي على العالم الصبر الجميل والتسامح ، وعدم الحقد والضغينة والحسد ، وعدم الوقوع في النزاحم على الجاه أو المال أو أي شأن من شؤون الدنيا والآخرة ، وأن يطلب كل ما يبغيه ويرتجيه من الله وحده وحده ، فإذا هو أحسن الثقة بالله وأحسن التوكل على الله كفاه ما يهمله في دنياه وآخرته ، قوله تعالى :

{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ

(1) سورة الأعراف ، الآيات (175 . 176) . (2) سورة الفرقان ، الآية 44 .

أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ } (1) .

إلا أن مشكلتنا مع الناس أقل استعصاء ، لأن بين أيدينا كتاب الله كما أنزل وكما قال فيه عزّ شأنه :

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (2) .

ونحن على استعداد دائماً أن نقارع بمضامين آياته أهل الدنيا قاطبة ، ونجاهد أعداء الله ، ما مدنا الله بالقوة واذن لنا بالتبليغ قولاً وكتابةً ، ونتترس به ونحتجب عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وذلك تلبية لأمره تبارك وتعالى وعزّ وجلّ :

{ .. وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } (3) .

وقوله تبارك وتعالى :

{ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا

. وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ
وَخُدَّهُ وَّلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا { (4) .

{ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ
عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (5) .

وهكذا فإن الله عز وجل ينصر أنصاره ، ويمددهم من لدنه بقوة ، وينير قلوبهم ودروبهم
ويؤيدهم بانسراح الصدر وإنزال السكينة ، والتدبير العجيب ، والتيسير المدهش من قبله جل
جلاله وبهر جماله وعليه التوكل

(1) سورة الزمر ، الآيات (36 . 40) . (2) سورة الحجر ، الآية 9 .

(3) سورة الفرقان ، الآية 52 . (4) سورة الإسراء ، الآيات (4645)

(5) سورة الجاثية ، الآية 23 .

وإليه الإنابة وبه التوفيق ، وفي سبيل رضاه وحبّه تهون المشقات وتسهل المستصعبات ، وكيف
لا ، وهو وليّ الأمر وصاحب الأمر من قبل ومن بعد وفي كل حال :

{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدْرًا } (1) .

والآن ، وبعد أن كانت هذه الصفحات ، مقدمة ضرورية لموضوع "الحرب الثالثة أو
القيامة الأولى" وذلك لحساسية الموضوع ، وخطره . كتبليغ . على من يبلغه ، استعداداً لمواجهة
المتغيرات الآتية ، في الأفراد وفي الشعوب ، وفي البلدان والدول ، وفي الكون ، ننتقل ، إلى
مجريات . بالعناوين والخطوط العريضة . ما سيحصل ، بإذن الله ، أو بتدبير الله ، ودائماً في
سلطان الله وفي ملكه في السماء والأرض ، وصولاً إلى تحقيقه لقوله سبحانه :

{ .. لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } (2) .

ونصل إلى تحقق الآيات المنوطة بهذا الزمان ، العقد الخامس عشر الهجري والعشرين
الميلادي ، الذي تجري فيه الأحداث الكبرى ، بخطوطها الرئيسية ، مواكبة لأشراط الساعة ،

التي هي بدورها ناشطة في الملائكة والجن والإنس والأرض والسماء :
{ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكَيلٌ } (3) .

ونبدأ بسم الله بالخبر الذي في سورة الإسراء : قوله تعالى :

(1) سورة الطلاق ، الآية 3 .

(2) سورة غافر ، الآية 16 .

(3) سورة الأنعام ، الآية 102 .

{ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ
الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا } (1) .

وقد شرحنا هاتين الآيتين الكريمتين . عدا قوله تعالى : ولتعن علواً كبيراً . في سياق بحثنا
تحت عنوان : القيامة الأولى أو الصغرى وبقي أن نربط بهما بقية الخبر الإلهي المقدس ، فيما
يليهما من الآيات ، قوله تعالى :

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا } (2) .

وقد تحققت هذه الآية كذلك . فمعروف تماماً ، أن اليهود قبل الثلاثينات من هذا القرن
، لم تكن لهم دولة ، حتى ولا كيان يذكر ، ثم أخذ نجمهم يتألق ، وهم لو اتبعوا العدل في
سلوكهم وأحسنوا التصرف كما يقتضيه الدين الإلهي ، لبقوا نجمهم كذلك يتألق ، لوعده تعالى
لهم بالعلو الكبير ، ولكن علمه كذلك بإفسادهم المرة الثانية كان أمراً مقضياً ، فاتبعوا أسوأ

السبل وأفطع الجرائم . وهكذا كانت الكرة التي ردها الله لهم على المسلمين ، بعد أن كان سلط المسلمين عليهم ، فأخرجوهم من المدينة المنورة وجميع الجزيرة العربية .

وحبل منه تعالى ، أمدهم بأموال طائلة وأعداد متزايدة من الأبناء (وأمددناكم بأموال وبنين . الآية) وحبل من الناس جعلهم أكثر نفيراً (الآية) والنفير كما هو معلوم لغة : كثرة الأنصار . وهذا الأمر تحقيق أيضاً لقول الله تبارك وتعالى فيهم :

{ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيَنْ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

(1) سورة الإسراء ، الآيات (4.5) . (2) سورة الإسراء ، الآية 6 .

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ } (1)

والحبل من الله والحبل من الناس ، كلاهما ، الحاكم فيهما الله سبحانه ، لأن الأول بأمره ، وهو تيسير الأموال وزيادة العدد (بأموال وبنين . الآية السابقة) والثاني بإذنه ، وهو كثرة النفير ، لأنه في سلطانه ، إذ يستحيل الخروج من سلطانه ، وهو تبارك وتعالى لو لم يأذن بالمعاوضة البريطانية المجرمة لهم في البداية ، ثم معها أميركا التي كانت وما زالت لهم الحاضنة وولية الأمر ، ثم بقية (النفير) الذي يعني جميع دول الغرب المتعادية والمتحالفة ، التي أجمعت على نصرتهم وإمدادهم بالمال والسلاح ، والمواقف المعادية للمسلمين ، وحتى مساعدتهم على الانتقال من جميع بلاد الدنيا براً وبحراً وجواً وفي كل سبيل .

وهكذا ، فبعد شتاتهم في الأرض ، أخذوا يتجمعون في فلسطين ، فطردوا معظم شعبها بالعدر والخديعة تارةً وبالمذابح الجماعية تارةً أخرى . أما معجزة قوله تبارك وتعالى :

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ .. } (2) .

فهي في كونهم أصبحوا ، على قلة من العدد في البداية ، لا تتجاوز المليون نسمة ، في

محيط من المسلمين ودولهم وأعدادهم البالغة آنذاك مائة مليون تقريباً ، وهم يحيطون بهذه الشراذم إحاطة السوار بالمعصم ، ومع ذلك بقي نجم بني إسرائيل يتألق ويتصاعد ، مصداقاً لوعده تعالى ، على زيادة في القوة والعدد والعدة ، في حين كان خصومهم المسلمون عامة في المقابل ، يتقهقرون في جميع مجالات الحياة ، بعد حضارة سادت العالم بالدين الحنيف ، ردحاً طويلاً من الزمن ، وما كانت هزائمهم المتلاحقة ، والمخازي التي أوقعهم الله فيها ، إلاّ لأنهم تخلّوا عن الإسلام العملي ،

(1) سورة آل عمران ، الآية 112 .

(2) سورة الإسراء ، الآية 6 .

وركبوا مراكب شتى ليست من صنع أيديهم ، وإنما هي دائماً من صنع أبالسة الإلحاد أو العلمنة ، وما بينهما من تيارات عصفت بأهل الأرض جميعاً ، وما زالت تعصف وتدمر ، وستبقى تعصف وتدمر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً :

{ .. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }⁽¹⁾ .

وفي جملة معاني (حبل من الله) في الآية الكريمة ، أنه سبحانه هيأ لهم في فلسطين دولة قوية ، من وجوه الحكمة فيها ، أنه تعالى سلّطها على العرب ، بين تأديب لهم وعقوبة ، حتى ينهضوا ويستيقظوا :

{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ .. }⁽²⁾ .

ونبقى مع آيات سورة الإسراء التي فيها قضاء الله تعالى ، فبعد أن رأينا الآيات الرابعة والخامسة والسادسة واستعرضنا الخطوط العريضة فيها ، بقي أماننا ، بخصوص قضاء الله تعالى فينا وفيهم ، السابعة والأخيرة من الآيات الكريمة المتعلقة بموضوع الفتح ونهاية دولة بني إسرائيل . ففي الآية السابعة هذه ، قال تعالى ، كذلك مخاطباً بني إسرائيل :

{ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا } (3) .
 وواضح تماماً بصدده قوله تعالى : { إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا }
 أنهم أسأؤوا وما أحسنوا ، فسابق علم الله عزّ وجلّ بإفسادهم في المرة الثانية وخصوصاً انطلاقاً
 من دولتهم التي أقاموها على أشلاء الفلسطينيين وأشلاء القيم والمناقب الأخلاقية المتعارفة في
 الشرائع حتى

(1) سورة النحل ، الآية 118 .

(2) سورة البقرة ، الآية 179 .

(3) سورة الإسراء ، الآية 7 .

الأرضية منها . اقول إن سابق علم الله تعالى بإفسادهم في هذا الزمان هو الحسم وهو
 القضاء المحتوم ، لأنه سبحانه صدرّ كلامه في الموضوع ، بقوله تعالى :

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ .. } (1) .

والذي ذكرناه عن إفسادهم تاريخياً ، إنما هو في ضوء الآيات الكريمة ، من الواقع الحيّ
 الذي لا ينكره إلاّ أعمى ومكابّر .

وإذ نكتفي بهذا القليل الذي ذكرناه من طغيانهم وإفسادهم للبشرية ، لمعشر بني آدم
 الذين كرّمهم الله سبحانه في الأصل ، ويستحيل أن يرضى بعبوديتهم لغيره من خلقه ، فكيف
 بعبوديتهم لقوم غَضِبَ اللهُ عليهم وجعل منهم القردة والخنازير ، وهم مع ذلك كله مصرّون على
 ادّعاء كونهم شعب الله المختار وأن بقية الشعوب من دونهم أميون من حقّهم أن يبيدوهم ويبقوا
 منهم بقية يستعبدونها ويستخدمونها ويتخذون منها رقيقاً لقضاء حاجاتهم ، هكذا في كتبهم ،
 وهكذا يتعلمون في مدارسهم ، وهكذا عقيدتهم الهجينة التي ابتدعوها وما أنزل الله بها من
 سلطان .

ثم نتابع قوله تبارك وتعالى في الآية التي نحن بصددها :

{ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيْتَبَرُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا { (2) .

السقوط الكبير بعد العلو الكبير :

وقبل أن نتحدث عن السقوط الكبير وهو حتم على بني إسرائيل ، في آخر دولة لهم هذه التي في فلسطين ، ينبغي أن نلفت إلى أمر هو غاية في الأهمية في هذه الآية ، وهو قوله سبحانه :

{ .. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ .. } (3) .

(1) سورة الإسراء ، الآية 4 .

(2) سورة الإسراء ، الآية 7 .

(3) سورة الإسراء ، الآية 7 .

فهو سبحانه لم يقل " وعد الثانية ولم يقل كذلك وعد الأخرى " ، ونحن كان يمكن أن لا نلتفت إلى هذا الفارق ، إلا أنه في الواقع له أهمية كبيرة ، تتضح أكثر إذا ربطناها بالآية التي تتعلق بنفس موضوع نهاية الدولة العبرية هذه . وسنعتبرها ، أي الآية رديفاً لآيات سورة الإسراء ، والآية هي قوله تبارك وتعالى في سورة الحشر :

{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ } (1) .

فما يعيننا الآن ، قبل ربط التفاصيل ، قوله تعالى : { لِأَوَّلِ الْحَشْرِ } والحشر هو أول الآخرة ، ولا بأس هنا أن ننوه أن المفسرين عامة لم يلتفتوا إلى هذه المعاني في آيات الإسراء ، ولا إلى كونها مترادف مع آية الحشر هذه ، ولا إلى أن آية الحشر هذه هي متعلقة أيضاً بملحمة سقوط الدولة العبرية في آخر الزمان ، ونحن في مواجهة هذا الآخر ، مقترين من الحشر المنوّه عنه في الآية ، مقترين من الآخرة ، بدلالات كثيرة ، يواكب بعضها بعضاً ، من أهمها أشراط الساعة ، التي قلنا إن كثيراً منها متحقق عملياً في زماننا هذا ، والتي سنبحثها إن شاء الله فور

نهايتنا من موضوع قضاء الله عزّ شأنه بيننا وبين الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود ، الذين أفسدوا في الأرض فحاربوا محمّداً صلى الله عليه وآله ومن أسلم معه الله الواحد القهار ، وكفروا بما أنزل عليه وهو الحق من ربّه سبحانه ، كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مصداقاً لما بين يديه ومهيماً عليه .

فمن بشارات الفتح ومقوماته لمصلحة المسلمين ، هو ما نجده في مضامين الآيات التالية:

قوله تبارك وتعالى :

(1) سورة الحشر ، الآية 2 .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (1) .

ولماذا تكون هذه الآية من البشارات للذين آمنوا والمقصود بها في القرآن الكريم . وحيث وقعت . المسلمون الحقيقيون ، مع أن مضمونها هو التحالف بين اليهود والنصارى ، والتحذير منهم جميعاً يؤكّد عداوتهم الشديدة لأهل الإيمان . فكيف تكون من البشارات ؟

في الواقع هذه الآية ، هي من الآيات التي اختلف فيها المفسّرون في الماضي اختلافاً شديداً ، ولم يتوصلوا إلى حقيقة ما ترمي إليه ، وهم معذورون في عدم تدبّرها ، لأنها تذكر خبراً أو حقيقة هي خلاف ما كانوا يرونه في القرون الأربعة عشر الماضية من تاريخ الهجرة الميمونة . فما كان يتم في الحقبة الماضية من التاريخ ، هو ما ذكرنا بعضه في سياق هذا الكتاب ، من خلاف مسعور بين اليهود والنصارى ، حيثما اجتمع الفريقان ، وهذا أمر بديهي ، حيث أنّ اليهود ما توقفوا لحظة عن التشنيع على النصارى وحتى على أقدم مقدساتهم المسيح وأمه عليهما السلام . وكذلك كان هذا الخلاف الذي دام منذ البعثة الشريفة للمسيح عليه السلام وحتى ثلاثينات القرن العشرين الميلادي ، كان خلافاً حاقداً في المناظرات قولاً وكتابةً ، شرساً دامياً في المواجهات ، كما كان مصداقاً كذلك لمعجزات القرآن الكريم الذي نصّ في أكثر من آية عن حتمية وقوعه في تاريخ الفريقين وصولاً إلى هذا الزمان ، زمان مصداقية الآية التي

تذكر تحالفهم من جديد ، خلافاً للعداوة المريرة التي كانوا عاشوها كما ذكرنا حوالي أكثر من تسعة عشر قرناً من الزمان ، وإذا بهم يتحولون فجأة إلى جبهة واحدة عالمية في معاداة رعناء للإسلام الحقيقي ، وما زال السؤال ، وكيف تكون الآية بشارة ؟

(1) سورة المائدة ، الآية 51 .

الحقيقة أن البشارة فيها مرتبطة بآيات بعدها ، واحدة تمحص المسلمين ، وتذكر أن الذين يوالون اليهود والنصارى هم من أهل الردة ، وأنهم سيحشرون معهم على خزي في الدنيا وعذاب الجحيم في الآخرة .

فالآية التي تفصل بين المسلمين الحقيقيين وبين الذين في قلوبهم مرض الموالين لليهود والنصارى ، هي بعد الآية التي ذكرت مباشرة : قوله تعالى :

{ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ } (1)

فواضح أن البشرى هي في وعده تعالى بالفتح لمصلحة المسلمين ، وحيث أن ظواهر الأمور ، من حيث تركيبية الدول ، وفارق القوة بين المسلمين وبين من يعاندونهم ، لا لشيء إلاً لأنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد ، هذا الواقع المتفاوت وغير المتكافئ بيننا وبينهم ، حيث أن الفوارق المادية . وليس الروحية . هي لصالحهم في جميع مناحي الحياة ، سياسة وعسكرياً ، واقتصاداً وتقنية مدهشة ، حتى لكأن الصورة التي يرسمونها للمقارنة بيننا وبينهم ، قد اعتبرها أكثر مفكري أمتنا وكتّابها ، أنها صحيحة ، وأنها نهائية ، وهي أننا في منزلة الإنسان البدائي في مقابل " السوبرمان " أي الإنسان المتفوق الذي في أعلى درجات الحضارة والرقي ، والذي هو أنموذج ينبغي أن يحتذى به ، حسب فريق من المبهورين ، الذين نسوا أن للعباد رب يعبد كما

يريد هو ، لا كما يريد عباده .

وعلى كل حال ، هذه المقارنة التي يخيّل أنّها واقعية في ظاهرها هي التي حَدَتْ أيضاً بفريق آخر أقلّ انبهاراً ، من العلماء والمفكرين المسلمين وكتّابهم ، إلى عصر أدمغتهم للبحث عن مخرج للأمة العربية ، من هذا

(1) سورة المائدة ، الآية 52 .

المأزق ، وهم للأسف . رغم إخلاصهم . كلما كتبوا ، زادوا الأمور تعقيداً ، ووقعوا وأوقعوا الناس أكثر فأكثر في حيرة ، وهم في كتاباتهم ، التي يبحثون فيها بحثاً موضوعياً كما يزعمون ، إنما يحاولون المستحيل ، لأننا كلما تقدمنا شبراً تقدم الغرب باعاً ، ويزيد الفارق بحكم النسبية ما دمنا وإياهم في الزمان الواحد .

فعلى هذا ، آن لمفكري المسلمين وكتّابهم ، أن يجوّلوا وجوههم إلى الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ، والذي هو إله في الأرض وإله في السماء ، والذي هو معكم أينما كنتم ، يدبّر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وأن يتدبروا كتابه الكريم، وأن يدعوا الناس إلى الله عاملين جادين متوكلين عليه لا متواكلين ، وأن يصدقوا بوعد الله ووعيده الَّذِينَ بين دفتي القرآن الكريم ، فالذين يظنون بالحضارة هذه الزنديقة ظنّ الخير ويظنون بالله ظنّ السوء .

{ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } (1) .

وكل آت قريب .

ثم عوداً إلى الآية الكريمة الواعدة بالفتح وإلى البشرى التي تتضح فيها ثم تتجلى أكثر فأكثر ، بآية بعدها ، قوله تعالى ، مُنَوِّهاً بعاقبة المرتدين عن دينهم الذين يوالون أو يوادُّون أو يطمئنون للتحالف اليهودي . النصراني ، كما ينوّه سبحانه بأنصاره الآتين وبصفتهم قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (2) .

(1) سورة الفتح ، الآية 6 .

(2) سورة المائدة ، الآية 54 .

فإذا ربطنا هذه الآية الكريمة بقوله تعالى في سورة الإسراء :

{ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ }

ثم قوله تعالى في نفس السياق مخبراً بني إسرائيل عن هؤلاء العباد ، بقوله عزّ من قائل :

{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا }

أدركنا أن هؤلاء المسلمين المؤمنين ليسوا من النمط العادي ، الذي يعرض للأذى وربما لسفك الدماء مسلمين مؤمنين آخرين ، فصفت أنصار الله المرصود على أيديهم الفتح كما رأينا في آية المائدة (54) ، أنهم " أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " ، وكيف يكون المؤمن ذليلاً على المؤمن وهو يكيد له ويتربص به الدوائر حتى إذا تمكن منه سفك دمه ، أو قصف منزله ، أو أغمض عينيه وأطلق قذائفه وصواريخه على قرى وأحياء مليئة بالمسلمين وبالمؤمنين العزل ، فيقع القتل في النساء والأطفال والشيوخ والشباب ، ولا يطفئ للقتلة باسم الإسلام جفن ، ويدعون أنهم هم أهل الفتح ، وأنهم هم أنصار الله ... كل ذلك بدعوى أنهم يريدون فتح الطريق لقتال الأعداء الحقيقيين، والأعداء الحقيقيون فوق الفريقين المتناحرين. يوجهونهم ويشكروهم على إبادة بعضهم وباركون النار التي فيها يحترقون .

بلى سيخرج من الفريقين هذين وأمثالهما في العالم الإسلامي رجال . كما سنرى .

يجتمعون على حب الله وطاعته والجهاد في سبيله ، ويكونون مصاديق لما ذكر عنهم سبحانه من صفات الصديقين المجاهدين الذين لا يخافون في الله لومة لائم .

ومتى يبلغ مداه ، هذا الإجتماع على حب الله ، وطاعته والجهاد في سبيله ؟ بفضل من الله تعالى وبنعمة منه ، سيكون ذلك عبر الحرب العالمية القادمة ، التي ستطيح بجبابرة الأرض . ويبقى الباب مفتوحاً للجوء إلى الله ، انضواءً تحت راية لا إله إلا الله ، من جميع الملل ، وسيتم هذا الأمر برحمة

منه سبحانه لمن يعلم في قلوبهم خيراً ، ولمن قال فيهم :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (1).

وسيكون قسم كبير من النصارى أوفر حظاً عند الله عز وجل لاتباعهم للمسيح في بعثته الثانية . وهذا الفريق منهم سيجنبهم الحرب وأهوالها ، كما سيجنب جميع الصالحين من عباده ، وهو على كل شيء قدير .

لقد قلنا متى يبلغ أمر اجتماع المؤمنين مداه ، وقد أجبنا ، انه بإذنه تعالى سيكون عبر الحرب العالمية ، بعد أن يجنبا الله تعالى فظائعها وقيامتها وخاصة في لبنان وبلاد الشام عامة وكذلك إيران ومكة المكرمة ، وكذلك كل بلد إسلامي يكثر فيه الولاء لله وحده دون شريك . يبقى أن نقول كيف يكون هذا الاجتماع ، وكيف يتعاصد المسلمون والجواب كذلك ، في وعد جاهز بنعمة من الله في آخر آية من سورة الفتح ، قوله تبارك وتعالى :

{ .. كَزْرَعٍ أُخْرِجَ شَطَأُهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } (2) .

ثم شباب المسلمين وشيوخهم ، وبكلمة هم الأمة الإسلامية التي سيسلمها الله عز وجل ، وقد رصدها للفتح المبين ، بعد أن محص وعاقب وابتلى ودمر على أقوام منها ، وما زال ملائكته بأمر منه سبحانه يهلكون قرى ومدناً وجماعات وأفراداً ويصطفون بإذنه آخرين :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا

(1) سورة البقرة ، الآية 62 . (2) سورة الفتح ، الآية 29 .

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ { (1) .

ومن نماذج العقوبات والإبتلاء والتدمير والتشريد والقتل الجماعي وإهلاك أفراد وليس
هلاكلهم ، ما حصل لشعب فلسطين في الداخل والخارج ، وما زال ، ثم في لبنان ، ثم في
الكويت ، ثم في العراق ، والله أعلم أين ستكون محطات الغضب التالية قبل الحرب العالمية وفي
حُمَيَّاهَا أو وقوداً لها .

ومع ذلك كله ، سينجي الله عزَّ شأنه ، الأمة الإسلامية التي قال فيها :

{ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. } (2) .

سينجيها ، ويجمع شملها على الخير ، وعلى النصر المبين ، بعد أن يصطلي بنيران يأجوج
ومأجوج أكثر أهل الأرض .

وقد آن لنا أن نحسم القول . ودائماً بفضل الله وعنايته ورحمته . في معنى يأجوج ومأجوج
والإختلاف الشديد حولهما وحول معنهما وماهيتهما سواء عند اليهود أو النصارى أو المسلمين
والجميع يعتبرونهما أقواماً من البشر أو ما يشبه البشر، وواقع الحال أنهما كناية عن بشر لأنهما
لا يتحركان إلاً بمحرك ، وما هما إلاً القذائف والصواريخ من كل حجم وهي ما كَتَّى عنها
سبحانه بيأجوج لأنها توجَّ نيرانها أجاً ، أما مأجوج (وبدون همز) فقد كَتَّى به سبحانه عن
المدافع بجميع عياراتها لأنها تمجَّ من أفواهاها ما هو معلوم من مواد الفتك والدمار . هذا بلغة

(1) سورة فصلت ، الآيات (31 . 30) .

(2) سورة آل عمران ، الآية (110) .

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (1) .

ولو أن العرب أسموا القنابل والمدافع منذ البداية بأجوجاً ومأجوجاً وهو الأصح تعبيراً
وكناية وتوافقاً مع كتاب الله ، لما كان هناك مشكلة منذ معرفة هذين النوعين في الزمان المتأخر .
على أن هذه العبارة وردت مرتين في القرآن الكريم : واحدة تتعلق بعصرنا ، وهي التي
في سورة الأنبياء والثانية مضت عليها قيامة أرضية سابقة وهي التي في سورة الكهف ، أما
الأولى فقوله تعالى :

{ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَقَاتَرَبَ الْوَعْدُ
الْحَقُّ فإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا
ظَالِمِينَ } (2) .

وواضح أن الأمر هو كذلك من أشراط الساعة ، أو القيامة الكبرى التي ستكون على
مستوى السموات والأرض .

أما لماذا لا يكون الأمر مرتبطاً كذلك بالحربين الأولى والثانية العالميتين ، وكذلك الحروب
الإقليمية التي حصلت بعدهما ، وكذلك الحروب المحلية ، وفي جميع هذه الحروب استعملت
الألغام والقنابل والمدافع . فنقول وهو كذلك ، فكل هذه المدة الزمنية ، هي من مقدمات
الساعة ، أي القيامة الكبرى ، أي الوعد الحق المنوّه عنه في الآية الكريمة ، على أن تكامل هذا
الشرط من أشراط الساعة أو تكامل هذه العلامة ، أمر مرهون بقوله تعالى :

{ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ ... } .

(1) سورة الزخرف ، الآيات (3 . 1) .

(2) سورة الأنبياء ، الآيات (97 . 96) .

وقوله سبحانه :

{ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } .

وقوله عزّ شأنه :

{ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ } .

فالقولان الأولان ، دلالة على كثرتهما وكأنما على تدفق الجيوش معهما ، والعبارة الثالثة كناية عن الإقتراب أكثر فأكثر من وعد الله عزّ وجلّ بقيام الساعة . ثم دلالة الآية الكريمة بشكل عام على مدى أهوال واتساع هذه الحرب وشمولها لجميع كفار أهل الأرض بدلالة قوله تعالى :

{ ... فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ

كُنَّا ظَالِمِينَ } (2) .

وليس من شروط علامات الساعة أن تكون جميعاً في يوم أو سنة أو حتى عقد من الزمان ، فسنرى عند وصولنا إلى هذا المبحث إن شاء الله ، كيف أن بعض العلامات قد تمتد وتتفاعل خلال ربما أكثر من عقدين من السنين . وعلى سبيل المثال :

{ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . (سورة التكوير ، الآية 6) } .

وتسجير البحار حاصل بمعنييه وهما الإحتراق والإمتلاء ، وهو أمر مستمر منذ أكثر من ثلاثة عقود ، أي منذ بدء التجارب النووية في عمق المحيطات وما يتبع ذلك من احتراق بالغ الشدّة يسبب مزيداً من ذوبان الجليد في قطبي الأرض شمالها وجنوبها ، ممّا ينتج عنه زيادة تسجير البحار بالمياه ، أي امتلائها ، أضف إلى ذلك حرائق النفط وبقع النفط التي أقلّها حصل في حرب الخليج ، وأكثرها واقع بإذن الله في الحرب الكبرى الآتية ، عندما تصل هذه العلامة

من علامات الساعة إلى أوجها أو تكاد ، مواكبة ومتساندة مع علامة ثانية قوله تعالى عن الأرض :

{ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . (سورة الإنشقاق ، الآية 4) } .

وإذ نكتفي الآن بهذا المثل ، نعود إلى حكاية يأجوج ومأجوج ، التي في سورة الكهف ، والتي هي قوله تعالى :

{ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا }⁽¹⁾ .

إلى آيات أخر قبلها وبعدها تلقي الضوء على مجمل القصة ، إلى أن يقول سبحانه على لسان ذي القرنين بعد بناء السد :

{ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }⁽²⁾

وواضح أن هذا السد اليوم لا أثر له ، ربطاً بالصفات التي ذكرت في القرآن المجيد فيما بين الآيتين ، وهي كونه سد هائل يستحيل على القوم اختراقه أو ارتقاؤه ، وتدل الآية على أنه دمر تماماً :

{ جَعَلَهُ دَكَّاءَ } .

ثم من بليغ الدلالة على هذه الحقيقة ، أنهم دمروا ، وأنهم في برزخ عرضوا على جهنم بانتظار القيامة الكبرى ، يوم يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً نكراً . كما ورد في آية في بداية السياق ، قوله تعالى :

{ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا }⁽³⁾ .

ولن نتوقف عند قول من قالوا ، إن استعمال صيغة الماضي في الآيات ، تدل على تحقق هذا الأمر في القيامة الكبرى النهائية ، صحيح أن بعض الاستعمال لصيغ الماضي يدل على

التحقق في المستقبل ، إلا أنه ليس جميع صيغ الماضي ، وإلاً لكان جميع الحديث والقصص
القرآني

(1) سورة الكهف ، الآية 94 .

(2) سورة الكهف ، الآية 98 .

(3) سورة الكهف ، الآيات (100.99) .

يشير فقط إلى المستقبل ، وهذا مردود بالبديهة .

على أن القصة ، باختصار شديد ، هي أنها كانت حضارة حديدية . نحاسية كما يستنتج
من الآيات الكريمة ، ليست بعيدة عن حضارتنا هذه التدميرية ، فأقام الله عز وجل القيامة على
رؤوس أهلها الذين أفسدوا في فترة من الزمان امتدت بعد ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم
إلى ما شاء الله .

ولا بأس أبداً عندنا ، فيما كتبه بعض المحققين من علماء الآثار ، عن حضارة راقية ،
سبقت حضارتنا هذه ، ثم كان تدميرها تدميراً كاملاً ، بحيث لم يبق على وجه اليابسة من آثارها
إلا اللمم ، ومنه فيما يلي القشرة الأرضية الحالية ، كميات من غبار النجوم إلى غير ذلك من
آثار وكأنها . كما يقولون . آثار قصف سماوي للأرض ، على أن بقايا هذه الحضارة ، أحصوها .
وما زالوا . في أعماق البحار .

وبخصوص القول :

{ .. إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. } (1)

وأن (مفسدون) للعقلاء ، فكيف وصف بها ما لا يعقل ، فالجواب أنها من باب قوله

تعالى :

{ .. وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ .. } (2)

يقصد بها فرساناً وراجلين . وكذلك قوله تعالى للسموات والأرض :

{ .. ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (3)

- (1) سورة الكهف ، الآية 94 .
- (2) سورة الإسراء ، الآية 64 .
- (3) سورة فصلت ، الآية 11 .

غرق الدولة العبرية في المحيط العربي . الإسلامي :

بعد استعراضنا لوعد الله تبارك وتعالى في آيات كريمة ، بخصوص السقوط الكبير بعد العلو الكبير لدولة بني إسرائيل . فقد بات حقاً علينا وواجباً أن نقرأ الآتي القريب على الأرض أو على الخارطة العالمية ثم الإقليمية .

فبعد أن قلنا إنه ، ولعله ليس شرفاً لنا أن نلحق بالحضارة الزندية وأن هذا الشرف بعدم اللحاق ، هو ممّا اختصّ سبحانه به هذه الأمة ، التي هي عنده تعالى خير أمة أخرجت للناس ، لكي لا تغرق في الزندقة وبعد أن قلنا بوجود التحوّل عن هذا المطلب الذي وكأن الله جعله علينا مستحيلاً لكي لا نكون وقوداً للنارين في الدنيا والآخرة ، فله الشكر سبحانه وله الحمد كما ينبغي لكرم وجهه ، وبعد أن قلنا بوجود العمل بجد ضمن إمكاناتنا التي مكّنتنا منها سبحانه ، دون أن نستعطي أو نتوسل ، متوكلين غير متواكلين ، فهو الناصر سبحانه وهو الكافي ، وأن الأمر أمره والخطة خطته وعليه عاقبة الأمور ، وبعد أن قلنا إنّه بعد هدم وتمزيق دولة الإلحاد في الإتحاد السوفياتي وبقية الدول الشيوعيّة آتية القيامة الصغرى على إسرائيل وأميركا وأوروبا والصين وأحلافهم، حيث بين يأجوج وماجوج وحرائق عالمية ستسقط حضارة الغرب الزندية ، حضارة الجنس والفتان ، وظلم الشعوب المستضعفة ، حضارة التعبّد للآلة والدولار والمظاهر الكرتونية . حضارة الكفر بالله والشرك بالله ومعصية الله عن سابق تصوّر وتصميم . ويسقوط هذه الحضارة طبعاً تسقط معها القوى العسكرية ، وتصبح الدول والمدن بين طعام للنيران وبين عرصة للطوفان الذي سيكتسح معظم شواطئ أوروبا وأميركا وبعض شطآن آسيا مغرقاً عواصم ومدناً ومعها حضاراتها الفولكلورية وكرنفالاتها العريضة ، الموعودة

بوعيد الله جلّ جلاله ، قوله تعالى :

{ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ. ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ} (1).

(1) سورة غافر ، الآيات (75 . 76) .

بعد هذه النهاية المرسومة قدراً وقضاءً من الله سبحانه لتساقط الدول العظمى والدول الأعظم والتابعين من المغرورين بمظاهر القوة من جميع الدول وجميع الملل ، والذين سيكونون مع أسيادهم مصاديق لقول الله عزّ شأنه :

{ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } (1) .

بلى إنه عزّت قدرته كان وما زال وسيبقى بالمرصاد لجميع الطغاة والمجرمين المفسدين في الأرض ، فإنه لا يجب المفسدين ولا يجب المعتدين ولا يجب الكافرين .

بعد هذه النهاية المقررة من ربّ العزة والجبروت ، ماذا يبقى على صعيد القوى في الأرض ، بعد أن يذهب أهل الشمال بهيبتهم وغطرستهم وقواهم المادية والعسكرية وإعلامهم المنافق ، وبعد أن يذهب ترفهم الذي يعتزّون به وما زالوا لغاية كتابة هذه السطور ، وهم يقولون إن هذا الترف من حقّهم وحق شعوبهم وإنهم لن يتخلوا عن شيء منه لأهل الجنوب ، ويقولون ولماذا لا يشدّ أهل الجنوب أحزمتهم ، ليستطيعوا تسديد الديون لأهل الشمال ، حيث أن هذه الديون تتراكم يوماً بعد يوم وتتضخم بفعل الربا المتزايد كذلك ، الربا الذي جعلوه أسلوباً مقدساً من أساليب هذه الحضارة الزنديقة ، رغم أن الله تعالى جعله من أعظم المحرمات .

وهؤلاء ، أي الدول الغنية ، هم أسموا أنفسهم ، أهل الشمال وأسموا الدول الفقيرة أهل الجنوب ، إلا أننا نحن نقول أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ، لأن القرآن الكريم يسمّيهم كذلك ، وليس في القرآن لفظة جنوب ،

(1) سورة الفجر ، الآيات (14.11) .

علماً أنه ورد فيه شرق وغرب وشمال ، فما عنوه هم بأهل الجنوب رمز إليه القرآن الكريم بعبارة { أصحاب اليمين } .

ولماذا أسموا أنفسهم أهل الشمال ، هذا من العَجَب ، إذ أن التسمية هي رمزية كما أرادها الله سبحانه ، فهو تعالى قهرهم عليها وألزمهم بها ، والعجب فيها أنهم أخذوا يتداولونها رغم أنها لا تدل على وجودهم جميعاً شمال الكرة الأرضية ، كما لا تدل عبارة { أهل الجنوب } على وجود جميع الدول الفقيرة جنوب هذه الكرة . ولكنه هو السر الإلهي الذي أرادته الله تعالى تحقيقاً لوعده لأهل اليمين المؤمنين المستضعفين ، ووعيده للآخرين ، وذلك في عمر البشرية ماضيها وحاضرها ومستقبلها . مع حسابان الإستثناء من كل قبيل . قوله تعالى :

{ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلِّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . غُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى . وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ } (1) .

وأما وعيده ، فقوله عزّ شأنه :

{ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ } (2) .

والحنث العظيم هو كل ذنب عظيم ، وما أكثر ما يخالفون تعاليم الله ، وما أكثر ما يذنبون ، وما أكثر ما يجرمون ، وحسبنا أعداقتهم العون والمساعدات وآلات الموت ضدنا على

أفسد أهل الأرض في هذا الزمان ، دولة بني إسرائيل ، لتزيد طغياناً وغطرسة وتجبراً ، وهي في نفس الوقت تكفرهم وتزديبهم ، وتدوس قراراتهم وقرارات مجالسهم : الأمن والأمم المتحدة وغيرها

(1) سورة الواقعة ، الآيات (40.27) .

(2) سورة الواقعة ، الآيات (46.41) .

من المؤسسات العالمية ، ومع ذلك كله كأنما شملهم العمى ، وصدق الله العظيم:

{ .. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } (1)

إسرائيل هذه ، ستغرق في المحيط العربي . الإسلامي في السنة اللاحقة للحرب العالمية

الثالثة . بعد أن تصبح القوّة الباقية والفاعلة على الأرض ، هي القوة العربية . الإسلامية .

أما كيف يتلاءم ذلك مع وعد الله تبارك وتعالى من حيث أن الفتح لن يتم إلاّ بأيدي

المؤمنين ذوي الصفات التي ذكرنا آنفاً ، والتي أبرزها أن يكونوا أنصاراً حقيقيين لله وحده دون

شريك . وأن تكون شعاراتهم وهتافاتهم ، ونداءاتهم ودعائهم لله وحده ، واستغاثاتهم بالله وحده

وأن لا يجعلوه مع أحد من خلقه على طاولة مستديرة واحدة ، ذلك بأنه لا يجوز أن يقاس بأحد

من خلقه ، ولا يقاس ، فسبحانه وتعالى عن جميع من خلق وما خلق .

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ } (1)

أما كيف يتلاءم الفتح المرتقب مع حالة الأمة الراهنة ، حيث أنها بدوها العربية وغير

العربية ، أكثرها علماني أو متوجه نحو العلمنة ، وأكثرها يتلبس بإسلام شكلي ، رؤساء

ومرؤوسين ، فضلاً عن البؤر الواسعة التي تناضل فيها بعداوة مريرة ضد الإسلام ، إما لأنها

منحرفة عن صراط الله العزيز الحميد ، وإما لأنها عاشت حالات رعب من ممارسات مدعاة أنها

إسلامية ، في سياق حماس موتور ، ما أنزل الله به من سلطان . وهذا النوع

(1) سورة الحج ، الآية 46 .

(2) سورة لقمان ، الآية 30 .

الثاني ، هذه البؤر الخائفة من الإسلام ، معذورة نسبياً ، وهي عندما تعيش ممارسات إسلامية حقيقية ، عادلة ورحيمة ، سرعان ما سترفع راية لا إله إلا الله وتَهَلَّل وتكَبَّر وتملأ قلوبها بالحب الأقدس للأعزَّ الأجلِّ الأكرم ، الرحمن الرحيم .

ويبقى السؤال كيف التلاؤم بين الأكثرية الجاهلة للإسلام ، أو الأكثرية غير المؤمنة ، في

الأمة الإسلامية المرتقبة للفتح المبين ؟

والجواب هو في الآية الكريمة :

{ .. كَزْرِعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ .. } (1) .

على تفاوت في الدرجات ، على أن الآية في آخرها ذكرت ما سيلحق أنصار الله

الحقيقيين قوله تعالى :

{ .. وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } (2) .

وهكذا يكون بقية أفراد الأمة الذين هم من غير الصفوة المجتابة ، مصاديق لقول الله

تعالى :

{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي

قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (3)

وهكذا ستكون الأمة الإسلامية بجميع درجات أبنائها الإيمانية ، من قادة وعساكر ،

جاهزة للإنقضاء على صفوة الظلم البشري ، أعداء الله المفسدين في الأرض . دولة بني

إسرائيل . ولا ننسى أن الميزة الأساسية للأمة على أعدائها ستكون آنذاك ، هي تأييد الله ،

ووعده الحق لأنصاره

-
- (1) سورة الفتح ، الآية 29 .
(2) سورة الفتح ، الآية 29 .
(3) سورة الحجرات ، الآية 14 .

الموحدين ، بالفتح المبين ، يبشّرنا الله تعالى به ، على أنه حقيقة قائمة ، قوله تعالى عن بني إسرائيل :

{ .. وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ، فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ } (1) .

وهذه الآية كما أشرنا من قبل ، مرفودة بآيات سورة الإسراء المتعلقة بهذا الأمر . وهذه الآية أيضاً ، يمتد خبرها ومصادقيتها من طريقة إخراجهم من المدينة المنورة ، وكل الجزيرة العربية ، إلى إخراجهم الوشيك إن شاء الله تعالى من فلسطين .

واستعمال الأفعال الماضية هنا كذلك يحمل الوجهين : الوجه الأول وهو الذي تحقق عهد الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله ، والوجه الثاني الذي هو على سبيل التحقيق في المستقبل القريب بإذن الله تعالى ، ومن أصدق من الله قبلاً ومن أصدق من الله حديثاً . واستعمالات القرآن الكريم لصيغ الماضي عن أمور ستتحقق في المستقبل كثيرة جداً ، وهي من باب قول أهل النار لخازن النار على سبيل المثال :

{ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كَثُورٌ } (2) .

وكذلك الآيات الخمس الأولى من سورة الروم ، والتي هي أنزلت أيضاً تحمل وجهين ، مرحلتين ، خبرين مستقبليين ، أولهما وقع عهد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وهو المعروف تفصيله في كتب التفسير التي لم تتعرض للوجه الآخر المستقبلي والذي هو قيد التَّحَقُّق ، وللنظر في الآيات الكريمة قبل أن نعرض تأويلها ، قول الله عز وجل :

-
- (1) سورة الحشر ، الآية 2 .
(2) سورة الزخرف ، الآية 77 .

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم . غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ
غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ .
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } (1) .

وفي الفعلين (غلبت) و (سيغلبون) قراءتان : الأولى هي المشهورة في المصحف
الشريف بضم غين الأول وفتح ياء الثاني ، أما القراءة الثانية التي سنقرأها بناء على الخبر
المستقبلي الذي نحن بصدده ، والتي تحقق بعضه في حرب الخليج . فسنقرأه هكذا :
{ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ... } .

أي بفتح غين الفعل الأول وبضم ياء الفعل الثاني .

فيصبح المعنى في القراءة الثانية أن الروم هم الذين تغلبوا على خصومهم في أدنى الأرض
، وذلك أمر وقع كما هو معلوم ، إبان فصل الشتاء من السنة 1411 هـ . 1991 م ، حيث
اجتمعت الروم وتحالفت رغم خلافات بين كثير منها ، تحالفت في جميع أقطار الأرض لتنتصر في
حرب خاطفة طاحنة على خصومها في أدنى الأرض ، وكلمة أدنى الأرض ، من الشواهد البارزة
على ذلك ، فمكان المعركة في العراق والكويت ونفس الحجاز ، أدنى إلى مكان نزول القرآن
الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وآله وأقرب من فلسطين ، (حيث كانت فلسطين
وبلاد الشام عامة هي المقصودة في الوجه الأول من الخبر القرآني) وهكذا سيطر الغرب أو
الروم بالمعنى التقليدي ، على جميع المنطقة في الشرقين الأدنى والأوسط ، وهو في صدد أن
يسيطر على العالم كله بنفس إمبريالي يعد له الآن العدد والعدة .

(1) سورة الروم ، الآيات (5.1) .

أما الشاهد البارز الثاني على مصداقية الوجه المستقبلي للآيات الكريمة فهو قوله تعالى:
{ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ... الآية } .

وهكذا يظهر بوضوح أكثر ممّا يظهر من الوجه الأول لزوم الفرحة للمؤمنين ، حيث أن فرحهم بالنسبة للخبر الذي مضت مصداقيته كان بانتصار الروم على الفرس ، والروم عهد ذاك نصارى والفرس وثنيون .

وصحيح أنه من الطبيعي أن يفرح المسلمون بانتصار مسيحيين على وثنيين حيث كان حرص مشركي العرب آنذاك انتصار الوثنيين لمشابكتهم لهم . إلا أنه من الطبيعي أكثر أن يفرح المسلمون أكثر بأن يُغلب على أمرهم جميع الفرقاء الذين نصبوا أنفسهم أعداءً للإسلام والأمة الإسلامية وأن يهزم بعضهم بعضاً وهم أهل الغرب عامةً ، أصحاب الحضارة الزنديقة، وتكون فرصة المسلمين في هكذا حال أعم وأعظم ، حيث تبقى الأمة الإسلامية هي الأسلم والأنقى والأقوى على الأرض ، لأنها كانت وستبقى بإذن الله ، هي الأعبُدُ لله والأطوعُ لتعاليمه والأحرصُ على رضاه ، وبكلمة ، لأنه كان في خلاصتها الموحدون الحقيقيون ، أنصار الله جلّت عظمته ، وتبارك وتعالى عمّا يشركون .

وبذلك يكون الفصل في الكلام ، أن الروم ، وهو الإسم التقليدي عندنا لأهل الغرب عامة ، النصارى منهم والملاحدة ، سَيُغْلَبُونَ ، سيغلب بعضهم بعضاً ، وذلك سيكون هو النصر الموعود في الآية الكريمة ، بزوال القوى المعادية لله تبارك وتعالى وبقاء الأمة الإسلامية التي كانت خير أمةٍ أُخرجت للنّاس بفضل الله ورحمته .

{ .. وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. } .

بخصوص القوى الهائلة التي ستدمر في الحرب الموعودة ، ثم يؤيد الله عزّ شأنه أنصاره وينصرهم نصراً عزيزاً على دولة المفسدين في الأرض ، دولة بني إسرائيل كما أشرنا بإسهاب ونحن بصدد الآيات الملحمية

الكرامة . ثم يبقى من يبقى من أهل الأرض مصداقاً لوعده تبارك وتعالى في قوله :
 { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
 اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
 خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
 } (1) .

وواضح أن الشرط الأساسي لهذا الإستخلاف في الأرض وهذه العطاءات المصيرية
 والعالمية ، التي هي أعلى وأرقى ، وأجمل وأبهى ما يطمح إليه المجتمع البشري في الحياة الدنيا ،
 أن الشرط الأساسي للحصول على كل ذلك هو التوحيد الصافي ، النقي ، وهو الدين
 المخلص لله ، المخلص من كل شائبة ، والمخلص من كل شريك ، صنماً كان أو وثناً ، نبياً كان
 أو إماماً أو ولياً⁽²⁾ . ذلك قوله في الآية الكريمة :

{ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } .

أما العبارة الأخيرة من الآية قوله تعالى :

{ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } .

فتنويه على أن الأرض لن تخلو من فسقة ، لأنها لن تكون الجنة الموعودة ولا بحال من
 الأحوال . ولعل من وجوه الحكمة ، والدار دار تكليف ، أن يبقى المؤمن يرى الأضداد لتبقى
 عنده الحوافز على تقوى الله عزّ شأنه . والضدّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ .

ثم إن التبادر في مجمل الآية يوحي بأن الفساق الذين سيبقون في الأرض .

(1) سورة النور ، الآية 55 .

(2) وهذا لا يتنافى مع مفهوم الولاية كما ظنّ ويظن بعض الذين يتساهلون في الولاء لرسول الله وأهل

بيته صلى الله عليه وآله . فآية الولاية تحسم الأمر حتى لا لبس فيه ، قوله تعالى :

{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } . سورة المائدة ،
الآية 55 .

سيكونون قلة لا تراحم ، ليس لهم حكم ولا قوة .

والحمد لله رب العالمين على ما أولانا وعلى ما أعطانا وعلى ما سيولينا وسيعطينا إن
شاء الله ، من جوده وفضله ، ورأفته ورحمته ، وهو العزيز الوهاب . عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه
المصير .

(16)

القرن العشرون الميلادي
في مواجهة أشرار الساعة

القرن العشرون الميلادي في مواجهة أشرط الساعة

بعءما استعرضنا بالآيات الكريمة مجريات ما سيحدث بعء القيامة الصغرى ، أي الحرب العالمية ، من سقوط قوى الطغيان في العالم عامة ثم سقوط دولة بني إسرائيل في الشرق الأوسط بشكل خاص . ثم بعء هذين السقوطين قيام المجتمع الفاضل متمثلاً بالدولة الإسلامية المباركة من رب العالمين . نعرض لأشراط الساعة التي تتحرك بين ظهرانينا منذ أمد اقله بداية القرن العشرين الميلادي . وهي تتكاثف وتتواكب أكثر فأكثر كل ما مضت الأيام وصولاً إلى تجليها علمياً في العقد العاشر الذي نعيشه حالياً من هذا القرن . ومع ذلك ، مع أنها تقرع بقوة أبواب الساعة أو القيامة الكبرى على مستوى الكون ، مع ذلك كله فإن الناس لا يعون منها إلا الوجه العلمي منفصلاً عن وعد الله ووعيده وعن الدين بشكل عام ، يتساوى في ذلك المسلمون في أقطار العالم مع غيرهم من أصحاب بقية الملل .

ومن الآيات الكريمة الفذة التي تربط بين الشأنين الكبيرين شأن القيامة الكبرى الكونية والقيامة الصغرى الأرضية ، قول الله عزّ من قائل :

{ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ . فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ . يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا

هُم يُنصَرُونَ . وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ { (1) .

وقبل أن نشرح الآية الأولى ربطاً بالحقائق العلمية التي هي الآن راهنة في السماء ، نوجز

محمل معاني الآيات الثلاث ، في نقاط ثلاث :

أولاً : (إذا رأوا كسفاً) ، والكسف ما يغطي الشيء أو يحجبه ، والمقصود هذا الذي أسماه بالغيوم الحرارية ، يقولون هذا سحاب متلبد متراكم ، والحقيقة أنه ليس كذلك ، بل هو ساقط من السماء وليس متشكلاً حسب ناموس تشكل الغيوم بمفاهيمنا الأرضية . وهو علامة للقيامتين : الكبرى كما هو واضح ، والصغرى كما سنرى في النقطة الثالثة .

ثانياً : في القيامة الكبرى يصعقون ، فلا يغني عنهم كيدهم في معاندتهم لله عز وجل ولا يجدون ناصرًا ومن هنا يبدأ العذاب الأكبر ، عذابهم في الآخرة .

ثالثاً : وفي الآية الثالثة إشارة للقيامة الصغرى ، والمآسي الناتجة عن الحرب التي سيعاني منها موقدوها الولايات ، بما قدمت أيديهم ، وهذا ما أسماه الله عز وجل بالعذاب الأدنى ، في إشارة إلى عذاب الدنيا ، كما أشار إلى عذاب الآخرة بالعذاب الأكبر :

{ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ .. } (2) .

وواضح أن هذا المعنى يوافق قوله عز وجل في آية الطور الثالثة المشار إليها آنفاً وهي

قوله تعالى : { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (1) كناية

عن ويلات الحرب ومآسيها ، وما يرافقها من تغيرات سلبية في المحيطات والأرض والسماء ، كل ذلك

مواكباً لهذا الشرط من أشراط القيامتين الصغرى والكبرى ، والذي هو الكسف الساقط

من السماء .

(1) سورة الطور ، الآيات (47.44) .

ثم لنخشع الآن بكل جوارحنا ، مع آية (الكسف) هذه كما سنخشع حتى الفناء في فناء الله ، حباً له وخشيةً وتعظيماً ، يشعرونا بعده وبعد كل خشوع وخضوع ، وخشية وتعظيم ، بالأمن والسكينة ، ويؤيدنا بحفظه ونصره وحبّه . جلّ شأنه وعزّت قدرته ولا حول ولا قوة إلاّ به . وسبحانه وتعالى عما يصفون وعما يشركون .

فكلمة (الكسف) هذه فيها ثلاثة قراءات في ثلاثة معانٍ متقاربةٍ متداخلةٍ ، مقصودة في ما ترمي إليه الآية ، وليس ذلك بعجب ، لأنه من شأن القرآن الكريم ومن إعجازه فهو عند الله عليّ حكيم :

{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيّ حَكِيمٌ }⁽¹⁾ .

وأحسن القراءات لكلمة الكسف هذه هي التي بفتح الكاف وتسكين السين لأنها تعني إلقاء حجاب على الشيء بما يسبب حجبهُ أو إظلامه نسبياً أو كلياً ، وهذا أمر واقع اليوم ، وهو الذي أصبح معروفاً تحت اسم الغيوم الحرارية ، التي تلف الأرض ، وتشكل حولها درعاً حسب تعبير أحد علماء المناخ الهولنديين . فما هي هذه الغيوم الحرارية ، التي يقرع علماء المناخ بسببها نواقيس الخطر ، والتي عقدت لها الدول الكبرى والصناعية ومؤسسة الأمم بضعة عشر مؤتمراً دولياً لتاريخه ، وستبقى تعقد المؤتمرات ، وذلك لمنع أسبابها ، . حسب ما يظنون . ودرء أخطارها الجسيمة التي من جملة ما تهدد به العالم هو إغراق عواصم ودول ، في أوروبا كما في أميركا كما في شواطئ شبه القارة الهندية ، وغيرها من بقاع الأرض ، كما بمياه البحار والمحيطات كذلك بمياه الأنهار الكبرى والأمطار الغزيرة والطويلة الأمد .

الغيوم الحرارية (علمياً) هي الكسف (قرآنياً) :

بدأت الحكاية تتصعد في مطلع الثمانينات ، بعد أن كانت بين

العلماء ، حديثاً هامساً متسائلاً يتلوه مطّ الشفاه الذي يرسم علامات الخوف والاستفهام .
وفجأة ارتفع الصوت وبحدة آتياً من فرنسا ، وعلى لسان رئيس أكبر مؤسسة مناخ في
أوروبا ، مركزها باريس . هذا الصوت جلجل منذراً بغرق باريس بعينها ، وكذلك بعدة عواصم
أوروبية ، ودول أبرزها هولندا والبلدان الواطئة بشكل عام .

ثم ارتفع صوت آخر ، أكثر حدةً ، وأبلغ تخويفاً ، وهذه المرة من نفس هولندا ،
والصوت يقول بالحرف الواحد : " أعدوا القوارب " وفي نفس هذا الإنذار المرعب تفصيل
نوجزه بأنه هذه الغيوم الحارارية ، تتكاثف أكثر فأكثر ، حتى أنها شكلت درعاً حول الكرة
الأرضية ما زال يقترب شيئاً فشيئاً من هذه الكرة ، فيحبس الحرارة ، التي كان من شأنها
الصعود بحرية إلى الأجواء العليا ، أما الآن وقد أصبحت حبيسة ، فهي تؤثر سلبياً في عدة
اتجاهات منها ذوبان الجليد في أنحاء الأرض ، وخاصة في سيبيريا والقطب الشمالي وبصورة
أخصّ في القطب الجنوبي في القارة الجليدية المعروفة باسم قارة (الانتاركتيكا) والذي إذا ذاب
جليدها وحدها ، يرفع منسوب البحار في العالم إلى عشرين متراً عمودياً ، ممّا يتسبب بغرق ما
يزيد على 75 % من سكان الكرة الأرضية .

ومنها تدفئة مياه المحيطات التي تساعد أيضاً في إذابة الجبال الجليدية الهائلة الحجم ،
واقتراعها من أمكنتها ، وكذلك إذابة السابح منها في البحار والمحيطات ، والتي يظهر منها
عادة فوق مستوى البحار ، حوالي العشر فقط لثقلها وكبر أحجامها .

وآيه (الكسف) هذه ، هي من الأشراف التي ستبقى رديحاً من الزمن ماثلةً ، هكذا
جهاراً ، ليلاً ونهاراً ، أمام المراصد ، والمختبرات وأمام العلماء ، وبالتالي أمام جميع الناس ،
تذكرهم بدنو القيامتين الصغرى والكبرى ، حتى إذا مضت الحرب ، وبقي من أعداء الله
وأهل الشرك بقية،

ظل هذا الكسف إلى يوم الصعقة الكبرى ، وله باطن للمؤمنين فيه الرحمة وظاهر فيه العذاب لأعداء دين الله . كذاك السور الذي يضرب يوم القيامة بين المنافقين والمؤمنين ، يوم يحشرون جميعاً إلى الله العليّ القدير :

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ } (1) .

عمياء هي علوم الحضارة الزنديقة ، وفي أحسن حالاتها هي عشواء أو قصيرة النظر . إذ أن علماءها لا يفكرون بقيام الساعة على أنها بأمر إلهي ، وأنه سبحانه وتعالى جعلها حشراً للعالمين لحسابهم وبعدها إما إلى جنة وإما إلى نار .

علماء الحضارة ، حتى ولو استشعروا نهاية العالم ، فهم يقفون عند هذه النهاية ، وقوفاً فيه من البله والغباء ما يبعث على الدهشة ، لا سيّما إذا استعرض الإنسان نسبة وصولهم العلمي والتربوي والإقتصادي والسياسي والصحيّ والإنساني ، إلا أن العاقل بعد التحقيق والتدقيق ، والنظر إلى هذه العناوين بنور الله تبارك وتعالى ، يجد أنها عناوين فارغة ، فالعلم عندهم والتربية والاقتصاد والسياسة والصحة والإنسانية والفنون ، وكل شأن حياتي من شؤونهم ، إنما هي أمور يوجهونها أفقياً ، فتأخذ خط الانحناء الذي يؤدي بالضرورة عندنا إلى الهاوية :

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارٌ حَامِيَةٌ } (2) .

فمثلاً هم يقولون إن الغيوم الحرارية هذه ، ناتجة عن تزايد ثاني أكسيد الكربون ، المتصاعد من احتراق الزيوت وجملة أنواع الإحتراق في المصانع والسيارات . وكذلك تزايد قطع الأشجار في الغابات ، وكذلك تزايد

(1) سورة الحديد ، الآية 13 .

(2) سورة القارعة ، الآيات (10 . 11) .

السكان في الأرض ، ممّا ينتج زيادة في التنفس ، وهم يبذلون جهوداً كبرى في هذه الأيام ، للخلاص بأية وسيلة من مداخن المصانع التي تلوث البيئة ، حيث توجد ، وتلحق الأضرار الفادحة ، بالإنسان والحيوان والنبات .

وهكذا يسهبون في ذكر الأسباب ، وتستغرق تقاريرهم ومؤتمراتهم ساعات طويلاً ، وأياماً وشهوراً من الدراسات . ومع كلّ ذلك ، وخلال كلّ ذلك لا تجد في تقاريرهم ، ولا مؤتمراتهم ، ولا عبقرياتهم أثراً للاعتقاد بحاكمية الله ، وبوجوب الخشية من الله ، وبوجوب إلتهام تعاليمه ، لكي يرفع هو سبحانه العذاب النازل ، والنذير المائل أمامهم مثل السيف الذي بعرض الآفاق على الأعناق .

وخلاصة موقفهم أنهم أخذوا بالعلم منقطعاً عن الله وعن دين الله . وذلك قول الله تبارك وتعالى فيهم ، وفي أمثالهم من الماضين والباقيين ، في جميع الملل والمجتمعات والحضارات ، حيث تكون مفاجأتهم بقيام الساعة ولات ساعة مندم :

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } (1) .

كان لزاماً عليهم أن يقيدوا العلم بما أنزل الله ، فاكتفوا بالعلم فرحين به مزهوين ، وطرحوا ما أنزل الله عزّ شأنه .

ذلك أيضاً قوله تعالى فيهم وبأمثالهم :

{ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } (2) .

(1) سورة الأنعام ، الآية 44 .

(2) سورة غافر ، الآيات (84 . 83) .

الإنشقاق ... مائل في السماء :

والانشقاق في السماء ، هو من الأشرطة الكبيرة ، للقيامة الكبرى ، وهو في قول الله تعالى في سورة (الانشقاق) التي سميت باسمه لأهميته :

{ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } (1) .
إلى أن يقول سبحانه جواباً للشرط .
{ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ } .

وذلك يعني يوم القيامة ، أو الساعة ، أو يوم الحساب . وكل ذلك بمعنى واحد .
ومعظم الأشرطة التي في القرآن الكريم ، والتي نحن في مواجهتها في عصرنا هذا ، تبدأ صغيرة ، ثم تتدرج في الكبر أو الاتساع ، حتى تبلغ أوجاً لها يعلمه الله سبحانه ، تكون مباغطة الساعة رهناً به ، أي بهذا الأوج ، وطبيعي أن لا يكون اقتران المباغطة ببلوغ أوج واحد من الأشرطة ، وإنما أن تتساق الأشرطة وتتواكب ، كما ألمحنا من قبل ، حتى يبلغ كل شرط أوجه الذي قدره الله له ، فتكون عندئذ الصيحة والعياذ بالله وحده لا شريك له :
{ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ... } (2) .

أما إن هذا الانشقاق هو مائل اليوم في السماء ، فهو الخبر الذي أيضاً ، يهز العلماء والمتتبعين للتغيرات العجيبة ، هزاً عنيفاً ، زاد من حدته ، كونه هو والغيوم الحاررية يشتركان في كثير من وظائفهما وتأثيراتهما .

فكما أن الغيوم الحاررية (الكسف) تعجل بإذابة الجليد والثلوج في أنحاء الأرض ، كذلك هذا الانشقاق الذي حصل في طبقة الأوزون ، والذي

(1) سورة الانشقاق ، الآيات (5.1) .

(2) سورة محمد ، الآية 18 .

هزّت أخباره العلماء من أقاصي المغرب إلى أقاصي المشرق .

ومما يزيد من خطره . حسب تقارير العلماء . هو كونه فوق القطب الجنوبي مباشرة ، أي فوق القارة الجليدية ، التي كانت منسيةً نسبياً ، حتى ظهر هذا الانشقاق أو الانفطار ، أو الفتحة أو الثغرة ، في طبقة الأوزون ، فوقها تماماً ، وهي القارة التي يعني ذوبانها تهديداً مباشراً لمعظم أنحاء الأرض .

فما هو الأوزون ، ولماذا الخوف من انشقاقه ؟

الأوزون بمفاهيمنا الإسلامية ، هو سماء ، هو السماء المباشرة لنا ، لأرضنا هذه الدنيا ، وهو بمفهوم العلماء ، طبقة في الأجواء العليا ، من شأنها تغليف الأرض ، تغليفاً كاملاً ، للحيلولة دون تسرب أشعة الشمس بشكل عمودي ومباشر ، وبتعبير آخر ، من وظائفه كسر الأشعة الشمسية وتصفيتها وعزل الضار منها للأرض ولأهل الأرض ، وبتعبير أكثر إيجازاً ، هو ميزان بحفظ الأرض وأجواءها وجليد قطبيها ، من كل إخلال بنظام حياتها الطيبة والمباركة التي هكذا شاءها لها ربها الحليم الكريم والرحمن الرحيم مذ خلقها : قوله تعالى :

{ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }⁽¹⁾ .

وعن الأرض قوله سبحانه :

{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ }⁽²⁾ .

والدليل القرآني على أن هذه الفرجة في السماء هي جديدة ، قوله تعالى :

(1) سورة الرحمن ، الآية 7 .

(2) سورة فصلت ، الآية 10 .

{ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } (1)

وهكذا تأتي الأشراف وكأنها إخلالات بالطبيعة في الأرض وفي السماء : تغيير في بعض المعالم الكبرى ، أو تحويل في بعض الثوابت ، أو هدم لبعض الأنظمة الكونية ، بطرق وأساليب تصدم وتهمز وتخيف ، وبالنتيجة تكون هي النذر التي تسبق القيامة الكونية ، فتكون رحمةً للمؤمنين بالله وبالساعة والحساب ، حيث يستعدون ، ويتعظون ، ويزدادون إيماناً وتصديقاً ، وتكون وبالاً على الكافرين بالله أو بالساعة ، أو بالحساب ، وكذلك على المشركين والمنافقين والمرتابين بالله وبكتاب الله ، وبوعده ووعيده عز شأنه وجلت قدرته . قوله تعالى :

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ } (2) .

وينبغي أن تلاحظ أن هذه الأشراف ، إضافةً إلى كونها يواكب بعضها بعضاً ، فكأنما هي تحركت جميعها في زمن واحد ، وطبعاً إلى غاية واحدة ، هي تلبية أمر الله تبارك وتعالى الذي هو بالعه :

{ .. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (3) .

{ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } هندسة وحساباً في الزمان والمكان والأحجام والعلاقات بين خلقه :

{ .. وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } (4) .

(1) سورة ق ، الآية 6 . (2) سورة الأنعام ، الآية 158 .

(3) سورة الطلاق ، الآية 3 . (4) سورة يونس ، الآية 61 .

وكذلك ينبغي أن نلاحظ أمراً آخر هو بغاية الأهمية للمراقب الحريص على تتبع آيات الله في كتابه العظيمين : القرآن الكريم والكون العظيم ، هذا الأمر ، هو كون الأشراف يساعد بعضها بعضاً ويساند بعضها بعضاً ويرفد بعضها بعضاً ، تستقطبها قوانين ونواميس ، صحيح أن العلم أدرك منها الكثير بإذن رب العالمين ، إلا أن أكثرها لم يدركه العلم بعد ولن يدركه . من ذلك ، الإنشقاق في الأوزون الذي يتواءم مع الغيوم الحرارية والأوزون والغيوم الحرارية يتواءمان في إذابة الجليد وتسجير البحار أي ملئها ، والأرض بتخليها عن النفط في داخلها تساهم في تسجير البحار أي اشتعالها ، وهما أي الملء والاشتعال ، معنى قوله تعالى :

{ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } (1) .

وكذلك هذه في أشراف الساعة .

وقبل أن نتقل إلى أهم وأبرز الأشراف ، نعود إلى الآيات التي ذكرنا من سورة (الإنشقاق) لنذكر معانيها ، ولا قوة إلا بالله الحبيب .

فمجملة القول في الآيات الخمس الأولى من السورة المباركة والتي أولها { إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ } أن هذا الأمر العظيم وقع ، وأن بداية هذا الإنشقاق ، هي الثغرة الحاصلة في طبقة الأوزون في القطب الجنوبي { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } { أَذِنَتْ : أصبحت أذنًا صاغية تتلقى الأوامر التي تحقق الأشراف الكونية للساعة ، وهذا أمر بدأ منذ بداية الإنشقاق ومنذ اكتشاف الغيوم الحرارية ونتائجها { وَحُقَّتْ } أصبحت كالحق بضم الحاء . وهو إناء مستدير يوضع عادةً فيه الطيب . { وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ } بالعدّة والعدد ، مثل ذلك قوله تعالى :

{ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا مُنِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . . . } (2) .

{ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ } .

(1) سورة التكوير ، الآية 6 .

(2) سورة المؤمنون ، الآية 55 .

وألقت ما فيها من النفط وتخلت أفرغت . ومعنى ذلك اكتمال الآية ووصول هذا الشرط إلى الأوج .

ولا يغيب عن بالنا ، أنه للأهمية البالغة لشرط الإنشقاق هذا ، فقد سميت في القرآن سورتان باسمه ، هما سورة الإنشقاق وسورة الإنفطار ، وهما كما هو معلوم ، بمعنى واحد ، وسنمر إن شاء الله تعالى على الأشراف التي في (الإنفطار) عند تعرضنا لأهم الأشراف الباقية .

* * *

تكوير الشمس وانكدار النجوم شرطان ماثلان في الفلك :

لكي نفهم المعنى المراد من قوله تعالى في سورة التكوير { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } ينبغي أن نُدرِك أولاً أن كلمة (الشمس) هنا ، هي إسم جنس وثانياً أن هذه الكلمة حيثما وردت في القرآن فهي تارةً اسم جنس يشمل كلّ الأجرام التي هي من جنسها ، وفي الكون منها المليارات ، وتارةً تعني اسم العلم الذي يعين شمسنا هذه المختصة بأرضنا . وعلى المرء أن يميّز بين الأمرين بالقرينة ، هذا بالنسبة لظاهر الألفاظ ، على أن لكلمة (الشمس) معاني أُخر تدخل في معاني الباطن والتأويل ، قلّما نحتاج إليها في بحثنا لأشراط الساعة في الظواهر الكونية .

ولأن كثرة الأجرام التي هي مثل شمسنا ، وأكبر منها . سنخاً وحجماً . بملايين المرات ، ولأن هذه الأجرام اكتشفت حديثاً ، في بدايات هذا القرن العشرين الميلادي ، الخامس عشر الهجري ، لذلك بقي العلماء ومعهم الناس ، يفهمون من حقيقة (الشمس) فقط هذه التي نراها بالعين المجردة والتي تقود مجموعتنا الكوكبية إلى حيث لا يعلم إلا الله . ومن البديهي أن يكون كذلك مفسرو القرآن الكريم ، حيث إننا وجدناهم يتعاملون مع هذه اللفظة ، حسب المعطيات العلمية المعاصرة لهم .

وما قلناه في الشمس ، نقوله أيضاً في القمر والأرض ، فقد أصبح

من الثابت أن للمشتري خمسة عشر قمراً ومثلها للمريخ وكذلك أقل أو أكثر لكواكب أخرى .

وهكذا كان تعامل المفسرين مع الشمس والقمر والنجوم في كتب التفسير ، على أن الشمس والقمر مفردان ، وأن الشمس هي أصغر من الأرض حجماً ، وكذلك النجوم عامةً . نرى ذلك في جميع كتب التفسير دون استثناء فكانت المشكلة ليست مشكلة القرآن ، كما ذكرنا في بحث سابق من هذا الكتاب ، وإنما هي مشكلة المفسرين ، والقصور العلمي في كتابي الله العظيمين : الكون والقرآن .

وكما هو معلوم ، أنه من هفوات المفسرين وأكثر المشتغلين في التراث الديني ، أخذهم عن السلف ، وليس هذا فحسب ، وإنما كذلك تقديسهم لما ترك السلف ، أو حتى لما يظن أنه مما ترك السلف ، في وقت يكون بعض ما ترك السلف من المدسوسات الشيطانية فيحصل الإرباك ، وتتعدد الأمور ، فقط لأنهم لم يحسنوا التعامل مع قوله تعالى :

{ .. قالوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } (1) .

إذ ينبغي التحقق ، والتيقن ، تحت طائلة المسؤولية البالغة الأهمية ، والحساب الشديد ، إذ أن الأمر يتجاوز ظلم النفس ، وهو أمر محدود ، إلى ظلم الآخرين وهؤلاء الآخرون قد يكونون الأمة بأسرها وقد تكون البشرية المبلغة كلها .

ومن الأمثلة السريعة والموجزة على ذلك ، والتي ما زلنا نقرأها في بعض كتب التفسير المحترمة ، وذلك في تفسير سورة التكوير : أن الشمس تسقط في البحر . طبعاً يعني البحر الذي في أرضنا هذه . { وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } كذلك الأمر تسقط في البحر أو المحيط . ومثلاً آخر عن الأشراف عند المفسرين ، وفي نفس سورة التكوير ،

(1) سورة الزخرف ، الآية 23 .

مما أربك الكثيرين ، وبعث بعضهم على احتمالات هجينه ، لا يقبلها من له أدنى حظ من العربية ، هذه اللغة الجميلة والفصيحة والتي باركها الله سبحانه بأن أنزل بها هذا القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذا الشرط هو قوله تعالى :

{ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ } (1) .

لن أذكر هنا إلا قولاً واحداً ، أحترمه رغم الخطأ البين الذي ثبت فيه ، أحترمه فقط لأنه لم يتجاوز مفهوم اللغة في { الْعِشَار } المفهوم المتداول والمتناقل في لغة العرب ، وتراث العرب ، وشعر العرب ، وكتاب الله المجيد . بهذه اللغة نزل وما زال وسيبقى إلى قيام الساعة .

{ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (2) .

ومعنى العشار في لغة العرب ، وكذلك وبالضرورة في القرآن الكريم ، النياق ، ثم يسمّى الكلّ باسم الجزء ، فيعني ذلك الإبل ، وهذا القول الذي نحترمه مفاده أن العشار يذهل أهلها عن رعيها عند قيام الساعة ، لانشغالهم عنها بأهوال القيامة . وقد كان هذا القول معقولاً ، حين كانت العشار هي أموال الناس ، أما وأنها قد نفدت عن وجه الأرض أو كادت ، فقد بات واضحاً الخطأ في هذا التفسير ، الذي . وللأسف . ما زال يتناقله ويصرّ عليه بعض المحدثين . والرّدّ البسيط على ذلك آتٍ مما تراه العين ، ويعرف بالبدية . وبعد أن كانت البدن وهي من شعائر الله ، وأكثرها من العشار ، أصبح من المستصعبات أن يحصل المرء على بدنة ليضحيتها يوم النحر ، بعد أن كانت تضحى بالألوف في موسم الحج .

وقد ذكر أنه يوم الحج الأكبر ، الذي حجّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، اقتاد عن نفسه فقط ستين بدنة ، ثم التقى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، قافلاً من اليمن ، موافياً إياه إلى مكة المكرمة ، فأضاف إليها أربعين بدنة لا غير ، تأدّباً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وكان جيشه يسوق منها

(1) سورة التكوير ، الآية 4 .

(2) سورة الزخرف ، الآية 3 .

الألوف من إبل الزكاة . فبلغ مجموع ما نحراه وحدهما مائة ناقة . هذا غير الذي كان يسوقه
ألوف الحجيج من المسلمين في ذلك العام وفي كل عام :

{ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا
صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. } (1) .

وشعائر الله بركات من الله على الناس في الأرض . ومن هذه الشعائر { الْعِشَارُ } وقد
عطلت ، أو كادت . فقد أصبح جلياً وواضحاً أن قوله تعالى : { وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ } هو
من الأشرطة الماثلة أيضاً ، حيث أن هذا المال الذي هو العشار ، قد عطل عن التثمين
والإنجاب والإنتاج عامةً ، لولا بضع مئات هنا وهناك في أنحاء الأرض ، وهو ، أي هذا الشرط
، بالغ غايته ، بعد أن تجاوز بدايته .

{ .. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } (2) .

{ .. إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (3) .

والآن بات حرياً بنا الرجوع إلى العنوان { تكوير الشمس وانكدار النجوم } وهما
الآيتان الأوليان في سورة التكوير المباركة . منوهين تنويهاً سريعاً بما بعدهما من آيات ، ما دمنا
سنحصل على الفائدة بحمد الله ، من عرضنا للأشرطة الكبيرة . قال الله تعالى :

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا
الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ .
وَإِذَا النُّفُوسُ

(1) سورة الحج ، الآية 36 .

(2) سورة هود ، الآية 12 .

(3) سورة الطلاق ، الآية 3 .

زُوجَتْ . وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا
السَّمَاءُ كُشِطَتْ } (1) .

تبدأ القيامة الكونية الكبرى .

ونحن إذا استعرضنا أبرز ثلاث سور مباركات : (الإنشقاق) و (الإنفطار) و (التكوير) نجدها الأكثر حشداً لأشراط الساعة من بقية السور القرآنية المباركة . ثم إذا قارنا هذه السور الثلاث فيما بينها ، نجد سورة التكوير أكثرها تفصيلاً كما هو ظاهر ، ونجد سورة الإنفطار أكثرها إيجازاً ، فهي تختصر الأشراط في ثلاث آيات ، قوله تعالى :

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ .
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ } (2) .

ثم تكون بعثرة القبور ، أي القيامة الكبرى .

ولذلك سنتشرف أولاً بما يفتح علينا سبحانه ، من تفصيل لأشراط (سورة التكوير)
قوله تعالى :

{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } .

ومعنى (كُوِّرَتْ) كما جمعناه من مختلف التفاسير ، ولسان العرب ، هو : كورت :
جمعت كالعمامة . لقت وجمعت وألقت . لقت فرفعت وطوي ضوءها المنبسط وألقت .
وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يتعوذ من الحور بعد الكور (بفتح الحاء والكاف)
أي من النقصان بعد الزيادة وهو من تكوير العمامة . انتهى .

وواضح أن جميع هذه المعاني لا تناسب شمسنا هذه المفردة . وإذا انطبق عليها معنى
اللف والجمع باعتبار حركتها ودورانها حول نفسها ، فتلك حركة قديمة رافقتها منذ خلقتها كما
رافقت جميع الأجرام السماوية وهي ما

(1) سورة التكوير ، الآيات (11.1) .

(2) سورة الإنفطار ، الآيات (3.1) .

يسمى بالحركة المغزلية ، فلا يناسبها ، في الآية الكريمة ، الحرف { إذا } الذي يتضمن معنى الشرط .

ثم إن بقية المعاني ، مثل : ألقيت . ورفعت وطوي ضوءها المنبسط وألقيت ، كذلك تتنافى مع الحقائق القرآنية لأوصاف يوم القيامة . إذ أن أي واحد من هذه المعاني إذا أطبق على شمسنا هذه ، اضطرب نظام مجموعتنا الكوكبية كله ، ودمر ودمرت أرضنا معه . والآية هي شرط من أشراط القيامة ، وليست القيامة عينها . والأشراط وضعت تنبيهاً إلى يوم القيامة كما ذكرنا ، وأنها ، أي القيامة تأتي بغتةً ، وأكثر من ذلك ، أنها تأتي والسماء في عافية نسبية ، وكذلك الأرض وأهل الأرض : وهذه الحقيقة مستفادة من قوله تعالى :

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ }⁽¹⁾ .

تبقى واحدة ، ربما خطرت في بعض الأذهان ، هي تصور أن يحصل في الشمس فجوة كما الفجوة التي في العمامة ، فنقول أن هذا أيضاً فكر بدائي ، يتبدى قصوره عند من له أدنى معلومات عن حجم الشمس ، وأبعادها ومقاييسها ، ووظيفتها في ناموس التجاذب ، إذ أن الفجوة المتصورة لها كما في العمامة ، فيما لو حصلت ، كذلك يترتب عليها اختلال النظام أو دماره في مجموعتنا الكوكبية كلها .

فماذا يعني إذن ، قوله سبحانه { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } بعد أن بات مستحيلاً تطبيقه ، وحتى ارتقابه على شمسنا هذه المفردة ؟

هنا نعود إلى لغة اسم الجنس في الشمس ، وهي في مجرتنا درب التبانة بأعداد هائلة ، ونعود فنذكر ، أن الكلمات التي تحمل معنى الفرد

(1) سورة يس ، الآيات (48 . 51) .

ومعنى الجمع في نفس اللفظة هي كثيرة ، فمثلاً كلمة { الإنسان } هي من هذا القبيل ، تارةً نعي بها الفرد من الناس ، وتارةً نعي بها مجموع البشرية ، وكذلك كلمة { بشر } إنما أنت بشر ، وإنما هم بشر ، وكذلك ، كما ذكرنا قبلاً ، الأرض والقمر ...

على أن الدليل الأقوى والبرهان الأسطع ، هو في مقارنة قوله سبحانه :

{ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } (1) .

بقوله تبارك وتعالى :

{ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ } (2) .

فنفهم أن الشمس والقمر لن يجتمعا . وإنما المراد (بجمع الشمس والقمر) هو أن يجمعهما الناس لفظاً قاصدين بكلمة الشمس كلّ شمس في الكون ، وبلطفة القمر ، كلّ قمر ، وما عرف ذلك إلا في هذا القرن ، الذي نعيشه ، فجعل الله سبحانه إطلاعه الناس على هذه الحقيقة ، شرطاً من أشرطة الساعة .

ثم نقول في " برق البصر " إننا نتفق مع اللغويين على معناه ، وهو حالة من الخوف والحيرة والدهشة ، وهو كذلك أمر حاصل هذه الأيام عند أكثر الناس ، يطرد ويتزايد كلما سمعوا خبراً بعد خبر ، سواء عن الأوزون وفتحته ، أو عن الغيوم الحرارية وفاعليتها ، أو عن الحروب الإقليمية ، من كان في وقودها ، أو من يصطلي بناها ، أو من تحلّ القارعة قريباً من دارهم . وأكثر أسئلتهم ، ممّا ينطقون به ، وما يتلجلج في صدورهم : كيف ولماذا ، وماذا ومتى ، إلى أين ومن أين ... ويزرق البصر مع كل سؤال حيرةً ودهشاً .

والقول في (خسف القمر) : أما ادعاء خسوفه العادي ، فهو من بدء

(1) سورة القيامة ، الآيات (9.7) .

(2) سورة يس ، الآية 40 .

الخليقة ، يخسف كل عام تقريباً . فلا يليق بعامل أن يعتبر ذلك شرطاً من أشرطة الساعة . ولا

هو الإنشقاق ، في قوله تعالى :

{ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } (1) .

فهذا أمر حصل كذلك في خريف السنة 1989 م ، وشوهد ذلك في عدة مناطق من العالم ، وصوّر الحدث في الأرجنتين ، في مناسبة دينية مسيحية ، قيل فيه يومذاك أنه المسيح عليه السلام ، وقيل أنها العذراء مريم عليها السلام . وقد علّق على ذلك كثرة من الناس ، كلّ حسب ما يتصوّر ربطاً بما يعتقد . إلا أن الحقيقة الباهرة ، هي التي رآها وفهمها بفضل من الله ، بعض أهل العرفان من أولياء الله ، ممّن هداهم سبحانه واصطفاهم (وقد صوّر الحدث في عدة لقطات صورتها الصحف العالمية) .

والقول لغة في (خسف) أن الخسف هو الغياب في الأرض ، وهو الإتهام : { وَخَسَفْنَا بِنَارِهِ الْأَرْضَ } ، وهو ذهاب الضوء بمعنى الخسوف الكلي العادي للقمر . وهذه المعاني استبعدناها كلّها ، لاستحالتها أن تكون مجتمعة أو منفردة شرطاً من أشراط الساعة . فيبقى المعنى الأخير من معاني الكلمة (خسف) ، وهو أن الخسف هو الإذلال . وفي حديث علي عليه السلام : من ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الدّلة وسيم الخسف ... وفي معنى سيم : ألزم ، وفي معنى الخسف : الهوان . فأصبح عندنا في معاني (الخسف) أنه الذلّ والهوان . أو الإذلال والهوان . انتهى . (من لسان العرب . ابن منظور) .

وهكذا يكون قولنا الفصل بإذنه تعالى ، في هذا الشرط من أشراط الساعة (وخسف القمر) . أي إذا ألحق بالقمر الذلّ والهوان ، أو الإذلال والهوان ، يكون شرط من أشراط الساعة .

وقد حصل ذلك في سبعينات هذا القرن ، فبعد علوّ ومنعة وعزّة ، وهيبة وجمال ، هذه الصفات الكريمة التي كانت للقمر ، وطأه الإنسان ،

(1) سورة القمر ، الآية 1 .

واحتلّه فأذله ، وأظهر تُرَابِيَّتَهُ بعد أن ظلّ آماداً طويلاً مهيباً بنورانيته ، وغريب أسراره ، فألحق به الهوان ، (وخسف القمر) وصدق الله الحبيب العظيم .

والآن بعد أن ألقينا أضواءً حول شَرْطِيَّ (التكوير والإنكدار) بمساندة أشراف أخرى
كان من الضروري أيضاً إبرازها ، بات حرياً بنا الرجوع . ولو مراراً . إلى قول الله عزَّ شأنه :
{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } (1) .

وبعدما قلناه في معنى (كُوِّرَتْ) نقول ما تقوله اللغة أيضاً في معنى انكدرت ، وهو أن
الإنكدار ، هو الإنقضاض والسقوط .

فإذا كنّا نتوقَّع من قوله تعالى { وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } أن تسقط على الأرض
وتنقض على أهلها ، فإن الأرض كلّها لا تتسع لأصغر نجم في الكون ، فكيف والآيات تعني
جميع النجوم والكواكب . انكداراً وانتشاراً . علماً أن من النجوم ما يزيد عن شمسنا (90) تسعين
مليون مرة (هو قلب العقرب) وعلماً أن شمسنا تكبر أرضنا بـ 333,430 مرة .

وهذا يكفي للقول أن تصوّر إنكدار النجوم أو سقوطها باتجاه الأرض ، هو أيضاً
مستحيل ، ومضحك حتى للأطفال في الصفوف الابتدائية .

فإذا كان معنى الإنكدار هو السقوط أو الإنقضاض وقد وافقنا على ذلك لأنها اللغة ،
فذلك يعني بالضرورة السقوط والإنقضاض في شتى الإتجاهات في الكون ، وبعيداً عن أرضنا
هذه . بهذا المعنى فقط تكون الآية { وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } شرطاً من أشراف الساعة .

والإنكدار والانتشار هما أمران ماثلان أيضاً . أي ما عنته الآية الكريمة { وَإِذَا النُّجُومُ
انْكَدَرَتْ } وهو نفس المراد بقوله تعالى { وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَشَرَتْ } (2) .

(1) سورة التكوير ، الآيات (2.1) . سورة الإنفطار ، الآية 2 .

وأخيراً ، وبعد هذا التمهيد والتحقيق في ما مرَّ بنا من آيات وأشراف ، أصبح واجباً
اعتماد الكشوف العلمية التي أرادها الله سبحانه وأوياً لآياته والأشراف التي قرَّرها لقيام الساعة
. والتي هي مترابطة بين كتابيه العظيمين : القرآن والكون .

فماذا في العلم المحقق اليوم عبر التلسكوبات العملاقة؟ وأقول ، العلم المحقق ، لأن فيه القول الفصل ، (كما الصعود على القمر) ، تمييزاً له ، عن العلم النظري الذي ليس له صفة الحسم .

وسنحصر الكلام بما يكون مصاديق لقوله تعالى : { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } وقوله تعالى : { وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَشَرَتْ } :

جاء في " كتاب المعرفة . الأرض والكون " الصادر عن جنيف . سويسرا ، ما يلي : [إذن ، فقد غيرت تلك النجوم مواقعها . وإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لبعض منها ، فلا بد أنه صحيح كذلك بالنسبة للباقي ، وكذلك بالنسبة للشمس . وهنا بطل الاعتقاد بأن الشمس هي مركز الكون ، ولم تعد سوى مجرد نجم من بين ملايين النجوم الأخرى] ص 116 .
وتحت عنوان سباق مذهل :

[إن الاعتقاد اليوم هو أن الفضاء الكوني مليء بأعداد كبيرة من المجرات ، وهي مجموعات من ملايين النجوم تتباعد عن بعضها بعضاً بسرعة مذهلة . ومجموعتنا الشمسية تكون جزءاً من المجرة المعروفة بالطريق اللبني (سكة درب التبانة) والتي تشمل مئات الملايين من المجموعات الشمسية الأخرى المشابهة] .

وعلى هذا الأساس ، كل نجم في العرف العلمي هو شمس ، وكل شمس هي نجم . وعلى هذا الأساس أيضاً ، وهو قولهم [هي مجموعات من ملايين النجوم تتباعد عن بعضها بعضاً بسرعة مذهلة] . إنه الإنكدار في قوله تعالى :

{ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } والذي يعني الإنثار كذلك في قوله تعالى : { وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَشَرَتْ } .

ثم أين (التكوير) من ذلك كله ؟

في نفس هذا الكتاب المنوه عنه ، وفي الصفحة 111 جاء ما يلي :

[وتلّف المجرة وتدور حول نفسها بمعدل قدره 140 ميلاً في الثانية ... ولسوف يصيبك الدوار إذا أقدمت على التفكير في كلّ الإتجاهات المختلفة التي تدور فيها وتلّف في

وقت واحد] .

المجرات مجاميع شمس بالمليارات ، هكذا يؤكد العلم برؤيا العين ، وبالارقام التي لا تكذب ، لأن الله عز شأنه علمها للإنسان ، وعلمه معها صناعة الوسيلة ، وبها أصدده إلى القمر وعليه أهبطه .

والسؤال ، لماذا مليارات الشمس هذه ، تغطش في ليل بهيم ، حتى لا يرى منها إلا بصيص النور ، بينما العوالم التي حولها أنصافها في ليل ذاتي وأنصافها في نهار ذاتي فمن أين الليل الذي يلف الجميع ثم بعده يلبس الجميع حلة النهار ، فمن أين النهار ؟

{ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (1) .

فإذن تلف المجرة وتدور .

فإذن ملايين المجاميع الشمسية ، تلف وتدور . وفيها ما هو بحجم شمسنا ، وما هو أكبر منها بملايين المرات .

وإذن ليست هي شمس واحدة في ما عناه الله سبحانه في قوله : { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } وإنه سبحانه لا يمكن أن يكون عني شمسنا هذه ، عندما جعل الآية شرطاً من شروط الساعة . لأنه يستحيل كما أسلفنا أن تكون

(1) سورة النور ، الآية 35 .

بمفردها موضوعاً لهذا الشرط الكبير .

وإذن { الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } و { النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } .

وإذن { الْجِبَالُ سَيَّرَتْ } الجبال الثلجية تقتلع وتسير في البحار ، ومن أوصافها في

كتاب الله تعالى { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ } أي القطن وأصله البياض في اللون .

وَإِذْ { الْعِشَارُ عُطِّلَتْ } بعد أن كانت أنفَس المال المتداول بين الناس فقد عطلت تربيتها وعطل استعمالها . لولا بضع مئات في أقطار الأرض ، تدل على أن الآية لم تبلغ بعد أوجها .

وَإِذْ { الْوُحُوشُ حُشِرَتْ } وهو أمر طبيعي ، حيث هيمن الإنسان على بقاع الأرض ، استكشافاً واستثماراً ، واستعماراً ، وحروراً ، وقطع غابات ، هذا تفسيراً ، وأما تأويلاً ، فالوحوش الشيطانية حشرت ، وكذلك الوحوش البشرية تحشر حالياً في أماكن ، لتدور عليها رحى الحرب العامة القادمة ، وينجي الذين آمنوا ، قوله تعالى :

{ .. حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ }⁽¹⁾ .

وَإِذْ { الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } بين احتراق وتفجيرات جزئية في بداية القرن نتيجة للتجارب النووية ، ثم حرق مواكب بحيرات النفط العائمة على مياه البحار نتيجةً لحرب الخليج والتي ستزيد بنسب أعظم في الحرب القادمة ، وكذلك الوجه الآخر لمعنى التسجير، وهو امتلاؤها بالمياه ، وقد بدأ ذلك نتيجةً للغيوم الحرارية وفتحة الأوزون ، اللتان في رأس تأثيراتهما إذابة الجليد في أقطار ، ودفعها أنهاراً وشلالات إلى البحار والمحيطات . وما زالت الأخبار كل يوم تقريباً توافينا ، بإعصار هنا وطوفان هناك ، وغرق ودمار وقتلى هنالك ، ومعظم هذه الأحداث على سواحل البحار .

وَإِذْ { النُّفُوسُ زُوِّجَتْ } وهو أمر غيبي حاصل أيضاً بتزويج النفوس

(1) سورة يونس ، الآية 103 .

العادية بالنفوس الملكوتية كما أشرنا في بحثنا : (الدماغ بين علم العقل وعلم النفس) . وهو أمر بديهي أيضاً . عند أهل العرفان ، عنيت تزويج النفوس بأمر منه سبحانه ، وذلك بعد أن أنهى سبحانه وظيفة الأبالسة (إبليس وقبيله) . وعطل أعمالهم وحشرهم ، حيث يعلم الله ليوم الحساب ، وذلك تحقيقاً لوعده سبحانه لإبليس ، حين طلب من الله جلَّت قدرته تأخير

إلى يوم يبعثون ، فلم يجبه الله عزّ شأنه إلى طلبه ، ولكن أنظره إلى يوم الوقت المعلوم . والوقت المعلوم هو هذا العصر ، الذي تتواكب وتتواءم فيه أشراف القيامة العظمى . وذلك في كتاب الله المجيد ، قوله تعالى :

{ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ } (1)

وتتضح حكمة الله تبارك وتعالى في تزويج النفوس بالنفوس الملكوتية ، بعد تغييب الشيطان وقبيله ، من معرفة وظائف النفوس الملكوتية وحقائقها (راجع : الدماغ بين علم العقل وعلم النفس) .

وإذن { الْمَوَدَّةُ سُئِلَتْ } في إحدى القراءات ، قرأها الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام : المودة وليست الموؤدة . وهي قتل علي والحسن والحسين ومن قُتل من أهل بيت النبوة الميمونة ، التي جعلها الله رحمة للعالمين ، وحيث أمر الله الحبيب رسوله . الأعظم صلوات الله عليه وعلى آله بقوله :

{ .. قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. } (2)

فهذه المودة ، قتلها أقوام وأقوام ، وبقي المخلصون لها طاعة لله تبارك وتعالى يسألونها في ربح من الزمان همساً ، ثم وسّع الله عليهم فأخذوا يسألونها جهاراً ، وعلى المنابر العالمية ، يسألونها بأي ذنب قتلت (بتشديد التاء) .

(1) سورة ص ، الآيات (79 . 81) .

(2) سورة الشورى ، الآية 23 .

وإلاّ إذا كانت القراءة (الموؤدة) فلا يجوز أن تكون شرطاً ، إذ الشرط يتقدم الساعة ، لا يتأخر عنها . ومساءلة الموؤدة ، إنما بالبديهة تكون بعد قيام الساعة والوقوف للحساب :

{ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُونَ } (1)

هذا إذا كانت الموؤدة ستسأل . وإنما الحقيقة المسؤول سيكون الوائد والظالم وكل مجرم عما أجرم .

وَإِذْ { الصُّحُفُ نُشِرَتْ } وفي وجه من وجوهه أنه عمل فريق من الملائكة عليهم

السلام ، قول الله تبارك وتعالى :

{ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا } (2) .

يؤمنون فيبلغون . وكذلك ما يبلغه أولياء الله تعالى للناس في هذا العصر ، ليكون حجة في أعناقهم ، ومنه هذا الذي نكتب ، وبه نتحدث ، والله ولينا سبحانه ، في نشره وتبليغه ، عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير .

{ .. وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } (3) .

وتبقى آخر آية في أشراط سورة التكوير ، قوله تعالى :

{ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ } .

وهو استكمال شرط الإنشقاق والإنفطار ، وهو انقشاع طبقة الأوزون كلها (*) ، مما يجعل الحياة على الأرض لا تطاق ، أو شبه مستحيلة ، يرفع الله قبلها المؤمنين .

(1) سورة الصافات ، الآية 24 .

(2) سورة المرسلات ، الآية 3 .

(3) سورة الطلاق ، الآية 3 .

(*) بعد طباعة هذه الأوراق ، حملت الصحف وأجهزة الإعلام عامة ، خبرين أحدثا حالة رعب أكثر عند العلماء والمتبعين .

الأول : انشقاق آخر في الأوزون في القطب الشمالي ، سيكون له نفس التأثيرات تقريباً التي ذكرناها عن أوزون القطب الجنوبي .

{ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } (1) .

هذا لعامة المؤمنين .

وقوله تعالى عن جهنم :

{ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ } (2) .

وهذا للسابقين :

{ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ . كِتَابٌ مَّرْقُومٌ .
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ . إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ
نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَحْتَمٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ . وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ } (3) .

صدق الله العلي العظيم .

وهكذا يكون الإنشقاق الكلي المباشر للقيامة العظمى ، وهذا بالضرورة يحصل بغتة ،

لأن القيامة كذلك تأتي بغتة ، قوله تعالى :

{ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ } (4) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

= والثاني : كذلك انشقاق مستطيل فوق أميركا والمحيط الأطلسي وصولاً إلى أوروبا .

وما زالت أخبار التأثيرات السلبية لهذه الإنشقاكات تتوالى من نيوزيلندا وأستراليا وأميركا الجنوبية وبقية المناطق ، من إصابات بسرطان الجلد إلى عمى الخرفان ، إلى تغيرات كبيرة في المناخ والطبيعة ، تنعكس سلباً على جميع الكائنات الحية بشكل لم يعرفه من قبل تاريخ البيئة .

(1) سورة الأنبياء ، الآية 103 . (2) سورة الأنبياء ، الآية 102 .

(3) سورة المطففين ، الآيات (18 - 28) . (4) سورة الحاقة ، (الآيات 15 - 16) .

(17)

لا إله إلا الله بدون توحيد

لا إسلام بدون توحيد

العلم فرصة تعبدية :

لا ننسى أن مهمة العلم . كما يقول العلماء . هي الفحص والكشف عبر أسئلة : ما هذا ؟ وكيف هذا ؟ وماذا ينتج عن ذلك ؟ ثم يقف العلماء خاشعين أمام قول الله عز وجل :
{ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. }⁽¹⁾ .

أما ما يتبادر للذهن من العمليات التي يُجربها العلماء ، من جَمْعٍ وَتَوَلِيدٍ ، وَزَرْعٍ وَاسْتِنْبَاتٍ ، وَفَلْقِ ذَرَاتٍ ... في الكيمياء والفيزياء وشتى الحقول ، فإنها أيضاً بموجب نواميس إلهية ، موجودة في كتاب الله الكوني ، قبل الكشف عنها . وضعها الله بعلمه وحكمته ، حتى يقيض لهذا أو لذلك من عباده كشف أقنعتها في الأوقات المناسبة .

على أن الإنسان عالماً كان أو متعلماً ، هو مسؤول حسب خطره ودرجته أمام الله ، في تعامله مع علمه ونتائجه ، من حيث طاعته لله وفوائده للبشر ، أو إضراره بهم . والإنسان ، إما أن يستقيم في تعامله مع العلم ، وإما أن يطغى ، وقد

(1) سورة لقمان ، الآية 11 .

نهاه الله عز وجل عن أن يطغى . قوله تعالى :

{ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ }⁽¹⁾ .

وأثنى عليه إذا هو قرن علمه بالإيمان والعمل الصالح ، بقوله تعالى :

{ .. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .. }⁽²⁾ .

وقوله عز وجل :

{ .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. }⁽³⁾ .

لذلك ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أعلم الناس بما علمه الله سبحانه كان

يقول :

" أنا أشدكم خشية من الله " .

وهذه المسؤولية الخطيرة ، لا تتوقف عند المشتغلين في المختبرات . والأنايب ، متعاملين مع الكائنات الحية أو المواد الخطرة ، وإنما تشمل أيضاً وبنسبة عالية ، أولئك الباحثين والكتّاب والمنظرين ، في مختلف ميادين الفكر ، ولا سيّما القادة السياسيون ، وقد وضع الله عزّ وجلّ لهم قواعد وضوابط ، إن هم تجاوزوها ، دخلوا في الغواية وأصبحوا في عداد الطواغيت :

{ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ }⁽⁴⁾ .

الميزان الجريح ... بين العنصرية والمجاعة :

من هنا ترى أقبح ما في الحضارة اليوم ، نفاق أسيادها بتبجحاتهم عن العدل والحرية ،

سيّما الدول التي تدّعي الدين والإيمان بالله تحت عنوان

(1) سورة الرحمن ، الآيات (7-8) . (2) سورة الزمر ، الآية 9 .

(3) سورة فاطر ، الآية 28 . (4) سورة الحج ، الآية 8 .

الديمقراطية والتفوق الحضاري ، وهي التي جرحت العدل عميقاً في وجهه ، وأدّمت الحرية ، بإخلالات في فهم الإنسان عجيبة ، منها التمييز العنصري والتمييز الديني والتمييز السياسي ، بتحكم فاجر أرعن إذا استعرضت بعض تفاصيله ، جعلت الدم يغلي في عروق أي إنسان ما زال ضميره بين جنبيه .

وهم يعملون بهذا التمييز تارةً بدون إعلان ، وتارةً بشكل معلن وبموجب قرارات يتزوّنها من هيئة الأمم المتحدة التي أخضعوها بالإرهاب لمشيئتهم . وهنا تتجلّى عظمة الإسلام بمفهومه التطبيقي عن العدالة والحرية . قول الله عزّ وجلّ :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ { (1) .

وقول رسوله محمد صلى الله عليه وآله الذي أصبح قاعدة عفوية في سلوك المسلمين مع أجناس البشر : " لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله ... الحديث ... أو كما قال صلى الله عليه وآله ."

وفي مقابل هذا الإسلام ، باسم الديمقراطية الهجينة العجيبة ، تذبح الأخلاق والقيم الإنسانية وثُهِتَكَ الحقوق ، وتفتعل الفظائع ، فمن إشعال حروب أهلية ، إلى تدمير شعوب مستضعفة وتجويعها وقهر شعوبها شيوخاً وشباباً ونساءً وأطفالاً أبرياء ، إلى وجود مجاعاتٍ حقيقية في الأرض ، على أن كل هذه الموبقات والجرائم التاريخية يمكن تلافيها بأهون السبل ، بشرط بسيط ، هو أن يرجع الكفرة الوحوش ، عن كفرهم ووحشيتهم ، هو أن يوحدوا الله ويخافوه ، إذا كانوا فعلاً يؤمنون به سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

فنظرة إلى الكرة الأرضية اليوم ، تراها قد أصبحت كرية صغيرة ، بعد التقدم التقني في المواصلات السريعة ، وسقوط ما يسمّى بالحدود الطبيعية ، من جبال وبحار ومحيطات ، وأهل الأرض بدوا عليها جيراناً متقاربين، إن لم نقل مجتمعاً إنسانياً واحداً.

(1) سورة الحجرات ، الآية 13 .

ومع ذلك نسمع في الإذاعات ، ونقرأ في الصحف ، وعن ألسن أقطاب الفكر والسياسة ، تصنيفاً لأهل الأرض ، وأكثر ما تتردد ، عبارة (العالم الثالث) كناية عن تأخره في المجال الإقتصادي أو الصناعي أو التقني ، وذلك يوحي بأنه أدنى قيمة ودرجة من العالمين الأول والثاني ، وهي إهانة جدّ مقبولة عند أهل هذا الثالث ... وصلافة جدّ معقولة من سارقي ثرواته ، اللصوص المثقفين بالنفط واليورانيوم .

والأدهى من هذا كلّه ولعلّه الأقبح والأعظم عاراً في جبين عدالتهم ، أن تشاهد في كثير من الليالي ، على شاشات التلفزيون ، وصفحات الجرائد والمجلات إضافة لقهر الشعوب وتجويعها وتخويفها صوراً حيةً ، لشعوب ، بأطفالها ونسائها ، وشيوخها ورجالها ، وهم من شدة الهزال كاهياكل العظمية ... تراهم ، وأيديهم على بطون غرثي ، يتضورون جوعاً ، ويموتون موتاً

بطيئاً ... هكذا ، أمام عينيك ... وأعين سادة الأرض . الذين تراهم على نفس الشاشات
يخطرون بأثواب الرفاه في قصورهم الفخمة وسياراتهم الفارهة ، وطائراتهم العدوانية ... وهم
أيما حلّوا ، يتحدثون عن عدالتهم ، وأنهم حماة العدالة والحرية والديمقراطية في العالم .

الجنون ... أو الجهاد في سبيل الله :

هذا الموت الأسود والموت الأسمر في بلاد الذلّة والإستكانة وبلاد المجاعات ، يقابله في
بلاد الديمقراطية الجائرة ، والحرية العريضة ، انتفاخ بالثروات وإغراق بالرفاه ، وفائض عظيم
عن حاجة المستهلكين . يتجلى بالإنفاق على الحيوانات والطيور الأليفة بما يعادل رفع العوز
عن سكان العالم الثالث قاطبة .

وما لا يمكن أن يصدّقه بشر ، ولكنه الحقيقة المفزعة ، أن هذا الفائض يتلف تحت
عين الشمس ، إما برميّه في البحر وإما بإطعامه للنّار ... هكذا وأفواه الأطفال الجياع فاغرةً
أمام أعين الحكّام الذين يتلفون

الفائض أمام أعين سكان الأرض وملائكة السّماء . وهو أمر أقل ما يقال فيه ، أنه جنون
كافر أو كفر جنوني . ولولا نعمة الإيمان بعدالة الله وانتقامه العاجل والآجل ، وبأن الأرض
محطة قصيرة المدّة ، للجياع والمتخمين في آن واحد ، وبأنه لحكمة يطول شرحها ، ابتلى
هؤلاء بالفقر المضني وابتلى هؤلاء بالثراء الفاحش ، وابتلانا معهم على شتى مستوياتنا :

{..وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ..} (1)

لولا كلّ ذلك ، لكان جنون العقلاء من سلوك أهل الجحيم هؤلاء ، أقرب من إشعال
الثورات ضدّهم . ولكن الحمد لله الذي عافانا من ذلك ، حيث جعل لنا متنفساً شريفاً ،
وجعلنا به شهداء على الناس ، بأن نكون ثوّاراً على الفساد والظلم والإفساد ، وأكرمنا
سبحانه بأن نكون مجاهدين في سبيله ، إرساءً لشريعة العدل ونعمة الحرية ، ودفعاً عن
المستضعفين من عباده ، وحرّباً على أوغاد الأرض ولصوصها وطواغيتها .

لماذا تصدّع المجتمع الإسلامي ؟

العقل، وغذاء العقل، وإمدادات العقل ، مطالب أساسية هي سمة العصر ، والحاجة إليها ، كالحاجة إلى الهواء والماء ورغيف الخبز . والعقل وغذاء العقل وإمدادات العقل، هي في البشرية اليوم، إما ألعام سرطانية، وإما كؤوسٌ نورانية .

وإمدادات الفكر من أين :

في مدرسة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وعلى آله بدأت الدروس هكذا :

{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } .

وفي مدارسنا اليوم ، تبدأ هكذا : الفخر في بلادنا ! ...

مسخوا عقول أبنائنا من الخليج إلى المحيط وبين القطبين ، فمعظم

(1) سورة محمد ، الآية 4 . (2) سورة العلق ، الآية 1 .

مثقفينا الذين هم في أعلى درجات الإختصاص ، يقولون إن الإنسان قرد متطور ، والمجتمع محكوم بالقانون الفرنسي أو الإنكليزي . ثم تنسحب الجهالة بالقرآن الكريم والشريعة الخاتمة، على الفعاليات السياسية والفكرية في شتى الحقول والميادين . ليحل محل هذه الثروة الإلهية ، الفرضيات والبدع والترهات ، ممّا كان السبب في تصدّع المجتمع وضعفه ، وبالتالي تبعيته لمراكز القوى الجاهلية في العالم ، والتي قطبها المتجبر اليوم ، المعسكر الرأسمالي أو الأمبريالي ، متمثلاً بأمريكا وحلفائها ، هذا الحلف السادر في غيّه وطغيانه ، غير مرعو ولا معتبر بسلفه القطب الآخر ، الاتحاد السوفياتي الشيوعي ، الذي مسخه الله مسخاً ومزقه شرّ ممزق .

والآتي على حلف الطواغيت هؤلاء ، أعظم وأدهى :

{.. فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ

اللَّهِ تَحْوِيلًا } (1) .

المطلوب توازن الشخصية الإسلامية :

تبين لنا مما سبق ، أن المسلمين ، أوسع وأعمق علماً من غيرهم من أصحاب الملل ، سماوية وأرضية ، ولكن ما الفائدة ، ونحن نعلم الكثير ولا نعمل ولو بأقله ، وهم يعلمون القليل ، ولكن أعمالهم كثيرة وكبيرة وباهرة .

صحيح أن نقص غير المسلمين لا يعوّض ، حيث أنهم طلبوا الدنيا بالظلم والجشع والمعاصي ، وانحرفوا عن صراط الله ، فباؤوا بغضبه عزّ وجلّ وهم بالنتيجة الأخسرون .
قوله تعالى :

{ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا } (2) .

(1) سورة فاطر ، الآية 43 . (2) سورة مريم ، الآية 75 .

هذا الشرط (لا إسلام بدون توحيد) هو مصدر كل توازن في الشخصية الإسلامية على اختلاف درجات التوازن وجهاته العقلية والنفسية والبدنية ، وبالتالي الفاعلية في كل المجالات .

والتوحيد يعني عبادة الله عزّ وجلّ ، والتوجه إليه ، والتعامل معه سبحانه بكلية مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، وكلية وجوده ، دون شركٍ لا ظاهرٍ ولا خفي ، والشرك الخفي في أيامنا هذه ، هو الأكثر والأدهى وعلى مستويات تبدو عالية .

أما إذا انحرف الإنسان وتنكب الجادة ، يلبس بالعقل الهوى :

{ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. } (1) .

{ .. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ .. } (2) .

عندها تكون الدرب إلى الهاوية :

{ .. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. } (3) .

وحيث أن الأنفس ، تختلف وتتعارض ، ويسوّّل لها ويملي لها ، بتأثير قوى سلبية ، تارةً محسوسة ، وتارةً غير محسوسة ، موجودة بين ظهرانيتها ، تؤثر فيها كما يؤثر جهاز اليد في التلفزيون مغيّراً الموجة والصوت وما إلى ذلك بقوة تنبعث منه وهي غير مرئية . وكما تؤثر الجاذبية في الأشياء دون أن نراها ، كذلك ديبب الشرك الخفي تارةً من النفس الأمّارة ، وتارةً من شياطين الجن والإنس ، وكثيراً ما تتعاون هذه العناصر الثلاثة ، فيكون تحالفها كفيلاً بدمار النفس ودمار صاحبها . وقد أعطانا الله جلّ شأنه ، أسلحةً فتاكَةً ، لاستبعاد هذه القوى ، خفيةً كانت أو مرئيةً ، ومعظم هذه الأسلحة موجودة في القرآن المجيد ، على أن أولها وأساسها فكر التوحيد .

-
- (1) سورة الجاثية ، الآية 23 .
 - (2) سورة النجم ، الآية 23 .
 - (3) سورة الصف ، آية 5 .

وهكذا ، فإن أي ذكر لله تعالى أو لآياته يولّد أيضاً طاقةً غير مرئية ، مضادةً لهذه القوى السلبية ، ومن شأن هذه الطاقة التي يحدثها الذكر ، ذكر الله تعالى وذكر آياته ، أن تحجب وتبعد ، أو تعدم وتبيد ، كل ما يمس باستقامة الإنسان أو يعكر فطرته .
وشرط التوحيد ، يعني فهم أن بيده سبحانه ملكوت كل شيء ، كل شيء ، من أدق الأمور وأبسطها ، إلى أجلّها وأعقدها ، من الذرة وأصغر ، إلى نهاية الأكوان ... إذا كانت لهذه الأكوان نهاية .

فإذا حصل هذا الشرط الذي هو التوحيد كما يرضى الله سبحانه ويحبّ ، فتح هو بحبّه الأبواب ويسرّ الأسباب :

{ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى .. } (1) .

وإذا حصل شرط التوحيد ، فتح بوابة العقل أوسع وأوسع ، على فهم معانيه ، وعلى نورانية تتساقط معها حجب الأسرار والأقنعة ، وشرع الله نوافذ العقل على عظمة النبوة كريادة

، وعظمة الإمامة كقيادة ، وعلى عظمة القرآن بين هذه وتلك ، كمنارة للعالمين ، في بحار الظلمات .

وإذا حصل شرط التوحيد ، مشى المؤمنون أنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيامهم ، فشاهدوا مشاهدة الإيمان والعيان ، ما هو أروع وأسمى فيما ينتظرهم ، وظهرت لهم الأرض الدنيا بحجمها الحقيقي على صغرها وهوانها ، فتخلصوا من غرامها غير آسفين مرددين قوله عز وجل ، عمّا قد يفوت الإنسان أو يأتيه منها :

{ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. } (2) .

لأن الأشهى والأبهى في غير هذه الأرض . وهكذا يؤهل المؤمنون أنفسهم لحب الموت في سبيل الله ، وهذا من دلالات اليقين .

(1) سورة مريم ، الآية 76 .

(2) سورة الحديد ، الآية 23 .

كل ذلك فضلاً عن النار ، وذكرى النار ، ورؤية النار ، نذير الله عز وجل :
{ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } (1) .

وإذا حصل وتكامل شرط التوحيد ، نتج عنه التوازن المطلوب في أروع درجاته ، وأصبح لسان حال المؤمن يردّد مقولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، حيث إنه بعد معركة أبلى فيها كعاداته بلاءً عظيماً ، أتاه صاحبه ضرار ، فوجده قائماً يصلي ، وينشجُ باكياً بين يدي الله ربّه وربّ العالمين جلّت عظمته ، حتى إذا انفتل من صلاته ، أقبل عليه ضرار ، يسأله ما الخبر ، فقال :

(يا ضرار ما عبدت الله تبارك وتعالى خوفاً من ناره ، ولا طمعاً في جنته ، وإنما وجدته أهلاً للعبادة فعبدته . يا ضرار ، والله لو انكشف هذا الغطاء بيني وبين ربي ما ازددت يقيناً) .
وهذه المعاني التي نتحدث عنها في فكر التوحيد ، هي معانٍ بديهيةٌ ميسرة ، مسؤول

عن تحصيلها والتفاعل معها كلّ ذي عقل سويّ ما دام في حكم التكليف .
إلاً أن لفكر التوحيد أسرار ودرجات ومعارج ، يتدرج فيها أهل العرفان ، على أنهم
يجب أن يظلّوا في تهيّب دائم وخوف من الله ، يراقبونه في ذواتهم ، سبحانه وتعالى عمّا يصفون
وحيث إن أسرار التوحيد كثيرة ، وبحثها يقتضي مؤلفاً خاصاً ، فنكتفي هنا بنموذجين
على سبيل المثال : ركن الطهارة وركن الصلاة .
وهنا لن نتعرض إلى ما هو موجود في كتب الفقه ، التي تبحث في ظاهر هذين الركنين ،
فهذا الظاهر يتساوى فيه النبيّ صلى الله عليه وآله والبدويّ

(1) سورة التكاثر ، الآيات (8.5) .

وإنما البحث هو في المعاني والأسرار ، من بداية التوجّه إلى الماء وفهم الغاية، إلى
الوضوء وإدراك النعمة فيه . أو التوجّه إلى التراب وفهم الغاية ، إلى التيمّم وإدراك النعمة فيه ،
إضافةً إلى العناية بطهارة الباطن ، ابتداءً من جوف الإنسان من حيث حفظه عن كلّ محرّم ،
ثم طهارة اليد والنفس عن الغير والغيرية ، والآنية والأنانية .
وهكذا يصير العارف صالحاً للخروج من بيت النفس المظلم ، داخلاً في معراج الصلاة ،
مهجراً إلى رب العالمين ، حتى يصل أمام باب الله ، ويفنى أثناء السجود بفنائهم ، وفجأة يجد
ذاته انتصبت متجاوزة شخصه السّاجد مجتازة الباب لتخرّ من جديد ساجدة حيث سجد
رسول الله صلى الله عليه وآله وحيث يغدو ظلاً نورانياً هو حالة ما بين المحو وبين الصحو . ثم
يلهم للرجوع إلى حياته العادية ، على أنه إذا أصرّ على المتابعة، فقد تكون الصّعقة ، وقد تكون
الهلكة .

فإذا رجع ، دخل في مرحلة (الصحو بعد المحو) ليمارس حياته ، وقد فهم التوحيد،
على أنه لا حلولية الحلاج ومدرسته ، حيث قال : (الله في الجبّة) ولا ليلى وسعاد وغيرهما

من تهوسات ابن الفارض ومدرسته ، سيّما حين لا يكتفي بالتأنيث وتوصيفاته ، من التأوّد إلى العيون والثنايا والطيّف والخيال ، بل يسف إلى أكثر من ذلك ، حيث يقول على سبيل المثال :

منازلها مني الذارع توّسداً وقلبي وطرفي أوّطنت أو تجلّت

وهذا الإنحدار في التصورات المادية ، ينبو عنه حتى الذوق العادي السليم . ناهيك بأصول العقيدة وحقائقها حول ما يتعلق بالذات الإلهية حيث يحرم توصيفها . ونفهم مدى الخطورة في ذلك ، من تحذير لأمير الموحدين ، وإمامهم علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي رفعه فهمه للتوحيد إلى أن يؤاخيّه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا يؤاخي غيره ، وإلى أن يعطيه ربّه عزّ وجلّ أن يكون إمام الموحدين في الدنيا والآخرة .

فلنقرأ بخشوع ومسؤولية ما يقول عليه السلام ، لأن الكلام عن الله تبارك وتعالى :
" وكمال توحيده نفي الصفات عنه ، لدلالة أن الصفة غير الموصوف ، وأن الموصوف غير الصفة ، فمن وصفه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزّأه ... " .
أما ميزان العقول في هذه المسألة ، مسألة التوصيف والصفات ، فهو أمر الله عزّ وجلّ بأن لا يُدعى إلاّ بأسمائه الحسنى ، علماً أنه لم يرد في القرآن الكريم ولا في غيره من مصادر العلم المحققة ، أية إشارة لجواز توصيف ذاته تبارك وتعالى ، سواء كانت الصفات عين الذات أو مغايرة لها ، والآية الكريمة في هذا الصدد ، أفصح وأبلغ من أن تشرح ، قوله عزّ شأنه :
{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا .. } (1) .

وما دام بحثنا في العقل الإسلامي ، وفي التوازن والإتزان في فكر التوحيد ، فمن أين أتى القول بالصفات ، إذا كان منهيّاً عنها بنص صريح من القرآن المجيد لا لبس فيه ولا مجاز ولا كناية ، ولا أدنى إشعار بجواز القول بالصفات ، ولو كان القول بأنها عين الذات . ثم نهي أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وهو أفضل من فهم التوحيد وفهم القرآن بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وآله ، وكلامه على حسمه ووضوحه حجة دامغة يجب أن تسقط معها مجلدات

خاضت خبط عشواء في هذا المعترك ، فالحق أولى أن يتبع ، ولو كان اتباعه سيكلف هدم تراث جذاب أسس على الخطأ شأنه في ذلك شأن كلمة " واجب الوجود " ويعنون بها الله تبارك وتعالى ، وهي كلمة أفرزتها وأخواتها الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وصحيح أنها حلت مشكلة هي أساسية فقط . بالنسبة لهذه الميادين الثلاثة ، ولكنها لم تكن مشكلة بهذا النحو المعقد بالنسبة للعقل الإسلامي خاصة .

(1) سورة الأعراف ، الآية 180 .

لأن العقل الإسلامي الذي تَرَبَّى بين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وبين أدلة القرآن في إثبات أنه لا إله إلا الله ، أعطي منهجية يعجز عن مثلها الإنس والجن مجتمعين ، يقيناً أن هذا العقل ، وبالبداهة والتجربة ، كان وسيبقى . بفطرته وقرآنه . هو الوحيد القادر على ضبط الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وهو طالما ضبط وطالما صحح ، وما زال أمامه الكثير ، لإسقاط بنايات كرتونية في هذه العلوم ، ما أنزل الله بها من سلطان .

وإذا كان همتنا كبيراً بتخليص فكر التوحيد ممّا تنسج حوله العناكب ، فإنّ ذلك وحده كفيل بإعادة الشخصية الإسلامية إلى قاعدتها الأصيلة ، ولأن ذلك وحده كفيل بأن يرفعنا من سفاسف القول والكتابة ، وينقذنا من الغرق في رمال متحركة بين أطنان من الكتب الصفراء ، التي هي رغم فقرها وبؤسها ، تبعث اليوم من موتها في حلل جديدة ، لتقدم من جديد ، لعقول مشاريع العلماء ، وراوح مكانك ... مع نفس المواد من ألف سنة .

أما إذا احتج علينا . كما هي العادة . بعصية ونزق ، بأن الإمام الخميني ، قاد الثورة المضفرة ، التي قلبت موازين الأرض ، وقصمت ظهور الطواغيت ، وأن الطالقاني ، وأن مطهري ، وأن بهشتي ... وغيرهم على ساحاتنا الإسلامية ، ممّن هم مصاديق لقوله عزّ وجلّ :
{..فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (1) .

أقول ، هذا صحيح ، وأقول ، هؤلاء أشخاص تاريخيون ، ربّاهم الله عزّ شأنه بفكر

التوحيد ، وما ربّتهم كتب (راوح مكانك) .

ونظرة رصينة متأنية ، في أفكار أكثر طلاب العلم اليوم وشخصياتهم ، كذلك المتقاعدين عن طلب العلم والذين همُّهم الجباية ، هذه النظرة قد تبكي الناظر من الإشفاق والمرارة ، لا سيّما إذا ربطنا هذا الفقر النوعي ، بنسبة التكاثر المتصاعدة .

(1) سورة الأحزاب ، الآية 23 .

أمّا سبب هذا الفقر النوعي ، والغرور والعصبية ، والتقاعد والجباية ... فهو هزال فكر التوحيد ، وحيث يكون الهزال يكون نسيج العنكبوت وشباك الشياطين .

هذا النقد القاسي في ظاهره ، مبني أصلاً على توقير كبير واحترام عميق لرجال الدين الأصيلين ، يعني للعلماء الذين هم أهل في الحقيقة ، لأن يكونوا ورثة الأنبياء عليهم السلام ، كما قرّر رسول الله محمد صلى الله عليه وآله مؤدياً في تقريره هذا رسالة ربّه رب العالمين عزّ سلطانه ، حيث قال صلى الله عليه وآله : العلماء ورثة الأنبياء . هذا إضافة إلى ثناء الله عزّ وجلّ على العلماء ، في موارد كثيرة من كتابه الكريم . أمراً سبحانه بوجود التخصص في العلوم الدينية ، وجوباً كفائياً . مرجعنا في ذلك قوله عزّ وجلّ :

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } (1) .

نفهم منها أنه ليس لكلّ مسلم أن يدّعي لنفسه كونه رجل دين بمعنى الإختصاص ، أو أن يدّعي كونه عالماً دينياً ، إلا إذا استجمع من الشرائط الكثيرة المهمة ما يحوّله لذلك . وهذه الشرائط معروفة في توصيف الله عزّ شأنه للعلماء ، وكذلك توصيف رسوله صلى الله عليه وآله ، وآل بيت النبوة عليهم السلام . فإذا فعل طالب العلم ذلك متوخياً استجماع الشرائط ، كان طلبه للعلم الديني العملي ، هو ساحة جهاده ، وتبعاً لذلك يسمّى بحق : رجل دين ، وكان على الناس بكافة مستوياتهم وحقول اختصاصاتهم غير الدينية ، أن يرجعوا إليه ، ليدلّهم

على أقوام السبل المنجية من الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة .
والواقع أن عدم فهم هذه الحقيقة ، شجّع بعض الكتاب ، على شن حملة تجريح برجال
الدين ، فأخذوا ، وبمعلومات دينية سطحية ، تارةً يدعون

(1) سورة التوبة ، الآية 122 .

الدول العلمانية ، لاستيعاب رجال الدين وتوظيفهم ، وبذلك تكم أفواههم وتلجم أقلامهم .
وتارة يوجهون إليهم تهماً عبر مقاييس غربية أو غريبة عن شرعنا المقدس ، وتارةً يظنون بهم
الظنون التي هي أبعد ما تكون عن واقعهم الطاهر النظيف ، وتارةً يتخذون نموذجاً فرداً من
رجال الدين ، يوافق كونه محطّ نقد ، أو يكون غير ذي أهلية ، فيحكمون عليه ، ثم يسحبون
هذا الحكم على جميع العلماء ، وهذا من أكبر الدواهي التي تسقط معها قواعد الشرع وحتى
مقاييس علم النفس وعلم الاجتماع وجميع العلوم العقلية والأخلاقية .

ولذلك وجهنا يوماً كتاباً مغلقاً ، لكاتب قفز من حقل إختصاص غير ديني ، ليهجم
هجوماً شرساً على رجال الدين عامة في كتاب له ضمّنه كل ما أسلفت إليه من التهم والظنون ،
انطلاقاً من حكمه على نموذج واحدٍ أو اثنين أو ثلاثة من الحالات الشاذة ، وحيث إننا
استرسلنا بهذا الصدد في حديث مكشوف ، وجدت بإذنه تعالى ، أن أجعل هذا الكتاب الذي
أرسلته إليه ، مفتوحاً ، ليكون رداً مهذباً على أمثاله ، سائلاً الله تبارك وتعالى أن يجعله بارقة
هداية لهم ، لننعم وإياهم بمغفرته ورحمته ، ورضاه ورضوانه .

وهذا نص الكتاب بحرفيته ، مسقطاً منه فقط اسم الكاتب :

عزيزي الدكتور ... دمت سالماً ،

السلام عليكم وتحياتي الطيبات ، وبعد ،

آن لي أن أصارحكم بشعوري اتجاه كتابكم الذي فيه أعاجيب لعلّ أعجب ما فيها أن يكون ضميرك مرتاحاً من جرائمها . ومن الأمثلة البارزة إصداركم تلك الأحكام الظالمة من حيث تعميمها على رجال الدين . ولعلّ لا بدّ من القول ، أن اهتمامي بهذا الأمر ليس غيراً على السلك ، بقدر ما هو غيراً على الحقيقة ، لذلك رأيت لكم وجوب المراجعة ، مجرداً عن التأثيرات الذاتية والخصوصية عندكم ، وفي ضوء استجماع أشمل واعمق للحقائق .

لك أو عليك المردود من الله عزّ شأنه . ثم بنسبة إيجابية التأثير أو سلبيته ، كذلك بنسبة كيفه وكمّه عمقاً واتساعاً يكون الثواب والعقاب في الدنيا وبعدها ... صحيح أن الإعراف بالخطيئة والتراجع عنها أمر يحتاج إلى شجاعة ، ولكنه في أسوأ الأحوال ، أفضل من التلبّس بالخطيئة والتغطّي بظلّ الإصبع . ومسؤولية خطيرة الإبقاء على هذه الشتول دون تنويه مكتوب بإسقاطها ، أو على الأقل توجيهها ، لتثمر سنابل لا مجامر في بارود هذا المجتمع الذي بات على شفير .

جنبنا الله وإياكم الخطأ والزلل ...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بعناية من ربي الحبيب ، انتهيت من تأليف هذا الكتاب

21 جمادى الآخرة 1414 هـ / 4 كانون الأول 1993 م

